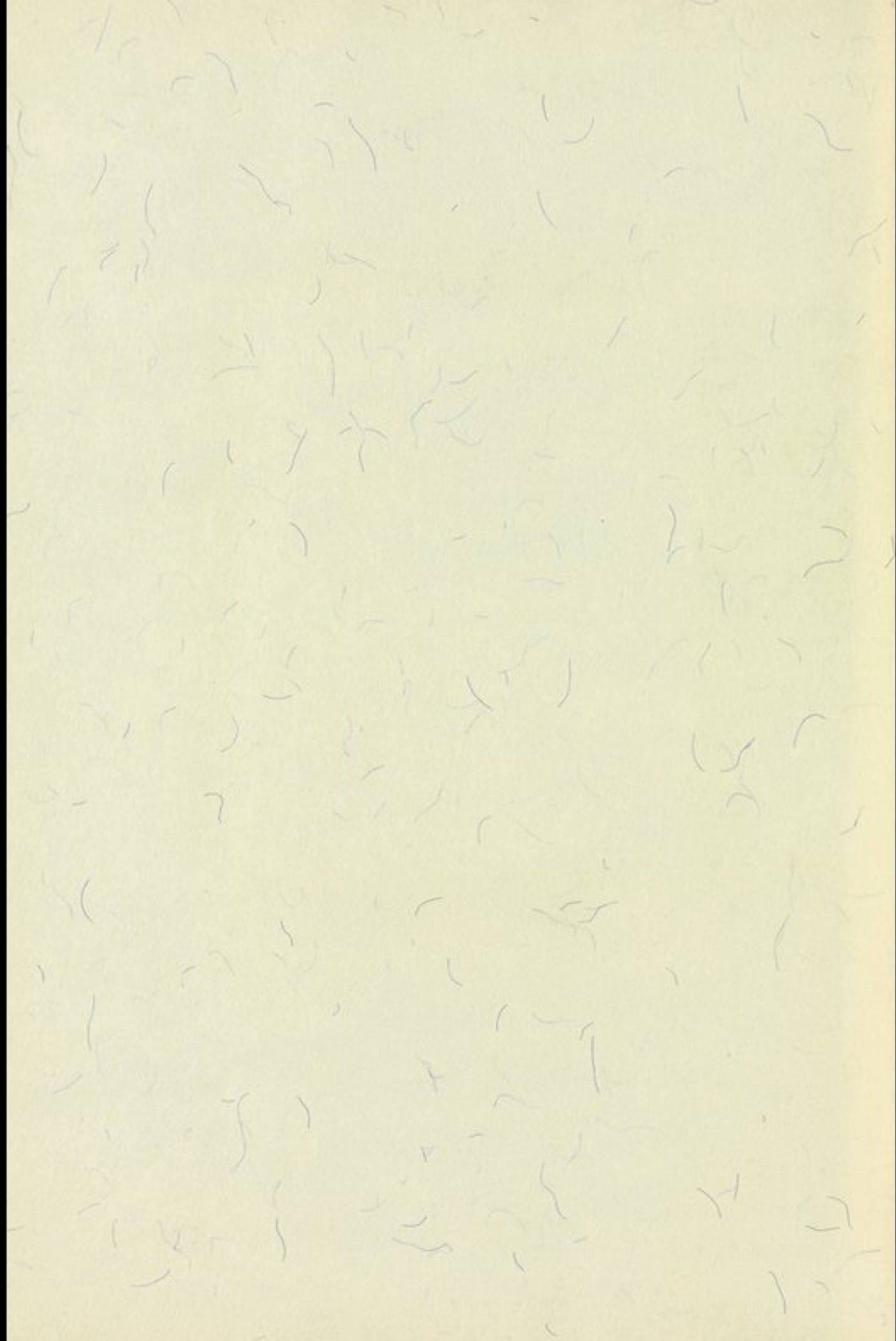
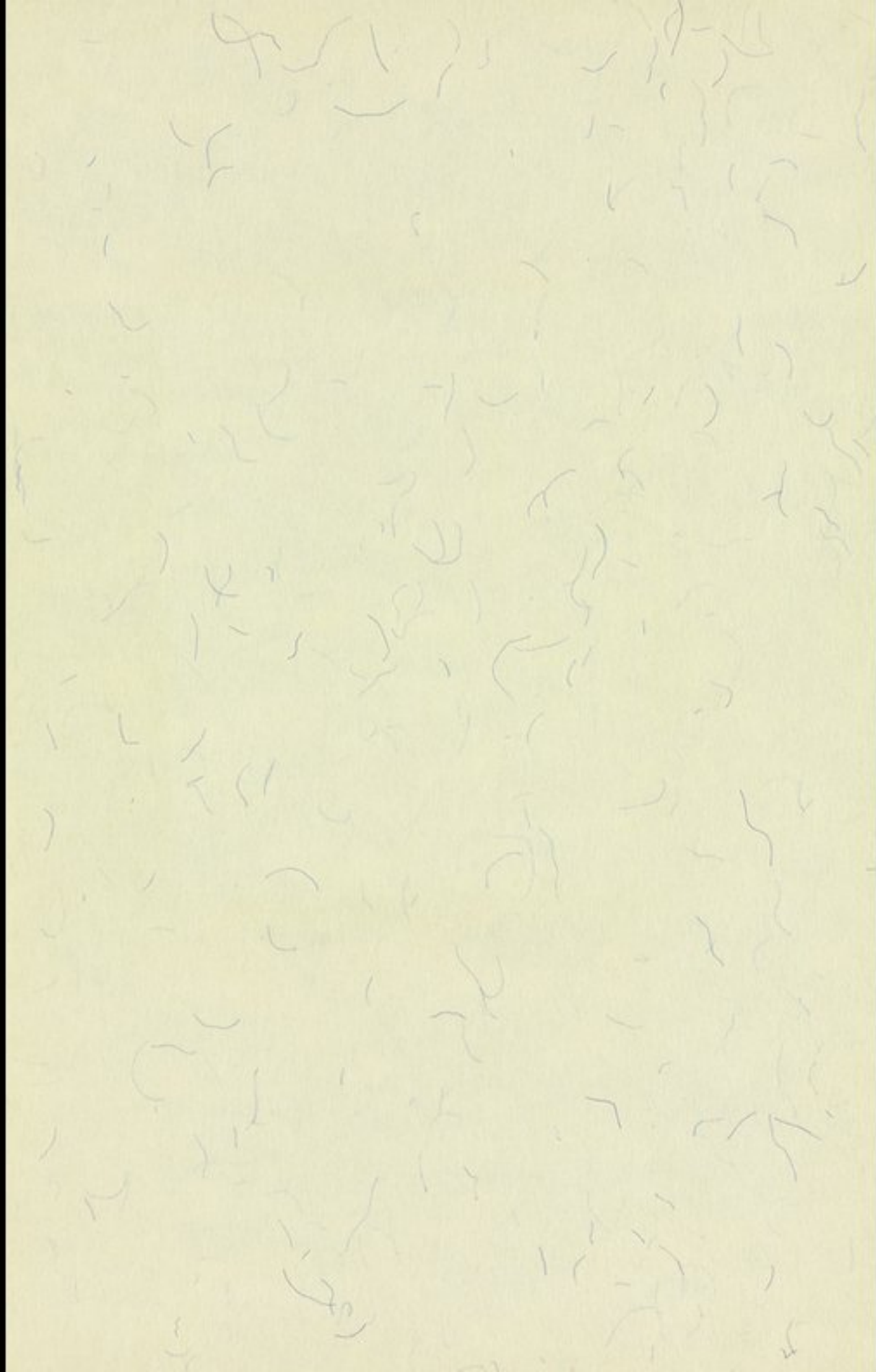


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY





cat (61)

سلسلة الكتب الحريضة

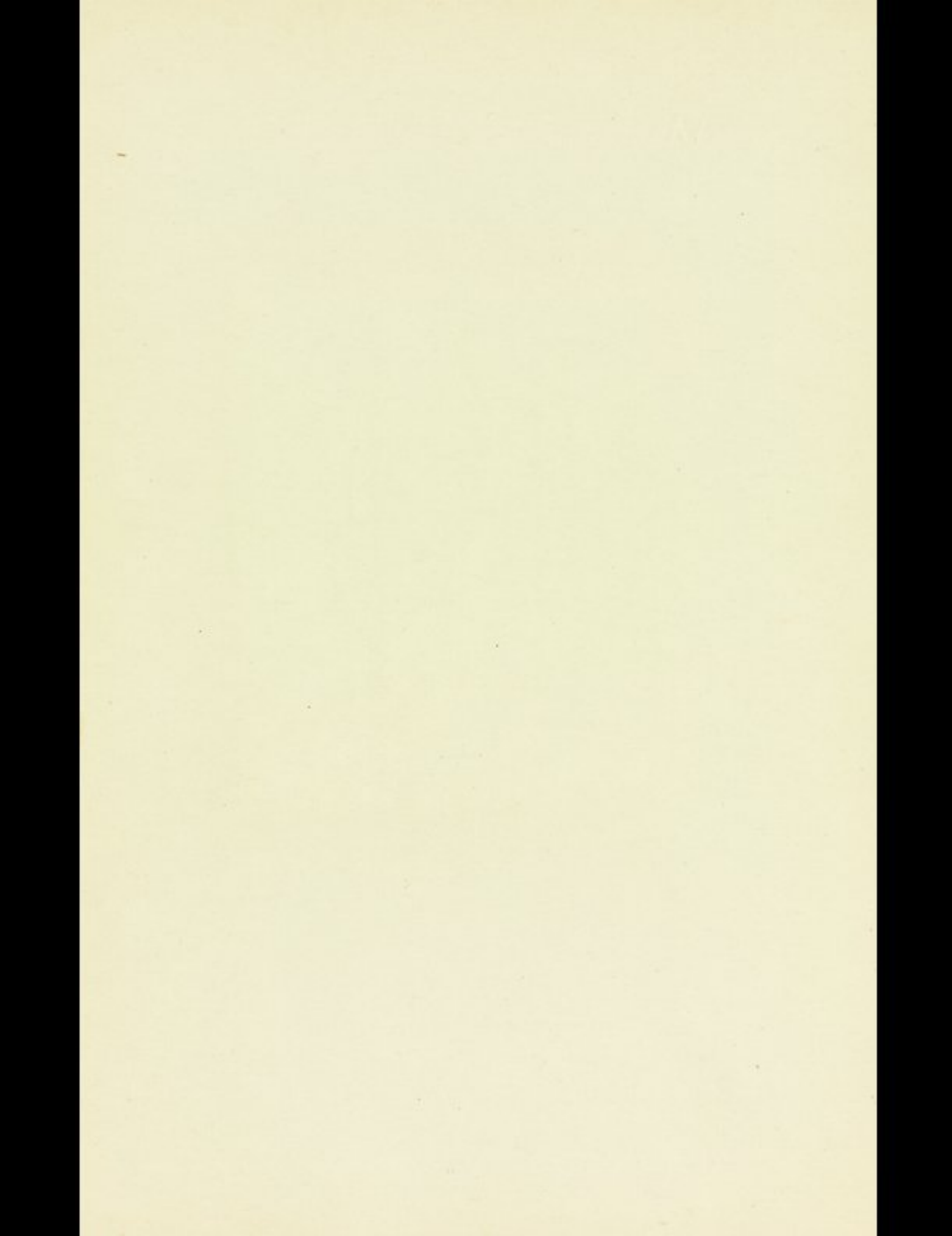
٢٨

وزارة الثقافة والإعلام والإدارة
مديرية الثقافة العامة

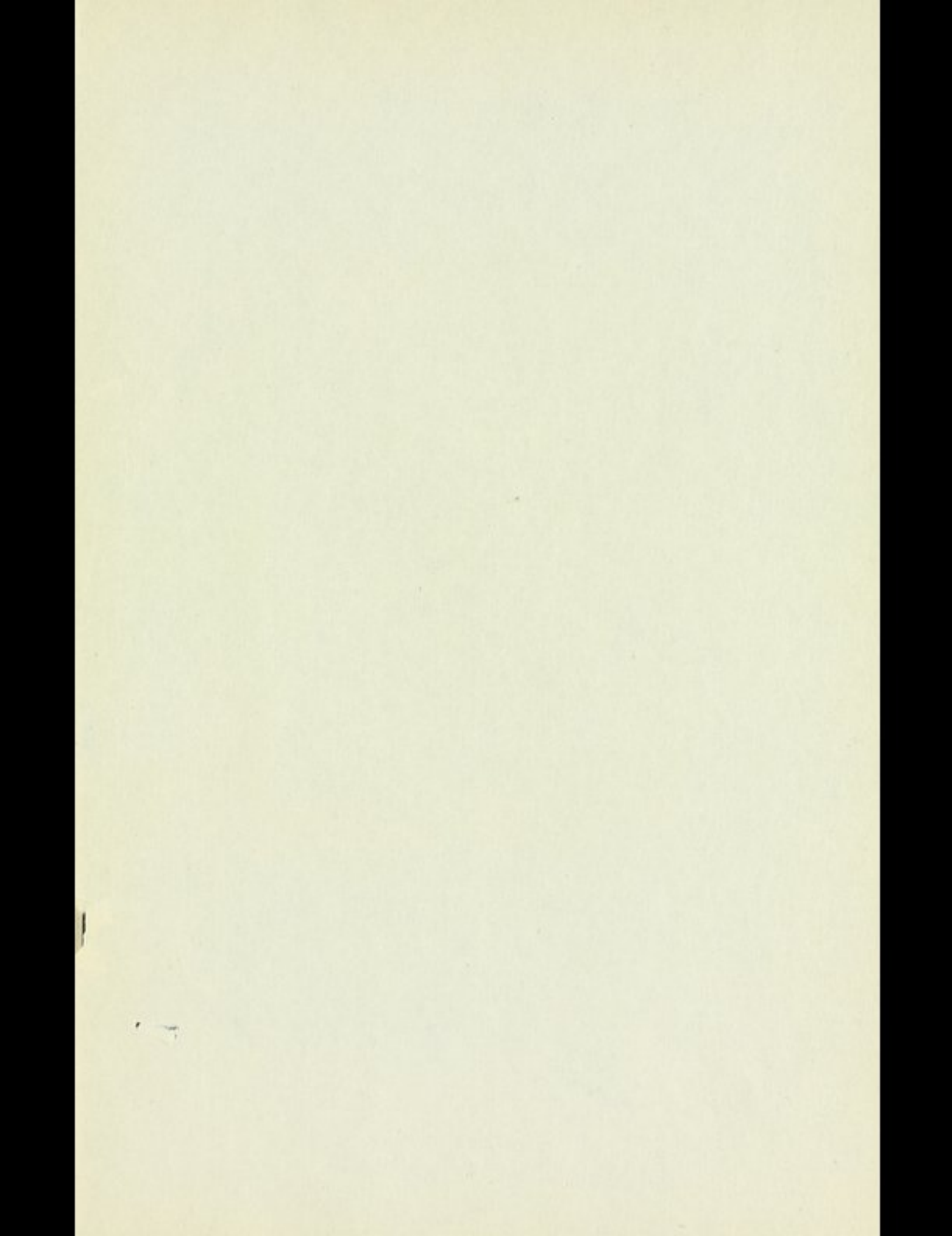
العقائد وتطورها الفكري

تأليف

عبدالحجى دياب



العقاد وتطوره الفكري



العقائد
وتطوره الفكري

تأليف

عبدالحى دياب

Dr 27

28

المؤسسة العامة للطباعة والنشر

دار الجمهورية

١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

تقديم

ان من أصعب الاشياء على من يقوم بدراسة شخصية أدبية ، أن تكون تلك الشخصية متعددة الجوانب ذات رصيد هائل من الثقافة الذهنية والنفسية عظيم ، ومن هنا أشفقت على نفسي ، وأنا أكتب عن العقاد هذا الكتاب الذي أقدمه للقارىء بكل ما فيه من اخلاص وجهد .

ومنذ قدر لي أن أتصل بالعقاد في عام ١٩٤٧ قارئاً ، وأتصل به شخصياً في عام ١٩٥٠ وأنا عاكف على قراءة إنتاجه ودراسة آثاره حتى أسفرت تلك الدراسة وهاته القراءة عن اعداد رسالة علمية نلت بها درجة الماجستير في النقد الادبي الحديث ، وموضوعها : « عباس العقاد ناقداً » . ثم سجلت رسالة أخرى في العام الماضي للحصول بها على درجة الدكتوراه عن العقاد أيضاً ، وموضوعها : « عباس العقاد شاعراً » . وعلى الرغم من هذا كله ، فأنني لا أكتم القارىء سرا ، وهو أنني كنت أشعر بالعجز دائماً وأنا أكتب عن العقاد أمام هذا الطوفان من قراءاته وإنتاجه المتعدد النواحي ، المتشعب المسالك ، الذي زاد به كثيراً من ضروب المعرفة شأنه في ذلك شأن الرواد الانسانيين في العالم .

وقد أكد هذا الشعور في نفسي مصاحبتي للعقاد هذا الرده الطويل من الزمن في ندواته وجلساته الخاصة التي كان يمنحها للمخلصين من تلاميذه ليتحدث معهم حديث الاستاذ لتلاميذه ، أو حديث الوالد الى أبنائه ، كما أكد ، في نفسي ما كنت أقروءه عنه مما كتبه الفضلاء من النقاد العرب والمستشرقين على حد سواء ، ولا زالت ترن في أذني كلمات المستشرق الالماني « كمفماير » كان دائماً يقرأ بنهم شديد ، ويبين لنا من

نقده وتحليله للكتب أنه يتمتع بذوق نادر في اختيار قراءاته ، (١)
ولا زلت مشدوها لما كتبه عنه دوائر المعارف العالمية •
على أنني أشفقت على نفسي أيضا وأنا أكتب عنه كتابا عاما ، من
محاولة تبسيط المادة العلمية تبسيطا لا يختصم المنهج العلمي السليم مع
ايجازها ايجازا يقدم لنا العقاد تقديما غير محل بجانب من جوانبه
الشخصية والفكرية ثم عرض هذه المادة العلمية الموجزة في شكل يقدم
لنا العقاد في صورة حية نابضة ، بحيث لا يعسر على القارئ أن يلقاه
في كل مكان ، وفي كثير من القضايا التي تعن لنا ، فيقول حينئذ من
فوره ها هو العقاد بفكرة وسلوكه ، باحساسه وشعوره قد عاد •• عاد
ليسير مع السائرين في موكب الزحف العربي ، لا أن يعود منطويا على
نفسه يكتب في الفكر المجرد ، والقضايا التي لا نعيشها ولا تعاشنا ،
كما زعم بعض معارضيه والشائين عليه •

ومن هنا أزعم أن الكتاب خرج الى القارئ بصورة تكاد تكون فنية
في الوقت الذي لا تجافي فيه المنهج الاكاديمي الذي نستخدمه في
دراساتنا الجامعية •

وأود أن أجيب على تساؤل ربما ينشأ في هذا المقام عن مدى تصور
العجز مع انسان يزعم أن له اتصلا شخصيا بالعقاد ، ودراسيا لاتجاهه
من حيث ابداعه ودراساته •

وللاجابة على هذا التساؤل لابد من ذكر حقيقة تمثل في أن العقاد
رهيب ومخيف ، لان الكتابة عنه تعني أن يحيط الانسان بالتيارات الادبية
والفكرية المعاصرة ، وذلك ليكون كلامه أقرب مايكون الى الحقيقة • على
أنني لست أول من يتهيب الكتابة عن العقاد على الرغم من ذلك الاتصال
وتلك المدارس ، لان هناك من اخواننا الفضلاء من نجلمهم ونقدرهم ،
وممن سبقونا الى عالم الادب والفكر ، وسبقونا في الوقت نفسه الى التلمذة
على العقاد منذ أربعين عاما أو تزيد ، ومع ذلك لم يبدأ من كلف منهم

(1) Tahir Khemiri and G, Kanpffmeyer: *Leaders in contemporary Arabic literature* (1930) p. 13.

بالكتابة عن العقاد • وحجته - وهو صادق فيها - في التهيب ، هي ما أبديته في هذه المقدمة ، بالإضافة الى أن الكتابة عن العقاد تحتاج الى التفرغ الكامل ليتأمل الكاتب آثاره العلمية والادبية ، وسلوكه وأخلاقه لكي يخرج من هذه وتلك بدراسة أقرب الى الصدق في تصوير العقاد العملاق •

ومهما يكن من أمر فقد تعرضت للاحداث الكبرى في تاريخ استاذنا العقاد ، تلك الاحداث التي ترسم لنا ملامحه ، وتأخذ برقاب بعضها البعض فتؤثر في فكر العقاد نفسه • كما حرصت على أن أبين مصادر الكتاب ومراجعته في حواشي أملتتها المناسبة فرصتها في صفحة •

على أن اعجابي بالعقاد وبمبادئه في النقد والفكر ، وتلمذتي له ، لم يمنعني من التزام الانصاف العلمي فأنتصف للعقاد أو أختلف معه في بعض القضايا كما سيرى القارىء في تضاعيف هذا الكتاب •

ولقد تقاضانا المنهج العلمي أن نتحدث عن البيئة العامة في الوقت الذي ولد فيه العقاد كتمهيد للحديث عن العقاد نفسه ، لان الذي لاشك فيه ان الانسان ابن جيله وعصره ، ويندر - في الوقت نفسه - أن يشتهر رجل أو يصل الى قمة العظمة ، الا وللعصر أثر كبير في أخلاقه ان لم تكن أخلاقه كلها مشابهة لاخلاق عصره ، لان الشهرة أو ارتقاء المناصب تجاوب بين الرجل وأهل زمانه ، وقلما يتأتى هذا التجاوب بغير مماثلة أو مقابلة بين الشئيين المتجاوبين وذلك على حد تعبير العقاد في مقدمة كتابه « عبقرية عمر » •

واذن فلا مناص من دراسة البيئة العامة بحيواتها الثلاث من سياسية واجتماعية وفكرية ، ثم هذه الحيات الثلاث في نفوس المصريين • ثم تحدثت في الفصل الاول عن بيئته الخاصة ، فتحدثت عن مولده وأسرته ، ومدرج صباه ، ثم وقوفه في مفترق الطريق بين بيئة جامدة على التقاليد الشرقية المتوارثة كما رآها لدى الاسوانيين من أهله

ومواطنيه ، وبين بيئة المهندسين والخبراء والمفتشين الذين كانوا يعملون في « خزان أسوان » والذين يأخذون بأسباب المدنية على أتمها وأكملها ، وما انتهت اليه من السفور وعدم المبالاة بهذه الشكليات التي تكاد تخفق الاسوانيين ، وفي الفصل الثاني تحدثت عن كفاحه في سبيل العمل بصناعة القلم ، وكيف فكر في انشاء مجلة « التلميذ » وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، والثانية الابتدائية في دراسته كما تبعته في الوظائف التي عمل بها ، وموقفه من التقليد والتجديد في الكتابة ، حينما أفسحت له صحيفة «الدستور» صدرها ، ليكون محررا بها ، وتبعته كذلك في اتاجه الادبي والفكري .

ثم خصصت الفصل الثالث لتعرفه على الادباء من الجيل الذي سبقه ومن معاصريه ، وكيف استصفى من معرفته هذه اثنين هما ابراهيم عبدالقادر المازني وعبدالرحمن شكري ، وكون معهم صداقة فكرية أسفرت عن قيام مدرسة الجيل الجديد ، التي يسميها بعض الدارسين خطأ بمدرسة «الديوان» . وقد عرضت في هذا الفصل أيضا للخصومة التي نشبت بين شكري والمازني ، وما ادعاه بعض الدارسين من استاذية شكري لكل من المازني والعقاد معا .

وفي الفصل الرابع تحدثت عن معالم المدرسة الثورية وموقف العقاد من مقومات هذه المدرسة ، واصالته في الدعوة ، وعلاقة مدرسة الجيل الجديد بمدرسة المهجريين في أمريكا .

ثم عقدت فصلا خامسا للحديث عن العقاد في عالم السياسة ، وذلك ليتسنى لنا الوقوف على مقومات العقاد الشخصية بصورة كاملة ، وربطت في الوقت نفسه بينها وبين نظرياته النقدية . وفي دراستنا للعقاد السياسي حاولت الوقوف على منهجه السياسي ، وموقفه من السياسة المصرية وثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

وقد استبعت حديثنا عن موقفه من ثورة ٢٣ يوليو أن نعقد فصلا سادسا للحديث عن العقاد والاشتراكية ، وكيف استهل حياته اشتراكيا

«فابيا» ثم تطورت الاشتراكية في تصوره الى الاشتراكية الديموقراطية ،
وكيف طالب بتذويب الفوارق بين الطبقات في مصر مسايرة للتقريب بين
الطبقات في العالم . ثم مؤنف الاشتراكية من الاسلام .

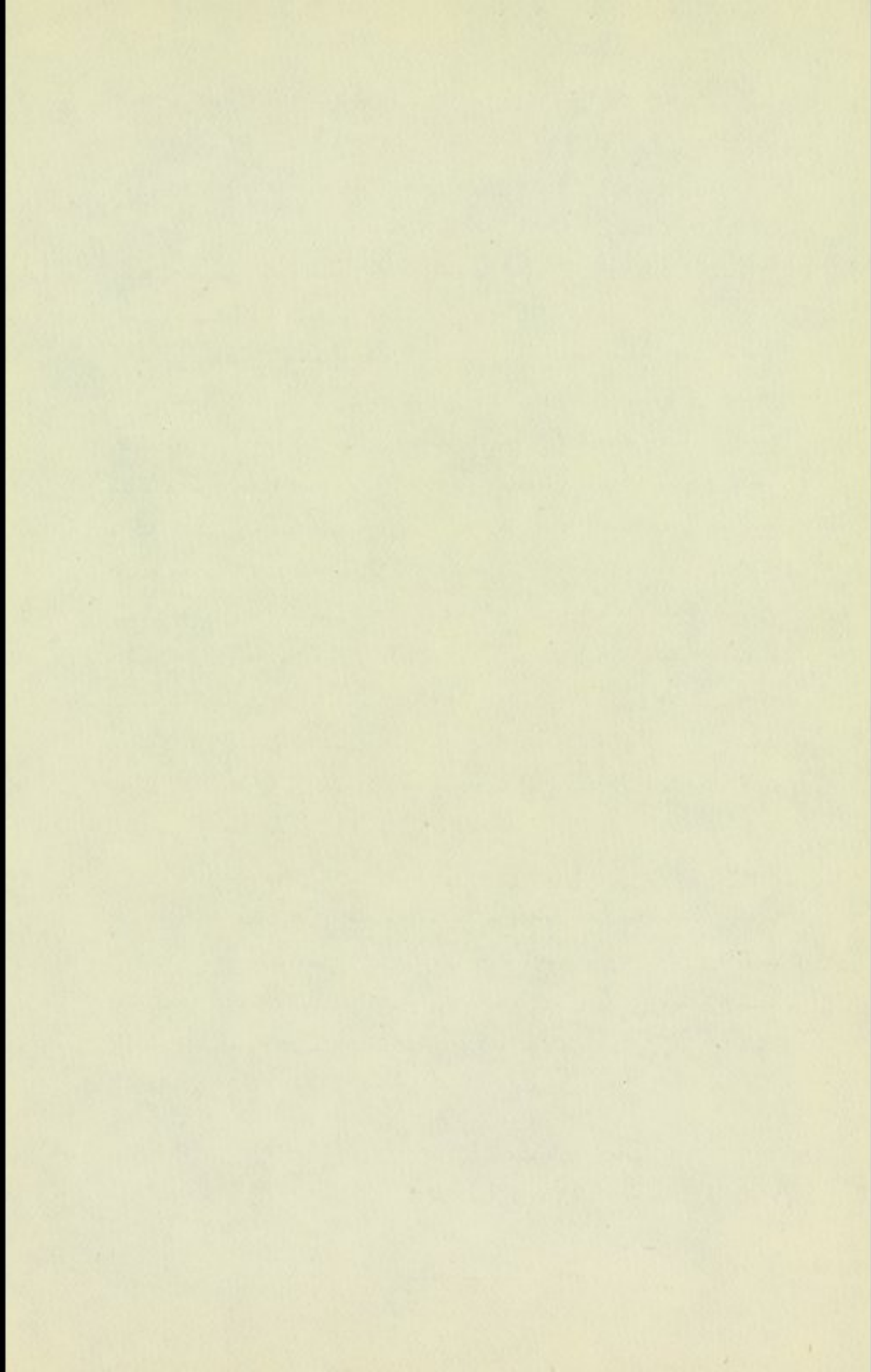
وفي دراستنا لعالم شخصيته في الفصل السابع ، حاولنا التعرف على
شخصيته وعقيدته ، وفلسفته العامة بأسسها الثلاثة : الفردية ، والحرية ،
ونظراته الفنية الى الكون والحياة .

وفي الفصل الاخير تحدثت عن نهاية المطاف وكيف ودعنا العقاد
ولحق بالرفيق الاعلى ، وكيف استقبل الكتاب وفاته وما قالوه في هذا
الصدد . ولقد حاولت جهدي في هذا المنهج أن أستخلص صورة نفسية
للعقاد ، تعرفنا به وتبدي لنا خلائقه وبواعث أعماله ، ومن ثم جاء الكتاب
- فيما نزع - وصفا للعقاد ودراسة لاطواره ودلالة على خصائص
عظمته . ولهذا فأنني قد أعطيت كل انتباهي الى العلامات والدلائل الخاصة
بنفسيته وأنا أحاول تصوير حياته ، ومن هنا تحررت من مسائل أخرى
وقضايا أثيرت حوله ، لأنني لا أهدف الى ادخال العقاد قفص الاتهام
- مهما خالفته في ثنايا الكتاب فيما يتصل بالسياسة - بل وقفت الى جانبه
وناضلت في صفه بعد أعمال الفكر ، واستيحاء الضمير والاحساس فيما
أبدت من تحليل لأرائه ودراسة للمواقف التي صدرت فيها هذه الآراء
من حيث والعقاد معا .

ولقد انتهيت من هذا الكتاب في اليوم الذي ولد فيه العقاد ، ولهذا
فأنني أقدمه تحية له في عيد ميلاده ، كما أقدمه للدارسين عساه يسهم
في اجلاء بعض الغوامض التي اكتنفت حياة العقاد ، وعل القارىء يقف
على مقدار ما عاناه العقاد في سبيل هذا المجد الادبي الذي وصل اليه
بكفاحه ونضاله ولا سيما أن طريقه لم يكن سويا ، بل كان وعرا مرصوبا
بالضحايا .

عبد الحي دياب

جزيرة الروضة في ٢٨ من يونيه سنة ١٩٦٥



تمهيد

البيئة الخاصة

ينبغي قبل أن نتحدث عن حياة العقاد ، أن نتعرف في ايجاز شديد على البيئة العامة من الناحية السياسية والاجتماعية والفكرية ، ليتسنى لنا بعد ذلك الحديث عن تفاعل العقاد مع البيئة العامة ومقومات شخصيته .

١ - الحياة السياسية :

وللحديث عن الحياة السياسية في البيئة العامة التي عاش فيها العقاد ، لا بد أن ندخل في حسابنا أن نظام الحكم في مصر قبل أن نضع لها دستورا كان فريدا ، فهو فردي يخضع لرغبة الحاكم التحكيمية في مواطنيه .

ومن ناحية أخرى فإن شكل الحكومة في مصر والشرق كذلك لم يستفد من التجارب المتتابعة وراء تكوين الحكومة الصالحة في فرنسا وانكلترا ، وذلك لامور تلخص في أن هذا الجمود ناشئ من عدم أسهام الشعب في اختيار حكوماته المتوالية المتتابعة^(١) .

على أنه قد قامت محاولات ثورية كثيرة للتخلص من نظام الحكم الفردي ، وذلك حينما يشعر الوطن بالوحدة القومية تحل محل القبلية في حياته الاجتماعية ، فقامت ثورة عرابي في مصر عام ١٨٨٢ مستهدفة استبدال ذلك الحكم الفردي بحكم نيابي عن طريق الانتخاب بين

(١) عباس العقاد : خلاصة اليومية ص ٦١ ط أولى . القاهرة في

عام ١٩١٢ .

المواطنين ، غير أنها أخفقت وحقا بقادتها ألوان العذاب من نفي وتشتريد وهول وهوان . ومهما يكن من أمر فإن اخفاق الثورة العراقية قد شجع الحاكم المتجبر على أن يطلق يده في البلاد بمساعدة المستعمرين من انكلترا وفرنسا^(٢) .

وهد ظهرت في مطلع هذا القرن الاحزاب المصرية ، حتى وصلت عدتها آنذاك أربعة ، وكان لكل حزب منها رجالاته وصحفه التي تنطق بلسانه ، ومنهجه في العمل . . فمن هذه الاحزاب من كان يعمل للانجليز وكانت لسان حاله جريدة «المقطم» ، ومنها من كان يعمل للخدوي وتمثله «المؤيد» وصاحبها ، ومنها من كان يعمل لتركيا أول الامر ، في الوقت الذي يطلب فيه الاستقلال التام لمصر وهو «الحزب الوطني» ، والحزب الاخير هو «حزب الامة» الذي أنشئ في عام ١٩٠٧ بعد مغادرة كرومر للبلاد^(٣) .

والدارس للفكرة الوطنية لدى المفكرين السياسيين آنذاك يرى أنها لم تظهر بوضوح بعيدة عن الجامعة الاسلامية الا على يد رجال حزب الامة الذين ترسموا خطى استاذهم الامام محمد عبده^(٤) .

وقد كان لمأساة «دنشواي» التي حدثت في عام ١٩٠٦ ، واعلان الحماية على مصر في عام ١٩١٤ ، أثر سيء في نفوس المصريين ، اذ شاع في الناس سيئات الحكم على أسوئه في هذا الوطن^(٥) ، وبقيت مصر في حرب عوان بينها وبين المستعمر الغاصب ، فتألفت وزارات لم تستطع حكم البلاد ، ولبثت البلاد من غير حكومة فترات طويلة ، وفي ذلك

(٢) عبدالحى دياب : عباس العقاد ناقدا ص ٥٧ وما بعدها ط أولى القاهرة سنة ١٩٦٥ .

(٣) عبدالحى دياب : عباس العقاد ناقدا ص ٥٧ وما بعدها ط أولى القاهرة سنة ١٩٦٥ .

(٤) تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد ، ترجمة عباس محمود ص ٢١٤ وما بعدها .

(٥) عباس العقاد : في آخر ساعة الصادرة في ٢٣ من أكتوبر ١٩٥٧ تحت عنوان « حياة قلم » .

الوقت رضخ المستعمر الى اجراء مفاوضات بينه وبين ممثلي الامة .
وانتهت تلك المفاوضات باستقلال مصر داخليا ، وتمثل هذا الاستقلال في
وضع دستور لمصر ، أعلن في ١٩ من أبريل سنة ١٩٢٣ . وبه انتقل
حكم البلاد الى المصريين الذين كانوا يقفون خلف الوفد المصري بقيادة
سعد زغلول ، ولكن هذه الوحدة ما لبثت أن تصدعت بانفصال جماعة
عن الوفد كانوا نواة لحزب « الاحرار الدستوريين » الذي أسس في
أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وألف حزب « الاتحاد » ثم حزب « الشعب » ،
ثم اندمج كلاهما في حزب « الاتحاد الشعبي » وكانا يشايعان القصر
الذي احتفظ ببعض مزايا الحكم . . . وقد أدت هذه الفرقة الى تآحر
الاحزاب فيما بينها ، وظلت على هذه الحال حتى قامت ثورة ٢٣ من يوليو
سنة ١٩٥٢ بزعامه الرئيس جمال عبدالناصر^(٦) .

٢ - الحياة الاجتماعية :

ويرى الباحث في الحياة الاجتماعية في مطلع هذا القرن ، أن
الدعوة الوطنية كانت تتضمن اتجاهين يخضعان لمبادئ الاحزاب السياسية
اذ يمثل الاتجاه الاول في عدم فصل الدين عن الدولة ، وليس أدل على
ذلك من الحزب الوطني الذي يدعو الى استقلال مصر تحت السيادة
العثمانية .

ويتمثل الاتجاه الثاني في عدم اختلاط الدعوة الوطنية بالنزعة
الدينية ، كما هو واضح في مبادئ « حزب الامة » وباقي الاحزاب
الآخري التي كانت تدعو الى استقلال مصر تحت السيادة المصرية ، ومن
هنا نادى ممثلو هذه الاحزاب بفصل الدين عن الدولة ، كما نادوا بتحرير
المرأة ، وفض الحجاب عنها ، وكان في مقدمة الداعين الى ذلك قاسم أمين
الذي أبى أن ترزح المرأة العربية تحت وطأة الحجاب ، وألا تشارك
الرجل في الحياة ، كما تصنع المرأة الاوربية .

(٦) عمر الدسوقي : في الادب الحديث ج ٢ ص ٧٢ .

وفي نفس الاتجاه سارت ملك حفني ناصف ، غير أنها قيدت
 السفرور بالاحتشام ، وأنكرت اختلاط الجنسين^(٧) .
 وبجانب ذلك نرى عباس العقاد يطالب بتحرير المرأة من الحجاب
 وبتهكم بالدعاة اليه ، وذلك حينما ذهب الى أنه خير للرجل الذي يخشى
 أن تصادفه امرأة في الطريق فيفتن بها ، أن يرجع الى نفسه فيقوم
 طباعها ويلطف من سبقها ، ذلك خير له وللعالم من أن يحكم بالسجن
 المؤبد على نساء العالم كله^(٨) . كما أنه دعا الى اختلاط الجنسين ، والحد
 من تعدد الزوجات بأسلوب تهكمي ساخر ، وذلك حينما يقول :
 « لا أدري لماذا يسوغ للرجل أن يستحوذ على أكثر من أربع نساء ،
 ولا يسوغ للمرأة أن تطمع في أكثر من ربع رجل ان لم يكن أقل^(٩) » .

٣ - الحياة الفكرية :

أما الحياة الفكرية لدى المصريين فتمثل في أنهم كانوا كثيري
 الاعتقاد في الخرافات ، يصنعون أيما اصغاء الى القصص الخرافية ، حتى
 غدا عالمهم مليئا بالسحر والنفاريت ، وبكل ما يوحي بانحطاط الفكر
 والجهل بحقائق الامور^(١٠) .

وعلى أية حال فقد قامت حركة اصلاح استهدفت القضاء على
 الخرافات والشعوذات التي كانت تتربع على معتقدات المصريين ، قام بها
 جمال الدين الافغاني ، وحمل مشعلها تلاميذه من بعده . وكانت هذه
 الحركة منارا يقبس من ضوئه كثير من المصريين المثقفين ليضيئوا به
 العقول المتخلفة لدى المصريين .

وعلى الرغم من ذلك كله فان القاهرة كما يقول العقاد : كانت

(٧) راجع باحثة البادية للانسبة « مي » ، ص ١٢٥ وما بعدها ،
 مطبعة المقتطف ، القاهرة عام ١٩٢٠ ، وراجع كذلك « في الادب الحديث »
 ج ٢ ص ٥٥ .

(٨ ، ٩) عباس العقاد : خلاصة اليومية ٢١ ، ٢٨ .

(١٠) عباس العقاد : خلاصة اليومية ص ١٥ ، وراجع كذلك :

اعترافات شكري لعبدالرحمن شكري ص ٢١ .

مركزا لكل دعوة .. دعاة الجامعة الاسلامية ، ودعاة الوحدة العربية ، ودعاة تركيا الفتاة ، ودعاة الاصلاح في ايران وفي اواسط آسيا ، ودعاة الحركات الوطنية في سائر الاقطار الافريقية من شمالها في بلاد المغرب الى جنوبها في بلا السواحي وزنجبار ، ذلك أن الدعوة القلمية في تلك الفترة قد بلغت في القاهرة مبلغا لا يدانيه ما بلغته في عاصمة من عواصم المشرق والمغرب^(١١) .

ويرى الدارس أن قوة هذه الدعوة القلمية كانت تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى ارواحهم وأبدانهم ، كما كانت تخيف المستعمر الذي اهتزت فرائضه منها ، لأنها تعني رحيله وعدم بقائه في البلاد ، ومن هنا سعى جاهدا في بحث قانون المطبوعات في ٢٥ من مارس ١٩٠٩ ، ذلك القانون الذي يخول وزير الداخلية الحق في اصدار الصحف وتعطيلها مؤقتا أو نهائيا من غير محاكمة أو دفاع^(١٢) ، ولبثت الصحافة على هذا الحال بين مد وجزر في حريتها فيما بعد ذلك حتى عام ١٩٥٢ وهو العام الذي قامت فيه الثورة المباركة .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الصورة - التي استوحيناها مما ترسب في نفوسنا من قراءاتنا لعصر العقاد - قد ابتعثت في نفوس المصريين سوء الظن أفرادا وجماعات ، ومن هنا فقد دهمتهم موجة عارمة من اليأس خلدوا من أجلها الى الراحة والاستسلام والتواكل ، وانعدمت روح التنافس بينهم ، وجمدوا على القديم يستوحونه في كل أعمالهم^(١٣) .

ومن هنا ذلك فقد فقدوا الشجاعة الادبية التي تعد تاجا يتزين هامات أصحاب النفوس والاخلاق ، واتصفوا بالرياء والنفاق ، وهما يستبعان الغيبة والنميمة ، والجرأة على الناس في غيبتهم كالتزلف اليهم

(١١) راجع اخر ساعة الصادرة في ٢٨ من اغسطس ١٩٥٧ تحت

عنوان « حياة قلم » .

(١٢) محمد توفيق دياب : اللمحات ص ٢٠ وما بعدها ، وراجع :

في الادب الحديث لعمر الدسوقي ج ٢ ص ٦٢ وما بعدها .

(١٣) عباس العقاد ناقدنا ص ٦٥ ، وراجع كذلك : « سعد زغلول

سيرة وتحية » لعباس العقاد ص ١٩ ، ٢٠ .

في حضرتهم ، وهذه كلها من علامات الجبن والصغار (١٤) .
في هذه البيئة التي كانت متسحة بالسخط والسأم ، والملية بالشكوى
في الادب والحياة العامة ، بحيث لا يترامى الى سمعك الا آهة متأوه ، أو
نشيح محزون .

في هذه البيئة نفسها عاش العقاد بطموحه وتوثبه وتمرده على القيم
المألوفة في ذلك العصر ، المتعارف عليها لدى المصريين ، وذلك في الوقت
الذي قد انسد فيه باب الامل في وجه طلاب العلا ، الذين أخذوا يسائلون
أنفسهم من أين يكون منفرج الطريق؟ (١٥) .

وفي وصف هذا الزمن يستعير العقاد وصف « تشارلز ديكنز »
لعصر الثورة الفرنسية في الفصل الاول من « قصة المدينتين » وان كان
العقاد قد ألبس هذا الوصف رداء مصرىا نسجته أنفص مصرية ، يقول
تشارلز ديكنز : « أنه كان أحسن الازمان ، وكان أسوأ الازمان ، وكان
عهد اليقين والايمان ، وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور ،
وكان أوان الظلام ، كان ربيع الرجاء ، وكان زمهرير القنوط ، بين
أيدينا كل شيء وليس في أيدينا أي شيء ، وسيلنا جميعا الى قرار
الجحيم . . . تلك أيام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاحبون من ثقاتها
أن نأخذها على علائها ، وألا نذكرها الا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه
من طيبات ومن آفات » (١٦) .

يرى العقاد أن وصف « تشارلز ديكنز » السابق ينطبق أتم
الانطباق على الزمن الذي عاش فيه العقاد في أوائل القرن العشرين ،
ابان فترة اليقظة المصرية ، لانها فترة خالقة ، تمخض عن قوة
جديدة (١٧) .

(١٤) عباس العقاد : خلاصة اليومية ص ٢٥ .

(١٥) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(١٦) راجع قصة المدينتين لشارلز ديكنز بالانكليزية :

A tale of Two Cities, by Charles Dickens, Everyman's Library,
London.. 1942. p. 5

(١٧) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٠٣ .

الفصل الاول البيئة الخاصة

على الرغم من أن كثيرا من الدارسين ذهبوا الى أن مقومات الشخصية الفطرية أقوى من المكتسبة ، فاننا لا نستطيع أن نفعل مقومات شخصية العقاد المكتسبة ، لانه « لو كانت المقومات الشخصية هبة طبيعية فحسب ، لكنا ضحايا الظروف ، وما كان للتربية أي أثر في تكوين العظماء من رجال العلم والادب والفن ، ولكن أثرها لا ينكر في تكوين الشخصية والعظمة في نفوس العظماء »^(١) .

ويرى الدارس أن مقومات شخصية العقاد الفطرية ليست هي كل مقومات شخصيته ، ولكن يضاف الى ذلك تربيته الشخصية المستقلة ، اذ انه ربي نفسه بنفسه تربية كاملة من كل الوجوه ، ولم يعن في تربيته لنفسه بتنمية الفرد فيه حتى تتأصل الفردية في نفسه Individuality ولكن كان اهتمامه منصبا على تنمية الشخصية الذاتية فيه Personality كما يتضح ذلك من سلوكه وأخلاقه وفكره^(٢) .

وليس معنى هذا أنه من الممكن فصل المقومات الفطرية من المكتسبة ولكنهما يرتبطان معا بخيط تاريخي يصل ما بين ولادة العقاد ، وما بين تغييره لوجه الدراسات النقدية والادبية في مصر .

١ - مولده واسرته :

تقول دفاتر المواليد الخاصة بمحافظة أسوان أن عباس محمود العقاد قد ولد في ظهر يوم الجمعة الموافق ٢٨ من يونيه سنة ١٨٨٩ من الميلاد لاب كان يقوم على أمانة المحفوظات « الدفتر خانة » بمحافظة أسوان . وكان والده مزواجا ، اذ تزوج ثلاث نساء ، احدهن والدة

(١) محمد عطية الابراشي : الشخصية ص ١٠ ، ١١ .

(٢) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

عباس التي أنجب منها خمسة أبناء وبنات^(٣) .
وكانت ولادة العقاد في بيت عتيق لا يخرج في شكله وتصميمه
عن البيوت الكثيرة في أسوان ، أو عامة البيوت في الاقاليم المصرية
آنذاك .

وبالإضافة الى ذلك فقد كان والده معروفا بالوقار والاخلاق
القوية ، وكان متدينا يصل به تدينه الى درجة التشدد ، كما أن والدته
كانت متمسكة بفريضة الصلاة تؤديها لاوقاتها . ومن ثم قال العقاد في
هذا الصدد : « نشأت بين أبوين شديدين في الدين ، لا يتركان فريضة
من الفرائض اليومية ، وفتحت عيني على الدنيا وأنا أرى أبي يسيقظ
قبيل الفجر ليؤدي الصلاة ، ويبتهل الى الله بالدعاء ولا يزال على مصلاه
الى ما بعد طلوع الشمس ، فلا يتناول طعام الافطار حتى يفرغ من أداء
الفرض والنافلة وتلاوة الاوراد . ورأيت والدتي في عنفوان شبابها
تؤدي الصلوات الخمس ، وتصوم ، وتطعم المساكين ، وقلما ترى النساء
مصليات أو صائمات قبيل الاربعين »^(٤) .

على ان هذه النزعة الدينية في بيته لم تكن مقصورة - كما يقول
العقاد على والديه ، بل كان اقاربه يشركونها في التدين والتقرب الى
الله .

وليس ادل على ذلك انك تجد انه من النادر ان تجد في اقاربه من
لا يسمى باسم من أسماء النبي وآله ، سواء منهم الرجال او النساء ، او
من أسماء الانبياء على العموم ، كما كان في بيت أخواله درس لقراءة
الكتب الدينية ، من بينها كتاب « احياء علوم الدين » للغزالي^(٥) .

ومهما يكن من امر فان النشأة الدينية لم تكن مقصورة على بيت
العقاد دون باقي البيوت المصرية في اواخر القرن التاسع عشر ، لان
النشأة الدينية لم تكن غريبة على البيئة المصرية ، اذ كانت تسود كل

(٣) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٤ ، ٥) راجع : مجلة « الهلال » عدد يناير سنة ١٩٤٧ .

بيت ، وتكمن في نفس كل فرد . ولعل هذا يضاعف تقديرنا لعبقريّة العقاد ولاسيما حينما نعرف نشأته الأولى بين هاتيك التقاليد التي لا تسيح للفرد بروزا لشخصيته ، الا بمقدار ان تصب في قالب المتعارف عليه آنذاك ، والذي يستعد قوته وبقائه من تلكم التقاليد المتوارثة .

ويرجع نسب العقاد الى اب مصرى هو محمود ابراهيم مصطفى العقاد من محافظة دمياط ، ووالدته من المحلة الكبرى ، وقد استقر به المقام في اسوان تبعا لعمله في ديوان المديرية . كما يرجع نسبه من جهة أمه الى اسرة كردية ، لا يختلفون كثيرا عن امم الشمال في لونهم وقامتهم ، وكان جد والدته لابيها ، وجدها لامها في الفرقة الكردية التي توجهت الى السودان بعد حادثة اسماعيل بن محمد علي الكبير سنة ١٨٢١ . وهناك عاش عمر أغا الشريف قبل قدومه الى اسوان ، وهو جد أمه لابيها ، وأبوها هو محمد أغا الشريف الذي اختار « أطيان » المعاش في قرية من قرى الاقليم . وكان محمد أغا الشريف يتكلم التركية والكردية ، وينطق العربية بلكنة غريبة توحى بانه ليس عربيا^(٦) .

وكانت أسرة والدته تسم هي الاخرى بالتقوى والصلاح والصلابة وكثير من الانفة والاعتزاز بالكرامة ، كانت تسم بهذه الاشياء سلوكا وأخلاقا وفكرا . ومن هنا ورثت أمه عن هذه الاسرة التقوى والصلابة والعناد وسلامة البنية ، وكثرة الحركة حتى كانوا يدعونها في البيت « بالمشدة » أي رئيسة العاملين في البيت ، وقد ورثت كذلك عن أبويها صفتين نادرتين يندر وجودهما في النساء ، وهما حب الصمت والاعتكاف ، ولذا كان الناس يحسبون انها تصدر في صمتها واعتكافها عن كبرياء ونفخة أتراك ، كانوا يتوهمون فيها ذلك التوهم ، وما علموا أنها تصدر عن طبيعة تورث ، وخلقته دون تكلف^(٧) .

وعلى أية حال فان قوة العزيمة لدى العقاد وصلابته قد ورثها عن

(٦) عباس العقاد : أنا ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٧) المرجع السابق ص ٥٠ ، ٥١ .

والدته ، كما ورث عنها وعن أبيه أيضا الاعتكاف والصمت ، اذ كان لا يبرح بيته في بعض الاحيان لمدة أسبوع • ومن ناحية أخرى فقد كان لا يتحدث عن شيء مطلقا الا اذا طلب اليه الحديث عنه وذلك في الاغلب الاعم (٨) •

وقد ورث العقاد كذلك عن أبويه التنظيم والدقة في معالجة أموره الاسرية وغيرها ، وحسبنا أن نعرف انه التزم نظاما خاصا به يسير عليه في بيته منذ شبابه الباكر حتى وفاته •• وحسبنا أن نعلم أيضا انه كان وفيا لاسرته وفاء يقتضيه ان يبذل من ماله ونفسه الكثير في سبيل مصالحهم وارضائهم ، اذ كان يوجب نفسه ما لم توجهه شريعة قط ازاء الاقارب ، وحتى لو أوجبته للاباء والامهات والاخوات ، فلم تكن توجهه للاخوة والاخوات وسائر الاقارب وابنائهم وبناتهم ••

وعاش العقاد بالشريعة الاسرية التي ارتضاها لنفسه كإنسان فحسب ازاء أهله وعشيرته الاقربين وغيرهم ، عاش العقاد على هذه الشريعة حتى وفاته ••

٢ - مدرج الصبى :

وقد استقبلت العقاد مدينة صافية في جو المكان قلما تشوبه غاشية ، ممثلة في جو الزمان قلما تخلو منه زاوية - كما يقول العقاد - وتمتع بان كل شيء فيها جديد مع كل التفاتة ، ومع كل خطوة يخطوها المرء في أي اتجاه ، اذ تنتقل فيها من عصر الى عصر ، كما تنتقل فيها من حارة الى حارة ، وترجع في تاريخ مصر الى أقصى الماضي فتلقى لها تاريخا مثله (٩) •

ففي اسوان يلتقي التاريخ الماضي بالحاضر الذي كان يعيش فيه العقاد ، اذ كان المتحف والبيت فيها يتقابلان ، « والتاريخ فيها - كما يقول العقاد - حي يرزق ، ويتنفس الهواء لانه مائل شاخص في الاحياء •

(٨) المرجع السابق ص ٥٠ ، ٥١ •

(٩) عباس العقاد : أنا ص ٥٣ •

والحياة فيها تسربل بقداسة التاريخ العريق ، لأنها صورة منه تتجدد مع
الاجيال ، وفي أسوان - كذلك - رأى العقاد التقاء المشرق والمغرب ،
ودرج وهو يشهد الحضارة الاوربية في كل جنس من أجناسها ، وكل
ناحية من أبحاثها^(١٠) .

وقد كانت مناظر أسوان آنذاك فريدة بين مناظر الطبيعة المصرية،
اذ كانت تشتمل على جزر وجنادل ، وتيارات وصخور في الماء والصحراء ،
وتجمع هذه وتلك من الالوان ما تجمعها المعادن والجواهر ، فتحكى
الذهب والفضة ، والشبهه ، كما تحكى الزمرد والمرجان والياقوت . وقد
قام « الخزان » مكان الجنادل التي ذهبت وتلاشت على مذبح عوامل
التعرية ، واتجهت مصر صوب الخزان ترقب منه ومن معجزتها الخالدة
(السد العالي) الضياء ممثلا في الطاقة الكهربائية والمائية التي ستنتصر
بفضلها على الصحراوات المصرية^(١١) .

وقد كانت هذه المناظر الجميلة باعنا للتنزه فيها بعيدا عن المدينة ومن
فيها وما فيها ، وذلك للكشف والريادة ، وللمتعة والرياضة على سواء . .
على ان نزهة العقاد لم تقف عند السير في جبال أسوان ، بل
تجاوزتها الى الرحلة النيلية ، اذ قام برحلة نيلية في طفولته الباكورة
واضطربت به السفينة بين الشاطئين ، واضطرب معها الشراع الذي
يحاول ان يستقبل مهب الريح على غير جدوى^(١٢) . ولكن هذه الحادثة
لم تكن لتمنعه بعد ذلك من السير على شاطئ النيل حتى يصل قصر
« ملا » فيجلس هناك على صخرة عالية على مقربة من ذلك القصر يناجي
أحلامه ، فتطلق شاعريته من مكمنها في نفسه ، وتقبل عليه عرائس الشعر
وبنات الاماني في جلسته هذه التي تغريه بالنظر الى النيل ، وتشعره
بالوحدة والانفصال عن عالم الناس ، ويظل في هذه الجلسة - في ذلك

(١٠) المرجع السابق ص ٥٦ .

(١١) ، (١٢) عباس العقاد : أنا - صفحات ٥٥ ، ٥٨ .

المكان الموحش المخيف وسط الجنادل والصخور - حتى ساعة متأخرة من الليل • ويصف العقاد ليلة مقمرة في أسوان فيقول : (١٤) •

في الليلة القمرء ما أحلى النظر
لكل شيء لاح في ضوء القمر
حتى الثرى ، حتى الحصى ، حتى الحجر

ليست من الأجر هاتيك البنى
لا بل خيال من ظلام وسنى
كخيلة الأشكال في السحب لنا

أكباد عند رؤيتي طلامها
أرسل عيني لما وراءها
كما تخوض نظرة فضاءها

قد شف بالصخرة مصباح الدجى
فكيف بالنفس وكيف بالحجى
عاش على مر الليالي مسرجا

على ان هناك شيئاً في أسوان غير المناظر الخلابة الآخذة بفؤاده
وايقاظ ربة الشعر لديه ، وهو الشمس ، الشمس التي لم يكن العقاد
يحس ازاءها بانها مصدر دفء فقط ، او لتوضيح منهج وكفى ، بل
انها (١٥) :

شمس اسوان في الشتاء	ارقصى أو تبرجى
انك الشمس صورت	فوقنا للتفرج
لا لدفء كما ادعوا	او لتوضيح منهج

(١٣) عباس العقاد : الفصول ص ٨٧ •

(١٤) عباس العقاد : ديوان عابر سبيل ص ١٢ ، ١٢٧ ط أولى

القاهرة عام ١٩٣٧ •

(١٥) عباس العقاد : وحى الاربعين ص ٩٧ •

واسوان في نظر العقاد « مدينة الشمس » لانها مدينة النور الذي تجدد العيون به كفايتها ، وحفظ النفوس والقلوب منه لا يقل عن حفظ العيون ان لم يزد ، وان الضياء اذا شغل نفس الانسان لفرط بهائه وشموله أفعمها بالحس فلا تلتفت الى ما يسمع ويلمس ^(١٦) .

وهذا النور الذي وهب « اسوان » شمسها ، من عالم الروحانيات ، لان العقاد يشبع منه الروح والعين ، ولا يكفي بشبع العين فقط ، وكان مغرما به أيما اغرام ، فهو يحبه .. يحبه حين ينظره ، وينظر به ، ويحبه حين يهتدي به في عالم البصر ، ويحبه حين يهتدي به في عالم البصيرة ، وذلك لانه يحسبه سرا من الاسرار ، او يحسبه سبل الهداية الى سر الاسرار حتى أوشك ان يؤمن بهذا الحسبان كل الايمان ^(١٧) .

وفي اعتقادنا ان هذه الصور المتضاربة المتناقضة التي ألفها العقاد في طفولته الاولى ، بما اشتملت عليه من جبال ووهاد ، ومن صحراء وعمران ، ومن صمت وضوضاء ، ومن أسرار وبيئات ، ومن عظمة النيل وجلاله ، وهدوئه الموارد أو اضطرابه الرزين ، يزحف بطيئا في نظر العين سريعا في حساب المسافات ، وعظمة الشمس وجلالها في علياء السماء ، نعبير المدينة من الشرق الى الغرب في صراحة لا تميل ، وهذه الصخور نفسها التي تنتزع حق البقاء انتزاعا ، فتقف في وسط تيار الماء غريزة متماسكة لا يخيفها من النيل امواجه وفعله على مر السنين وآآفها ، قوية صلبة ، شامخة بأنفها ، تلهم القوة والعناد في سبيل الحق والبقاء ، وتوحى بالخلود والثقة بالنفس مهما تغيرت بها الغير ، وتقاذفتها الانواء ^(١٨) .

أجل ، توحى تلك الصور المتعارضة المتناقضة بالقداسة المحاطة بالاسرار العميقة في النفس والشعور ، تلك القداسة التي نحسها ولا نحيط بها ، تملأ النفس والشعور ، وتتحدى قوى النفس وتسبر أغوار

(١٦) عباس العقاد : في بيتي ص ٦ وما بعدها .

(١٧) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٤ .

(١٨) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٤ ، وراجع كذلك :

العقاد في مدرج صباه في كتاب « العقاد دراسة وتحية » لاحمد الشريف

ص ١٤٣-١٤٤ .

العظمة في مكان تلك النفس حتى تأتي بالعظام والتضحيات ، وتستغرق
الافكار والعقول (١٩) .

٣ - في مفترق الطريق :

وإذا عرفنا ان « اسوان » من المشاتي العالمية ، تستهوى السائحين
بمناظرها الطبيعية ، وشتائها العجيب ، وآثار الحضارة المصرية القديمة
والحضارة الاسلامية ، اذا عرفنا هذا فلا عجب اذن ان تكون « اسوان »
مرادا للسائحين يؤمونها في الشتاء من مختلف الاجناس والطبقات من جميع
بلدان العالم . وبالإضافة فان سكانها الاصليين عبارة عن عصابة أمم
صغيرة « يتجاوز فيها من ينتمي الى الفراعنة ، ومن ينتمي الى العرب ، ومن
ينتمي الى البجاة ، وتسال عن نسب الاسرة في ذلك عنوانها على أصل من
الفرس ، أو من الترك ، أو من المجر ، أو من البوشناق ، أو من
العباسيين ، أو من العبيديين ، لانهم جميعا وفدوا اليها مع قوافل التجارة ،
أو مع سرايا الجيوش ، أو مع اللاندين الناجين بأنفسهم من تقلب الدول
وتنازع الحكومات (٢٠) .

وطبيعي ان يتمثل في هؤلاء وهؤلاء كل الحضارات والعمادات
والتقاليد مما يستدعي الدهشة والعجب ويستلقت النظر . . .
فينا تقف أمام أهالي « اسوان » المتمسكين بالتقاليد المتوارثة ،
المحافظين المتشددين في المحافظة على الشعائر الاسلامية ، بينا تقف مع
هؤلاء اذا بك حينما تسرح نظرك تجدك قد التقت بالمهندسين والخبراء والمفتشين
الذين كانوا يعدون بالمئات وغيرهم ممن كانوا يقومون بأمر المحافظة من
الانجليز العسكريين أو المدنيين الاخذين بأسباب المدنية على أتمها وأكملها ،
وما انتهت اليه من السفور وعدم المبالاة بهذه الشكليات التي تكاد تخفق
الاسوانيين ، على حين تجيش هؤلاء الحياة على أعنف ما تكون من الجيشان

(١٩) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٤ ، وراجع كذلك :
العقاد في مدرج صباه في كتاب (العقاد دراسة وتحية) لاحمد الشريف
ص ١٤٣-١٤٤ .

(٢٠) عباس العقاد « أنا » ص ٥٦ .

في ملاعبهم ومرافقهم وندواتهم وميادين السباق للتسري والتسلية
وترجية الفراغ^(٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن هذا التفاوت في أساليب الحياة ، ووقوف
العقاد في خير أسلوب تستقيم به الحياة والاخلاق في هذا البلد وفي هذه
الظروف^(٢٢) .

* *

وقد تلقى في « اسوان » من ظروفها التاريخية التي تحيط بها دروسا
كثيرة عن طريق الخبرة والممارسة ، فثبتت في روعه بحيث لا يبلغ مبلغها
مئات الكتب وآلافها في نفس ناشئا الصغير^(٢٣) .

ولم تكن الدروس التي تلقاها العقاد في أسوان مقصورة على ما سبق
فحسب ، لان هناك دروسا واضحة وصريحة من حوادث ذلك الزمن
الذي يتسم بالنقائص والموافقات . وقد تلقى هذه الدروس على يد الشيخ
الجداوى القاضي الشرعي ، أحد أبناء اسوان في القرن التاسع عشر ،
وواحد ممن حضروا مع الشيخ محمد عبده دروس جمال الدين الأفغاني ،
ومن هنا عرف العقاد دعوة جمال الدين في اصلاح السياسة والدين على
يد الجداوى في ندوته التي كان يعقدها في بيته أو في بيت والد العقاد ،
حيث كانوا يقرأون الصحف ، والمقامات الادبية ، وبعض الدواوين
الشعرية ودائرة المعارف للبستاني ، ويتطرحون الشعر . . كما عرف
العقاد في هذه الندوة الكثير عن الشيخ محمد عبده عن طريق زميله
وصديقه الجداوى ، فكان الامام محمد عبده موضع اعجاب العقاد
وتقديره^(٢٤) .

(٢١) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٥ ، ٧٦ ، وراجع

كذلك : اخر ساعة الصادرة في ٤ من سبتمبر سنة ١٩٥٧ .

(٢٢ ، ٢٣) راجع عباس العقاد ناقدا ص ٧٥ ، ٧٦ ، وراجع كذلك

آخر ساعة الصادرة في ٤ من سبتمبر سنة ١٩٥٧ .

(٢٤) العقاد في ندوته ، راجع : «العقاد دراسة وتحية» العقاد في

مدرج صباه ، ص ١٠٣ ، ومحمد عبده للعقاد ص ١١٦ ، وسعد زغلول

سيرة وتحية للعقاد أيضا ص ٨٤ وما بعدها .

وازداد تقدير العقاد لمحمد عبده حينما رآه يتقدم المدعويين من ذوي المناصب العالية في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة افتتاح خزان اسوان ، وهو في ذلك محتفظ بكرامة العلم والدين والانسان العظيم^(٢٥) . ولذا فقد كان الامام محمد عبده لدى العقاد مثلاً أعلى يقبس من ضوئه الفكري في فلسفته في الاصلاح القائمة على التعليم •

ومما قوى هذا التصور في نفس العقاد تأييد الامام محمد عبده للعقاد حينما زار مدرسة « اسوان » الابتدائية ، وتصفح كراسة انشاء العقاد ، ثم ناقشه في بعض الموضوعات ، اذ قال له حينذاك ، وهو يربت على كتف العقاد الصغير « ما أجدر هذا ان يكون كاتباً بعد ، ، ثم نصحه الا يقنع من العلم بوظيفة الحكومة^(٢٦) .

والذي لاشك فيه ان شخصية العقاد قد تفتحت ، ونمى استعداد ملكاته النفسية والفطرية ، وذلك باستيعاب العقاد لتلك الدروس التي تلقاها من النشأة الاسوانية التي ابتلى فيها العقاد بالنقيضين على مفترق الطريق منذ طفولته الباكرة •

وخلاصة ما يقال في مفترق الطريق يتمثل في انه كان أبعد ما تكون الشقة بين النقيضين في أساليب الحياة ، وهو الذي قاده الى الجراءة على النقد الاجتماعي والفكري منذ شبابه الباكر كما يتضح في كتبه ولا سيما كتبه الاولى مثل خلاصة اليومية^(٢٧) . وهو الذي حدا به أيضا الى أن يدعوا الى الانسانية في الادب ، والعالمية في السياسة ، والوطن الذي تسع له آفاق الفكر وآفاق الشعور ، فهو يحب مصر والشرق ، ولكنه لا يحب في الوقت نفسه ضيق الافق في عصبية وطنية أو شرقية^(٢٨) ••

(٢٥) العقاد في ندوته ، وراجع العقاد دراسة وتحية « العقاد في مدرج صباه » ص ١٠٣ ، ومحمد عبده للعقاد ص ١١٦ ، وسعد زغلول سيرة وتحية للعقاد أيضا ص ٨٤ وما بعدها •

(٢٦) راجع : سعد زغلول سيرة وتحية ص ٦٠١ وما بعدها •

(٢٧) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٧٨ •

(٢٨) عباس العقاد : أنا ، ص ٥٥ ، ٥٦ •

ويتضح مما سبق ان النشأة الاسوانية قد قامت بدورها خير قيام في بلورة صفات العقاد وطبائعه التي غدت تمثل اتجاهها ينفرد به ولا يشركه فيه غيره .

* *

ويبين هذا الاتجاه من تصرفه في المشاكل المألوفة لدى الاطفال الذين يمرون بمرحلة الطفولة . فقد كان اقرباؤه وجيرانه يمنعون أبناءهم من التورط في المزاح معه ، لان نتيجة المزاح معه ان يلقي الطفل ما يسوءه ، ولا تعقيب على ما يفعله العقاد : ويقول العقاد في هذا الصدد : « والى اليوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا في الاسرة كلمة الامهات التي كن يرددنها لاطفالهن كلما اصابهم ما يسوءهم من التورط في المزاح معي وراء الحد الذي أسيغه ، فاذا ذهبوا الى أمهاتهم يشكون ما أصابهم ، كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب : امزح مع من شئت يا بني ، ولكن كل الناس ولا عباس (٢٩) » .

ومن هذا القبيل أيضا رفضه للذهاب الى « الكتاب » لان المقرئ الذي كان يقرئه القرآن حاول أن يضربه ، مع ان الضرب في « الكتابيب » يعد الاساس الاول في دستور معلمي « الكتابيب » ، وهذا الضرب او تلك العقوبة البدنية يقبلها الاطفال عن طواعية ، كما يقبلها أولياء أمورهم ، ويدعون الشيخ ان يستزيد منها مع أبنائهم ، لكن العقاد يرفضها ، وتقره الاسرة على عدم رجوعه الى المكتب ، لما ألقته منه ومن تصرفه في مثل هذه الامور ، وهذا الذي ألقته منه يتمثل في عدم رجوعه عن قرار اصدره مهما كانت الظروف (٣٠) .

ويمضي العقاد في هذا الاتجاه الى آخر مداه فنراه يرفض وهو في المدرسة الابتدائية ان يجيب المعلم حين دعاه باسم « عباس حلمي » جريا على تقاليد هذا العهد ، اذ لم يكن يدعى أحد من التلاميذ باسم أبيه ،

(٢٩) راجع اخر ساعة الصادرة في ٢١ أغسطس ١٩٥٧ تحت عنوان

« حياة قلم » .

(٣٠) العقاد في ندوته .

ولكنهم كانوا يلقبونه بألقاب تركية مثل حلمي وصبري وما شاكلها^(٣١) .
كما يرفض العقاد الالتحاق بالفرق الرياضية بالرغم من اغراء
الاساتذة له ، لانه كان يأخذ نفسه بالتقاليد الاسوانية التي تنظر الى
الالعاب الرياضية غير نظرتهم اليها اليوم ، ومن هنا نرى العقاد يستبدل
رياضة السير على قدميه بسائر الفنون الرياضية^(٣٢) .

وبجانب ذلك لم يرتد العقاد « البنطلون » القصير ، وكان يسير منفردا
دائما فلم ير في صحبة التلاميذ في خروجه من المدرسة او دخوله
اليها^(٣٣) .

وبالاضافة الى ذلك كان العقاد كثير التأمل في الحشرات والطيور
الغريبة النادرة والآثار الدارسة ، اذ كان يراقب الحشرات تحت « بير
السلم » الذي يعتبر مزرعة خصيبة لانواع الحشرات الموجودة في مثل
هذا البيت العتيق الذي نشأ فيه العقاد . فكان العقاد يقضي أغلب وقته
في تأمل الحشرات ومراقبة سلوكها ، ولم تشفع لديه توسلات والدته
التي كانت تخاف عليه منها ، لم تشفع لديه تلك التوسلات ، كما لم تنفع
التهديدات على مختلف ضروبه ، ولم تفز الام من وليدها بعد ذلك
بطائل^(٣٤) .

ومن يقف على هذا السلوك من العقاد ، يفسر لنا مدى اغرامه فيما
بعد بدراسة علم الحشرات والتاريخ الطبيعي ، اذ كان هذا اللون من
الدراسة يستنفذ منه ثلاثة ارباع وقته وقراءاته ..

كما ان تأمله في الطيور الغريبة النادرة جعله يسعى وراء لفيف منها
يسمى « بالكركي » واخذ يتأمله في صحراء أسوان ويلاحظ سلوكه في
الجو وهو مشدوه لا يدري شيئا عن الوقت الذي قضاه في هذه المراقبة ،
ولا عن المسافة الكبيرة التي قطعها سيرا على قدميه منذ خروجه من المدرسة

(٣١) عباس العقاد « حياة قلم » في اخر ساعة الصادرة في ٢١

أغسطس ١٩٥٧ .

• (٣٢ ، ٣٣) العقاد في ندوته

• (٣٤ ، ٣٥) العقاد في ندوته

حتى وصل الى الشلال^(٣٥) . ثم قفل راجعا حتى وصل الى البيت في النصف الاخير من الليل ، فوجد أسرته في قلق واضطراب ، تبحث عنه في المدينة من أقصاها الى أقصاها حتى أعيأها البحث ، فلجأت الى التسليم بقضاء الله في هذا الفتى . ومن العجيب ان تكون اجابته في هذا الجو النفسي المشحون بتوتر الاعصاب - حينما ثارت عليه الاسرة - أنه كان يمشي وراء الكركبي ، ثم يتعجب في بساطة من ثورتهم عليه^(٣٦) .

وليس عجيبا اذن ان يجد الدارس من بين دواوين العقاد الشعرية ديوانا يتحدث فيه عن نوع من الطيور يسمى « الكروان » ، ويهدى ديوانه الى الكروان ، ويعتبر الطير حجة لشعر الانسان وغناء الانسان ، فهو عند الشاعر وثيقة لا يعرض عنها ولا يفلتها من يديه . ويستهل هذا الديوان بقصيدة يقول في مطلعها^(٣٧) .

هل يسمعون صدى الكروان

صوتا يرفرف في الهزيع الثاني

من كل سار في الظلام كأنه

بعض الظلام ، تضله العينان

يدعو اذا ما الليل أطبق فوقه

موج الدياجر ، دعوة الغرقان

وفيما يختص بتأمل الآثار الدارسة ، فقد عرفنا فيما سبق ان نزهته التي لا تعد لها نزهة أخرى هي الجلوس على صخرة بجوار قصر «ملا» التي يجرى تحتها النيل الخالد منذ آلاف السنين . وقد كان يتجرد في جلسته من حدود الزمان والمكان^(٣٨) ، حيث يقرأ في صفحات النيل العظيم تاريخ الامم الغابرة التي عاشت على شاطئيه ، ويتأمل ويطلق العنان لتأمله ، فيذهب كل مذهب فيما يختص بأمانى هذه الامم ، وهل تحققت ، أم انها ذهبت ادراج الرياح على مذبح الواقع الاليم ، ثم يربط بين أمانى

(٣٦) العقاد في ندوته .

(٣٧) عباس العقاد : هدية الكروان ص ١٤ .

(٣٨) أنظر ص () من هذا الكتاب .

هؤلاء وأمنياته هو ، وهل يكتب لها التحقيق أم انها تزول وتلاشى ويجد نفسه منقولا الى العالم الاخر دون أن يقدم للخلود هدية متواضعة من فكره ونفسه تجبر خاطره •

أجل ، كان يجلس هذه الجلسة ويقف حائرا أمام ذلك المجد الخالد ، فينظر الى المقياس في هيكله القديم ، والى القصر ومدى روعة آثاره التي تشهد بعظمة المصريين القدماء ، ويمضى في تأمله - الى آخر مداه - من النيل الى القصر ، فيشعر بالوحدة والانفصال بل والانفصام عن عالم الناس •

وبجانب ذلك كله ، فقد كان العقاد لا يقبل كل ما يتعارض مع شخصيته ولو كلفه به أقرب الناس الى نفسه ووجدانه ، وذلك لانه نشأ مستقلا بكيانه وتقديراته في كل صفة من صفاته ، وفي كل عمل من أعماله ، ومن هنا كان ينفر من الكذب ويؤثر الصدق في كل شيء حتى المزاح (٣٩) • •

ويتضح مما سبق ان اثار العقاد للصدق ومقته للكذب ، حدا به الى التعويل على الصدق الشعوري في التجربة الادبية ، ومدى تعبير الشاعر عن هذا الصدق الشعوري في تجربته بالصدق الفني (٤٠) •

ومن يتبع العقاد في سلوكه - وهو طفل يجبو أو فتى يافع - ازاء الحوادث التي اعترضته ، او التي يتجنبها غيره ، ووقف منها صامدا لم تلن قناته لها ، من يتبعه في هذه الامور كلها ، يجد انها كانت مؤذنة بأن الطفل الناشئ يعمل عقله ويشحذ فكره في الوصول الى جوهر الاشياء مطرحا المظاهر الخادعة البراقة ، ومن هنا كان يشعر بالجلال والروعة التي تهوله في أشياء لا يخطر ببال لداته وأترابه أن يمروا بها ولو من بعيد ، وذلك كجلوسه في ذلك المكان المخيف - لمن هم في مثل سنه ليلا - عند قصر « ملا » أو في متابعته للكركي ليلا حتى يصل الى

(٣٩) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٨٠ ، ٨١ •

(٤٠) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٨٢ •

الشلال أو مراقبته للحشرات (٤١) .

وفي اعتقادنا أن تفكيره في جواهر الاشياء ومحاولته الوصول الى ذلك هو الذي حدا به ، أن يمقت في نقده - فيما بعد - الصنعة في الشعر بما فيها من وشى وبهرج محاولا الوصول الى لباب التجربة ، والنظرة الى الاشياء نظرة كلية يرفدها الوعي الكوني والوعي الحيوي الذي يتمتع به العقاد (٤٢) .

وخلاصة الخلاصات في اتجاه العقاد الذي برز من تصرفاته ازاء الحوادث التي كانت تعن له تؤكد أن اتجاهه في طفولته لا يقل خطورة ولا غرابة عن اتجاهه وهو ناقد كبير ، أو مفكر عظيم ، أو شاعر ملك ناصية الشعر وترجع على سمائه ، لان منبع هذا وذاك واحد في أنفس العظماء (٤٣) .

ونظرا لغرابة اتجاه العقاد بين أقرانه ولداته ، كانت الاسرة تعقد بسببه المجالس تلو المجالس ، مدعيا أحدهم أنه « واد تليفة » ، ولم يكن يدافع عنه من هذا الجمع الحاشد سوى خاله علي الشريف ، الذي كان يقول لهم : غدا سترون أنه سيكون « باشتنا كلنا » ، والعقاد مع ذلك كله كان يمضى في طريقه لا يلوى على شيء ، ولا يحس بما يعقد من مجالس أو اجتماعات ، منفذا ما يروق له ، أو معتقدا أنه الصواب (٤٤) .

(٤١) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٨٢ .

(٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) المرجع السابق نفس الصفحة .

الفصل الثاني

كفاح قلم

عرفنا فيما سبق أننا أمام انسان له اتجاه خاص به وحده في طفولته وقد برز هذا الاتجاه من خلال تصرفاته ازاء الحوادث التي كانت تعن له ، أو التي كان من الممكن أن يتجنبها مثل لداته وأترابه من الاطفال . ولكنه لم يقبل أن يصدر في تصرفاته وسلوكه عما هو مألوف لدى الجميع ، ومن هنا كان يألف الغريب ويستغرب المألوف ، ومن هنا كذلك كان نسيج وحده في طفولته ، ولذا فقد عانى الكثير في تطبيق فلسفته هذه ، على مشاكل عصره سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أم خلقية أم ثقافية ، كما كانت تبدو له ، وذلك لان طريقه لم يكن سهلا لنا ، واضحا ممهدا ، بل كان طريقا مفروشا بالشوك مغلفا بالضباب ، مرصوفا بالضحايا ، لا يعرف العقاد أين سيكون منفرجه ، ولكنه مع ذلك كله كان يمضى وسط هذا التيار الجارف معارضا له ومناوئا ولذلك فلم تلن له قناة ، ولم يفت في عضده عن تحقيق فلسفته في الحياة ، ما أصابه من كوارث ومحن وخطوب ، بل أنه قد بذل كل ما في وسعه من جهد وطاقة لئلا تكون هذه الفلسفة مقصورة عليه . ولكن كيف يتم ذلك ؟ وبأية وسيلة ؟

وللاجابة على ذلك نقول : لقد تسرب الى نفس الفتى أمل في الحياة خاله محققا لما يراوده ازاء مستقبله ، أو ازاء الوجهة القصوى في نهاية الطريق الذي يقصده وهو صناعة القلم ، ولم يكن لديه لصناعة القلم صورة في أول الامر غير صناعة الصحافة^(١) .

(١) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ تحت

عنوان « أمنيتي ، للعقاد . »

ولم يكن أمله مقصورا على صناعة القلم فحسب ، بل تجاوز ذلك الى أشياء أخرى طمح الفتى في تحقيقها ، اذ تمنى أن يصبح وليا من أولياء الله ، ورجلا من رجال الزراعة ، وقائدا من قواد الجيش (٢) .

هذه الامنيات مجتمعة تمنها العقاد في طفولته ، فأحب في الولاية تسخير قوى الطبيعة ، واستطلاع أسرار الدنيا والآخرة ، ومن هنا عكف على قراءة مناقب الصالحين ، وكتب السحر ، وصلى عشرات الركعات ، وسرد ألوف الاسماء ، ولم يرجع عن هاتيك «الدروشة» الا بعد أن حدث له حادثان صيبانيان مضحكان على حد تعبير العقاد : أحدهما ضياع خذائه بالمسجد الجامع الكبير بين أولئك الذين يقال فيهم أنهم أهل طريق ، فقال العقاد : « ان أناسا يسرقون الاحذية في مساجد الله لا يرجي بينهم فلاح » (٣) .

وثانيهما : يتمثل في أن اماما من أئمة « المندل » كذب على الحاضرين باسم العقاد وهو ينظر في الفئجان ليستطلع الغيب ، فقال العقاد في ذلك : « أن الذي يكذب في الحس المشهود لن يدلني على الغيب المحجوب » .

ومن هنا حدث بينه وبين الولاية والكرامات فراق لا رجعة فيه حتى انتهت حياته (٤) .

وكانت بواعث حبه للزراعة ترجع الى ولعه بتطبيق الاشعار التي كان يقرأها عن الازهار والعصافير والحدائق وجداول الماء والانهار ، وقد يكون مدخلها الى نفسه أنها تعين على مراقبة أطوار الحياة ، وغرائب الحيوان والنبات ، وليس أوثق من العلاقة بين الدراسات النفسية وبين تلك الغرائب والاطوار (٥) .

كما أنه لم يتمن قيادة الجيش الا لانه كان مغرما بلعبة الجيوش التي كانت مفضلة لدى الاطفال في ذلك العصر ، وكانت في تصويره لعبة عسكرية أدبية في وقت واحد . وكان هو قائد الجيش المصري في هذه

(٢ ، ٣) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ تحت عنوان « أمنيتي ، للعقاد » .

(٤ ، ٥) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ .

اللعبة دائما ، وكانت مهمة القيادة لديه تتمثل في أن يطلب المبارزة من
 الاعداء ، ويطلبها على الطريقة العتريه الهلالية الزينية المشهورة في
 ملاحم شعراء الربابة ، فلا يبدأ الصدام قبل تبادل الشعر الحماسي على
 حسب المقام . وقد أعانته في هذه المهمة أنه جرب النظم في بعض المقاصد
 المدرسية ، فشجعت التجربة^(٦) على نظم الاناشيد الحماسية لميدان
 المبارزة ، وأراد أن يثبت للسامعين أنه صاحب تلك الاناشيد ، فالتزم
 في نظمها أن يذكر اسمه كاملا في كل قطعة منها ، واتصر بأناشيده
 انتصارا أعظم من انتصار القتال ، اذ أوشت المناوشة كلها أن تنحصر في
 الاستماع الى قصائد الفخر والحماسة بغير قتال^(٧) .

ويرى العقاد أن حماسة النشيد هي بيت القصيد عنده من الجندية
 والتجنيد ، وأنها كانت متنفسا للملكة الناشئة التي لم تستقر بعد على
 قرار^(٨) .

وبالإضافة الى ذلك فان أمنياته السابقة كانت ترجمة أمينة لأمينة
 الكتابة مستعارة في صورة من صور الصناعات الأخرى ، ولا سيما
 الصناعات التي لا تخلو من نضال ، أو لا تخلو كذلك من زراعة ولا من
 عناية بالحياة والاحياء^(٩) .

« ومثل هذه الترجمة - كما يقول العقاد - معهودة في كل محاولة
 ناشئة قبل أن تستقر على قرارها ، فلا يزال الناشئ يتمنى شيئا بعد شيء ،

(٦) هذه التجربة تتمثل في مدح العلوم ويقول فيها :

علم الحساب له مزايا جمّة وبه يزيد المرء في العرفان
 النحو قنطرة العلوم جميعها ومبين غامضها وزين لسان
 وكذلك الجغرافيا هادية الفتى لمسالك البلدان والوديان
 واذا علمت لسان قوم يا فتى نلت الامان به وأي لسان

راجع : كتاب « أنا » للعقاد ص ٨٣ .

(٧ ، ٨ ، ٩) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ .

وراجع كذلك : آخر ساعة الصادرة في ١٤ أغسطس ١٩٥٧ تحت عنوان
 « حياة قلم » للعقاد .

ويجهل ما يتمناه حتى يثبت فيه على القرار الاخير ، (١٠) .
وهنا تساؤل عن حقيقة القرار الاخير . . . ولكن الاجابة تأتي من
قبل العقاد أيضا متضمنة أنه بعد طواف قصير في هذا التيه من الامنيات
تنتهي الى أمنية الادب والكتابة .

وعلى الرغم من أنها تنتهي الى تلك الامنية ، لكنها تحمل في أطواء
هذه الامنية مسحة من غلبة القيادة ، ونفحة من أسرار الولاية ، وشوقا
الى المجهول لم يقف عند حد من الحدود ، ولم يفارقه قط حتى حين
يحسب نفسه مستغرقا في الحس وفي غواياته وملاهيهِ (١١) .

وفي اعتقادنا أن العقاد بهذا التحليل قد فسر لنا ما التبس عليه في
أول الامر من ثكنة القائد ، وصومعة العابد ، وروضة الشاعر .

وبعد هذا التفسير تتجلى لنا رؤية العقاد من وراء الغشاوة الظاهرة
شيئا فشيئا ، تلك الغشاوة الناتجة من عدم اتضاح الرؤية كما ظهرت
أخيرا لدى العقاد ، اذ تبين أن الثكنة والصومعة والروضة شيء واحد
يفترق من بعيد ، ويتفق من قريب (١٢) .

١ - مجلة التلميذ :

ويرى الدارس أن العقاد منذ وقر في نفسه أنه يمضي نحو تحقيق
هدفه في صناعة القلم ، وخاصة بعد أشعاره التي كان ينشدها في معاركه
الحرية ، والتي ذاع صيتها لدى أترابه ولداته في مدينة أسوان . بعد
ذلك أخذ يبذل قصارى جهده ليقرا كل ما يقبع تحت يده من الكتب
والمجلات وغيرها .

وأول شيء من هذا القبيل وقع تحت يده هو طائفة من صحف
« عبدالله نديم » بصفة عامة ، ومجلة الاستاذ بصفة خاصة ، وقد عنر
عليها العقاد في « دولاب المنظرة » التي كان يجلس فيها أبوه ورفاقه في

(١٠) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ ، وراجع

آخر ساعة الصادرة في ١٤ اغسطس سنة ١٩٥٧ .

(١١ ، ١٢) راجع : الرسالة الصادرة في أول ديسمبر ١٩٤١ وراجع

وراجع اخر ساعة الصادرة في ١٤ اغسطس سنة ١٩٥٧ .

ندوة الشيخ أحمد الجداوي^(١٣) .

ولا يسئل القاريء عن مدى فتنة العقاد الصغير بعنوانين النديم في مجلة الاستاذ . وحسبنا أن نعرف أن هذا الفتى الصغير راح يحاكي مجلة الاستاذ ، وذلك بأن قطع الورق قطعاً قطعاً على قدر مساحتها ، وعمد الى مكان العنوان من مجلة « الاستاذ » فكتبه في مجلته « التلميذ » معارضا بذلك النديم في عنوان مجلته^(١٤) .

ولم تقف معارضة العقاد للنديم عند العنوان ، بل تجاوزت ذلك الى المقالة الافتتاحية في أحد أعداد « الاستاذ » ، وهي مقالة^(١٥) لها شهرتها وتحت عنوان « لو كنتم مثلنا لفلتم فعلنا » ، وفحوى هذه المقالة أننا نطالب بالاستقلال ونزعم أننا والاوربيين أشباه وأمثال ، ولكن الاوربيين ينكرون هذا الزعم ولا يكلفون أنفسهم غير دليل واحد يشبتون به الفارق البعيد بيننا وبينهم ، فاذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا ، تلك دعواكم ولو كنتم مثلنا لفلتم فعلنا . وهي مقالة طويلة أربت مساحتها على عشرين صفحة ، وقد ختمها النديم بقوله : « ان آخر الدواء الكمي ، وقد بلغ السيل الزبى ، فان رفأنا الخرق وشددنا أزر بعضنا ، أمكننا أن نقول لاوروبا نحن نحن ، وأتم أتم ، وان بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالاجانب ، فريقا بعد فريق ، حق لاوروبا أن تطردنا من بلادنا الى رؤوس الجبال ، لتلحقنا بالبهيم الوحشى ، وتصديق قولها لو كنتم مثلنا لفلتم فعلنا »^(١٦) .

وقد عارض العقاد مقالة النديم ، بأن أخذ فقراتها ورد عليها واحدة واحدة ، ومن هذه الردود « اننا نحن الشرقيين ، لو كنا مثلكم - أيها الغربيون - فاتحين منتصرين لما فعلنا فعلكم من نهب الاموال ، واستباحة

• (١٣ ، ١٤) راجع : اخر ساعة الصادرة في ١٤ اغسطس ١٩٥٧ .

(١٥) افتتح بها عبدالله نديم الجزء الثانى والعشرين من السنة

الاولى .

(١٦) راجع : اخر ساعة الصادرة في ١٤ من اغسطس ١٩٥٧ .

الحقوق ، وافتراء الاكاذيب ، والتعلل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ، ولا نريد أن نفعل فعلكم وسترون فعلنا عما قريب» (١٧) .

وقد ظلت مجلة « التلميذ » تصدر ، وهي مخطوطة ، وليس لها من هيئة التحرير سوى محرر واحد هو العقاد التلميذ ، وليس لها من قراء سوى زملائه في المدرسة ، وأقربائه المشجعين أو المتدربين المتفكرين ، ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن اليسير (١٨) .

واذن فان السر في اتجاه العقاد الى صناعة القلم يرجع بعضه الى دولاب المنظرة بما يحتويه من صحف ومجلات ، ويرجع البعض الآخر الى الملكة النفسية التي خلقت في العقاد قبل أن تخلق له أدواتها . وفي هذا الصدد يقول العقاد : « وربما كانت سهولة الكتابة عندي نتيجة مستفادة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئاً الا لاني سأكون كاتباً يوماً من الايام متى تيسرت الاداة» (١٩) .

* *

وهنا يبرز سؤال هو ألزم سؤال في هذا المقام : ما المدرسة الصحفية الاولى التي واجهت العقاد الى ميدان صناعة القلم ، هل هي مدرسة النديم بصحفه المتعددة ، وبذلك يكون النديم استاذه في هذه الصناعة ؟ ان الباحث المدقق يرى أن العقاد كان يحب صحف النديم ويفرغ بها اغراما جعله يحاكي واحدة منها ، وهي مجلة « الاستاذ » النديمية ، بمجلة « التلميذ » العقادية .

وهل يعتبر الحب للنديم وصحفه وثيقة تدين العقاد بالتلمذة للنديم وبأنه يصدر في عمله الصحفي عن اتجاهات المدرسة النديمية ؟ وللإجابة على هذا التساؤل نقول : لم يكن الحب يوماً ما وثيقة للتدليل على أن التلميذ يصدر عن اتجاه الاستاذ وفكره ، لان الحب

(١٧) راجع : اخر ساعة الصادرة في ١٤ من أغسطس ١٩٥٧ .

(١٨ ، ١٩) المرجع السابق ونفس العدد .

مصدره الاهتمام والعطف والشعور ، والتلمذة تنشأ عن مدى ما للاستاذ من أثر فكري على ذهن التلميذ من حيث المنهج والقضايا التي يعالجها ، و• وفرق بين مصدر الحب والتلمذة .

ودعنا أيها القارئ نقف على رأي العقاد في هذه القضية بدلا من الحدس والتخمين ، أو من الايهام والتهويم .

يقول العقاد : ان النديم كان أول من لفته الى العمل في الصحافة ، ولكنه ينفي في الوقت نفسه أن يكون من مدرسة النديم في صناعة القلم ، أو أن تكون قدرته المختارة بين أمثلة النبوغ التي يتمناها ، أو بين الشخصيات المثالية التي يجعلها ويحب أن ينتمي إليها^(٢٠) .

ويرجع العقاد الاختلاف بينه وبين النديم الى سبيلين : أحدهما يرجع الى الاحوال العامة ، وثانيهما يرجع الى مزاج العقاد الشخصي الذي فطر عليه .

فمن ناحية الاحوال العامة في عصر العقاد يرى أنها كانت تعالف الاحوال العامة قبيل الاحتلال أو في الفترة بين الثورة العربية والاحتلال وذلك لان دخول الانكليز مصر كان مسألة دولية تعمل فيها الدولة العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر ركنا مهما في برنامج مصطفى كامل والحزب الوطني الذي قام على يديه^(٢١) .

ومن ثم يرى العقاد أن الذين ولدوا بعد الاحتلال ، أصبحت مسألة الاحتلال من أعبائهم الوطنية التي لا عمل فيها للدولة العثمانية ، ولذا فإنه لا يجوز لهم أن يفرطوا في مبدأ الاستقلال من أجل صيغة «شكلية» لا تفيدهم في جهادهم ان صح أنها كانت تفيدهم قبل ذلك^(٢٢) .

واما من ناحية المزاج الشخصي فخلاصة ما يقال فيه : ان النديم كان ينزع الى شيء من التهريج ، وليس كذلك العقاد في نشأته بين أبوين

(٢٠ ، ٢١) راجع : اخر ساعة الصادرة في ٢١ اغسطس سنة

١٩٥٧ .

(٢٢) المرجع السابق ونفس العدد .

متدينين ، بل ومتشددين في تدينهما ، على سمت ووقار ينذر أن يتحقق مثلهما لكثيرين ، ومن هنا انطبع بالمحافظة الشديدة على سمت الوقار « واللباقة » بالورائة والقدرة والمحاكاة^(٢٣) .

ومن الطبيعي لطفل في هذا المزاج أن ينظر الى مثله الأعلى فلا يراه في صاحب « التنكيت والتبكيت » وصاحب « المسامير » ، ولكنه بفضل الامام محمد عبده على النديم في هذا الضرب ، ويرى فيه مثله الأعلى ، وذلك لأن وقار محمد عبده هو القدرة التي يرتضيها حين ينظر الى النديم فيظفر منه بالثناء ولا يظفر منه بالافتداء^(٢٤) .

واذن فمثل العقاد الأعلى هو الشيخ محمد عبده ، وأثره في نفس العقاد من أقوى الآثار ، وذلك لما سمعه عنه من الاستاذ الجداوى في ندوته ، ولوقوفه ، جانب الحق ضد رجل من أنرياء اسوان استولى على أموال رجل من المهاجرين الى السودان ، وعز عليه اثبات حقه لدى القضاء ، فلجأ الى الشيخ محمد عبده ، فتولى القضية بنفسه وخاطب في شأنها سعد زغلول الذي تحولت اليه ، فحكم سعد فيها حكماً فاصلاً هز الاقاليم بأسره ، ومن هنا راق العقاد أن يقتدى بالشيخ محمد عبده في غيرته على الحق ونجدته للضعيف ، وقلة اكترائه للقبل والقال ، وأعجب بخلقه فوق اعجابه بعلمه^(٢٥) .

ويعد العقاد نفسه مديناً بخطته في السياسة الوطنية لاعجابه بالشيخ محمد عبده ومريديه من أمثال سعد زغلول ، وبتبعه لمناهج الشيخ محمد عبده السياسية ارتسمت في مخيلة العقاد في بواكير صباه مناهج السياسة التي كان يقاد بها ، وقاد غيره بها مدى الحياة^(٢٦) .

ولكن هل مجرد القدرة ، أو مجرد التأسي بمثل أعلى ، قد وجه العقاد الى صناعة القلم ؟

وهنا يجدر بنا أن نقف على رأى العقاد في هذا الصدد ، اذ ركز

(٢٣ ، ٢٤) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٢١ من أغسطس ١٩٥٧

(٢٥ ، ٢٦) عباس العقاد : « أنا ، ص ٨٣ وما بعدها .

بواعث الكتابة لديه في ثلاثة اشياء :

أولها : كلمات التشجيع التي يتلقاها الناشئ في مطلع حياته ممن يثق بهم ويعتز برأيهم ، فيمضي الى وجهته على يقين من النجاح ، وأكبر تشجيع صادفه العقاد وكان له أثره في نفسه ، هو تشجيع الشيخ محمد عبده له وهو في زيارته لمدرسة أسوان الابتدائية ، اذ قال له حين اطلع على كراسة العقاد في التعبير : ما اجدر هذا ان يكون كاتباً بعد . فكانت هذه الكلمة أقوى ما سمع العقاد من كلمات التشجيع على حد تعبير العقاد ، ولكنها جاءت بعد سنوات في القراءة ومحاولة الكتابة واصدار الصحف التي تطبع على « البالوظة » . . ولا يقرأها أحد غير العقاد وغير تلميذيين أو ثلاثة من الزملاء ، ومن هنا كان لا بد أن يوجد سبب آخر يدفع العقاد نحو النجاح في اتخاذ الكتابة صناعة^(٢٧) .

ثانيها : الرغبة التي كانت تدفع العقاد تجاه هذه الصناعة وذلك لانه أحسن من نفسه القدرة على هذا العمل ، والاستعداد له مع الاجتهاد والتذرع بالوسيلة الناجحة لتحقيق تلك الرغبة الكامنة في طويته^(٢٨) .
وثالثها : الظروف التي تمهد اسباب النجاح للكاتب الناشئ ، وتيسر له البدء في طريقه ، ثم المناورة عليه الى غاياته القريبة والبعيدة^(٢٩) .
ولقد اجتمعت للعقاد هذه الاسباب الثلاثة ، ومن هنا نجح في هذه الصناعة كأحسن ما يكون النجاح ، وبز أقرانه في هذا المضمار ، ولولا اجتماع هذه الاسباب للعقاد لم يكن قد تحقق له هذا النجاح . وذلك لأن كلمات التشجيع قلما تفيد اذا امتنعت الظروف المواتية ، وهى مع مؤاتاة الظروف تضع عبثاً اذا امتنعت الرغبة في نفس الناشئ ودل امتناعها على نقص الاستعداد ، أو على الرغبة في عمل آخر يضل عنه حتى يهتدى اليه في ظرف من الظروف^(٣٠) .

٢ - في عالم الوظائف :

نحن الآن أمام انسان ظهرت عليه أعراض الكتابة ، ولم تكن تعني

(٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠) عباس العقاد : أنا ، ص ٨٨ ، ٨٩

في تصوره ، سوى الاشتغال بالصحافة ، ومن هنا فانه بعد حصوله على الشهادة الابتدائية في عام ١٩٠٣ ، وبعد ان افتقد امله في الالتحاق بالكلية الحربية أو مدرسة الزراعة العليا على مذبح مشورة الوالد الذي رأى أن يكتفي بما حصل العقاد من الدرس وأن يلتحق باحدى الوظائف ، وبعد أن لمح في طويته المكبوتة أن شغفه بدراسة الزراعة وتعلقه بطيور الكركي المهاجرة في اسوان ، وتأمله في الحشرات •• بعد أن لمح أن شغفه بهذه الاشياء كلها صادر عن وجدان فنى صادق فلسف به العقاد قراءته في هذه الاشياء فيما بعد ، فذهب الى أن غرائز الحشرات بحث في اوائل الحياة ، وفلسفة الاديان بحث في الحياة الخالدة الابدية ، وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء ، قيسان من حياة انسان في حالى الحب والنقمة ، ونهضة الام أو ثورتها هما جيشان الحياة في نفوس الملايين ، وسيرة الفرد العظيم معرض لحياة انسان ممتاز بين سائر الملايين • وكلها أمواج تتلاقى في بحر واحد ، وتخرج بنا من الجداول الى المحيط الكبير ، ومن هنا يخرج العقاد بزاد الفكر والشعور والخيال ، يستطيع أن يجمع الحيات في عمر واحد ، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله ، كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرآتين (٣١) •

نقول بعد قلقه تجاه تحقيق أمنياته هذه ، وبعد أن وقف في التعليم الى هذه المرحلة قصده البطالة ، وأمه البؤس ، وتحالف عليه النحس ، فظل عامين يجاهد جهاد الابطال كى يخرج من هذه الضائقة ، واشتغل في هذين العامين مدرساً في مدرسة المواصلة الابتدائية بأسوان ، وهي المدرسة التي تخرج فيها العقاد •

وفي هذه الاثناء زار مصطفى كامل أسوان ومعه الكاتبة الفرنسية « مدام جوليت آدم » وكاتبة انجليزية من حزب الاحرار تدعى « مسز يونج » ، وانتهم ناظر المدرسة الفرصة ودعا مصطفى كامل لزيارة المدرسة ، فذهب اليها ومعه الكاتبتان ، وكانت الحصة حصة محفوظات

ولغة ، فأملى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأبي العلاء :
والمرء ما لم تفد نفعاً أقامته غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر
وترجمه للسيدتين بطلاقة وإيقاع ، ثم طلب من التلاميذ أن يشرحوه
ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح أو التعليق ، والتفت مصطفى
كامل الى العقاد والى الاستاذ «محمد عيد شلبي» متسائلاً ، فأدركه العقاد
قائلاً : ان التلاميذ معذورون ، لانهم في أسوان يعلمون ان الغيم الذي يظلل
الرؤوس نافع لا يضربون به المثل لقللة النفع ، فلعله أنفع لهم من شعاع
الشمس ومن المطر •

وعلى الرغم من حسن التخلص الذي ابداه العقاد لمصطفى كامل
- وكان ينتظر منه أن يتقبله بالاستحسان والارتياح بوصفه خطيباً - فان
مصطفى كامل ، قد تجهم وجهه ، وحينئذ عرف العقاد أن الاستدراك
على مصطفى كامل - ولو من باب الفكاهة ، أمر كثير على طاقته النفسية
والفكرية (٣٢) •

واشتغل أيضاً في تعليقه «خزان اسوان» مقاولاً للانفار ، وكان يقف
وراءهم في حمارة القنيط في أسوان (٣٣) ، وظل في هذا العمل حتى استطاع
والده أن يلحقه بالعمل في القسم المالي في مدينة قنا ، وحينما ثبت في
وظيفته نقل الى القسم المالي في مدينة الزقازيق ، وكان ذلك في عام
١٩٠٥ ، وتكرر زيارته الى القاهرة مرة كل أسبوعين ، ليشارك التمثيل
لدى فرقة سلامة حجازي ، وليشترى زاده من الكتب التي كان يدخر لها
من راتبه ، على قلته اذ لم يبلغ سوى خمسة جنيهات ، جزءاً كبيراً في
كل شهر •

وفي تردادته على المكتبات بالقاهرة كان يلتقى بكبار الكتاب من أمثال
جرجي زيدان والدكتور يعقوب صروف وغيرهما من مشاهير الكتاب الذين
كان يسألهم العقاد عما يعن له في قراءته ، وعن بعض الكتب التي تعالج

(٣٢) لاجع : عباس العقاد ناقدا ص ٩١

(٣٣) عباس العقاد : «أنا» ص ٩٦

ما يعترضه من مشكلات وقضايا فكرية ..

ويعاود العقاد الحنين الى الصحافة وهو في مدينة الزقازيق ، فيتطلع اليها من جديد ، وتتوق نفسه الى اصدار مجلة ، لكي تمنحه الحرية في أن يقول ما يعتقد من غير سلطان لأحد عليه ، ومن هنا نراه يزعم - وهو يعمل في مدينة الزقازيق - على اصدار مجلة أدبية ، ولهذا راح يدخر من راتبه الشهري جنيها في كل شهر لهذا المشروع ، على الرغم من أنه ينفق من راتبه جزءا لشراء الكتب أيضا . وقد شجعه على الاقدام في هذا المشروع أنه عرف تكاليف الطباعة عندما طبع قصيدته التي يصور فيها سوقه الى اسوان ، والتي يقول في مطلعها^(٣٤)

ذكراني نعيمها ذكراني حبا لو علمتما ما أعاني
وقال منها في أسوان :

لست أرجو عودة الى أسوان

وقد عارض بها قصيدة المعري

عللاني فان بيض الاماني فئت والزمان ليس بفان
وحيثما سمعها زملاؤه في العمل ، اقترحوا عليه أن يطبعها ويوزعها عليهم ، وقد لبي العقاد طلبتهم . ولكن الذي حدث بعد هذه القصيدة ، أن تحركت في نفسه بواعث الصحافة ، ففكر في مشروعه السابق ، ومضى يذلل كل عقبة كؤود تصدى لتعويقه . ولكنه غض النظر عن اتمام مشروعه حينما وقف على حقيقة الصحافة الاسبوعية في تلك الآونة ، وما تزر به من المهانة والازدراء ، اذ لم ينقطع لها حينذاك سوى الحثالة من نفايات البلد ، ولا تعتمد في ذلك الوقت على بضاعة غير بضاعة الجهل والاحتيال^(٣٥) .

وعلى الرغم من أنه توقف عن اصدار المجلة الاسبوعية ، الا أن

(٣٤) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٢٨ من أغسطس ١٩٥٧

(٣٥) المرجع السابق نفس العدد

بريق الصحافة ، وما تنطوي عليه نفسه من جيشان ازاء هذه الصناعة لم يفارقه ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، ومن هنا وعلى غير موعد نراه يستقيل من وظيفته في الزقازيق في عام ١٩٠٦ ، ويتخلص من عبودية القرن العشرين في تصوره ، اذ قال في هذا الصدد : اننى لا أنسى حتى اليوم أننى تلقيت خبر قبولى في الوظيفة الأولى التي أكرهتها الظروف على طلبها كأننى أتلقى خبر الحكم بالسجن أو الاسر أو العبودية . اذ كنت أو من كل الايمان ، بان الموظف رقيق القرن العشرين^(٣٦) .

وبعد ذلك نراه يلتحق بمدرسة الفنون والصنائع ببولاق ، ولا يمكن فيها طويلا حتى نرى الظروف قد أكرهته على قبول وظيفة في مصلحة البرق (التلغراف) هنا يلتحق بمدرسة « التلغراف » في ضاحية حدائق القبة بالقاهرة .

نقول لم يستطع التخلص من اسار هواه في صناعة القلم ، ومن هنا نراه يحاول الاشتغال بالصحافة اليومية ، ولا سيما اذا ما كانت الصحيفة التي سيعمل فيها يتفق منهجها واتجاه العقاد وفلسفته .

فأين يعمل اذن . . . يعمل في جريدة اللواء ، وخاصة أنهم كانوا يطلبون في ذلك الوقت مترجمين يعرفون الانجليزية والفرنسية بعد تفكيرهم في انشاء " لواءات " غير « اللواء » العربي ، تصدر باسم « الاستاندارد » و « ليتندار » . واذن ففي « اللواء » متسع لأن يضم العقاد بين محرريه ، ولكن هل عند العقاد طاقة نفسية للاشتغال في « اللواء » ، وهل يرى العقاد أن جريدة « اللواء » يتفق منهجها ومنهج العقاد وفلسفته ، وهل وظيفة مترجم هي بغية العقاد من العمل في الصحافة^(٣٧) .

وللاجابة على هذا التساؤل نقول : ان العقاد رفض العمل في جريدة « اللواء » لأن محادثته الاولى مع مصطفى كامل والتي أشرنا اليها فيما

(٣٦) عباس العقاد : « أنا » ص ٩٦

(٣٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٤ سبتمبر ١٩٥٧

سبق لم تشجعه على مزاولته له في عمل دائم ، بل صورته له رجلا معتادا بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا يسمح حتى للفكاهة أو « للقافية » أن تفتح عليه بابا لتصحيح قولة قالها ، أو رأيا ارتآه .

ومن ناحية اخرى فان العقاد يريد أن يعمل في الصحافة كاتباً لا مترجماً . كما أن منهج الجريدة لا يتفق مع منهج العقاد أحد تلاميذ الامام محمد عبده ، ومن هنا يختلف منهج العقاد مع أساس دعوة الحزب الوطني ، فليس هو من القائلين باستقلال مصر تحت السيادة العثمانية كما يقول دعاة الحزب الوطني صاحب صحيفة اللواء . ولهذه الامور مجتمعة رفض العمل في صحيفة « اللواء » .

فأين يعمل اذن ؟ .. وهنا ضاقت به الارض بما رحبت ، ولم يجد ملجأ سوى أن يتجه الى الله في هذه الضائقة ، وخاصة أنه كان في حاجة أي حاجة الى العمل .

وبينما هو على هذه الحال ، اذ بالاستاذ فريد وجدي يعلن عن صدور صحيفة « الدستور » اليومية ، ويطلب في الاعلان حاجته الى محررين .

ومن ثم تنفس العقاد الصعداء ، لان بوادر أمل - طالما أرقه وأقلقه في عالمي النفس والحس - لاح له أن يتحقق .

وذلك لان منهج الاستاذ وجدي في العمل ، ومناقشته القضايا بروح علمية تكفل للعقاد حرية الفكر في كل ما يكتب في الصحيفة ، ومن هنا استقال من وظيفته الحكومية ، واشتغل محرراً مع الاستاذ وجدي ، وقامت الجريدة على أكتافهما وحدهما من حيث التحرير والترجمة والتبويب وغير ذلك من الامور الصحفية التي تلزم لاصدارهما جريدة .

٣ - العقاد بين التقليد والتجديد :

وماذا يصنع امعاد بعد ان تحقق أمله في الاشتغال بالصحافة ، هل يعمل فيها كما يعمل الصحفيون التقليديون ، أم ما هو مخططه في العمل الحديد ؟

وفي اعتقادنا أن العقاد لا يمكن ان يدخل في قالب الصحفيين التقليديين لان الصحافة حينئذ لا تخرج عن كونها وسيلة للشهرة والادعاء ، والعقاد لا يريد العمل بالصحافة من أجل الشهرة ، التي دعا الى تركها وعدم الانقياد لها^(٣٩) :

دع الشهرة العورات تقناد غافلا على حكها يجري وان طاش او ظلم
اذا الدهر لم يعرف لأى الحق حقه فللدهر مني موطىء النعل والقدم
اذا جاز بيع الذكر في شرع أمة فلا كان من ذكر ولا كانت الامم
ولكنه يريد العمل بالصحافة من أجل رسالة يؤمن بها ويريد أن يوصلها الى الناس عن طريقها .

وهنا نسأل انفسنا عن الجديد الذي يريد استحداثه العقاد في هذا الميدان ؟ نقول ذلك : لان العقاد قد الفى الصحافة المصرية قائمة على فن المقالة الادبية منذ انشائها قبيل الثورة العراقية ، وكانت « الجريدة » التي انشأها حزب الامة ، قد سبقت صحيفة « الدستور » في تاريخ الصدور ، وكان من بين كتابها الفطاحل " محمد السباعي " تلميذ « لى هنت » في فن المقالة على منهج المدرسة الانكليزية ، ومن ثم كان السباعي رائدا لفن المقالة في الصحافة المصرية غير مدافع^(٤٠) .

والدارس لمقالات أستاذنا محمد السباعي يخرج منها بأن للسباعي فيها ابداعا يعرفه قراء كتابه الذي سماه " بالصور " . ذلك الكتاب الذي أراد أن يعارض به مقالات الترسيم والتخطيط المعروفة باسم " الاسكتش " Sketch في أدب الغرب الحديث^(٤١) .

ومن ثم فإن العقاد لم يحاول في كتابة مقالاته جديدا ، غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم يتعرض للنقد الاجتماعي الا قليلا ، وكذلك موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية ، وذلك لانه ابان اشتغاله في صحيفة الدستور كان مشغولا بنظم الشعر من موضوعاته ، وهو

(٣٩) عباس العقاد : وحي الاربعين ص ١٦٧

(٤٠،٤١) راجع : آخر ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر ١٩٥٧ .

أولى - من وجهة نظره - بالوصف العاطفي من المقالات (٤٢) .
 لم يحاول العقاد اذن أن يجدد في المقالات الادبية على الرغم من ان
 مطالعته في تلك الآونة كانت تستوعب أدب المقالة أو تكاد ، اذ أنه كان
 يدمن القراءة في انتاج اعلام النقد الادبي والادب الانجليزي من أمثال
 « توماس كارلايل ، Thomas Carlyle وماكولاي Macaulay
 ووليم هزلت William Hazlitt وكوليردج Coleridge ولى هنت
 Leigh Hunt ومانيوز ارنولد Mathews Arnold وغيرهم من أئمة فن
 المقالة في القرن التاسع عشر ، وكان بعض
 هذه المقالات مما ينشر في المجلات الضافية ،
 ولا ينشر في الصحف اليومية ، لأنها قد تمتد حتى تبلغ في المجلة ثلاثين
 او أربعين صفحة (٤٣) . وكان العقاد يترجم منها ما يصلح للنشر في الصحيفة
 السيارة ، ومن أمثلة ذلك البحث الذي كتبه فرانسيس بيكون عن
 « التنبؤ » حيث عرض « بيكون » للتنبؤات التي صدرت عن حساب
 وتقدير صحيحين ، وقد اتفق أنها تحققت لاسباب أخرى خفية (٤٤) .

ويرى « بيكون » أنه يحسن الا تعار تلك التنبؤات جانباً من
 الاهمية ، وغاية ما هناك أنها تصلح للسمر في ليالي الشتاء القارصة حول
 نيران الموائد . كما طالب بالألا يعتقد فيها أحد ، لان الاعتقاد فيها يضر
 ببسطاء العقول فيتخذونها قضية مسلمة ، ويبنون عليها . انه من الممكن لبعض
 الناس الانباء عن المستقبل فيلجؤون اليهم ويؤسسون أعمالهم على أقوالهم
 الكاذبة (٤٥) .

ولعل السبب في ترجمة العقاد لهذا البحث يتمثل في تصحيح العقائد
 العامة ، بل والخاصة تجاه التنبؤ والاستخارة وغير ذلك من الاساليب

(٤٢) المرجع السابق .

(٤٣) راجع : آخر ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر ١٩٥٧ .

(٤٤) راجع الدستور الصادرة في ٧ ديسمبر ١٩٥٧ .

(٤٥) المرجع السابق ، نفس العدد

التي كانت سائدة في مصر حتى أوائل هذا القرن •

كما ترجم العقاد حاشية على كتاب « جمهورية أفلاطون » المترجم الى الانجليزية بقلم « السير برسي شيللي » وفي هذه الحاشية بحث « برسي » فلسفة الاخلاق عند أفلاطون ، كما كتب فيها مقالات أخرى في الاخلاق والشعر لدى كل من سقراط وأفلاطون^(٤٦) •

ولم تقف استفادة العقاد من المقالات الادبية في الادب والنقد الاوربيين على الترجمة لبعضها فحسب - وذلك على الرغم من عدم محاولته للتجديد في المقالة الادبية في اللغة العربية - بل حاول أن يكتب عن الادباء على غرار هذه المقالات •

وفي اعتقادنا اننا لو حاولنا أن نتعرف على المبادئ الفكرية الطبيعية والنقدية في مقالاته في صحيفة « الدستور » ، لكان ذلك دليلا قاطعا على مدى استفادته من الابحاث النقدية الاوربية وهو لم يتجاوز من عمره عشرين ربيعا •

ومن أفكاره الطبيعية في صحيفة « الدستور » ما ذهب اليه من ان المصري ينزل الى ميدان الحياة غير هياب ولا وجل ، اذا هو تعلم ، لانه اذا تعلم ينفذ عن نفسه غبار الخمول ، وينضو ثوب الراحة ، وتنزع همته الى طلب المجد الصحيح من أبوابه التي هي العمل والتعليم ••

وينتهي الى قوله : « علموا الناس وانتم لا تجدون تلميذا يؤثر السجن على المدرسة ومتعلما يفضل الحبس على الحرية »^(٤٧) •

ومن ناحية أخرى نراه يعرض للمستشرقين الذين يبحثون في شؤون الأمة الاسلامية ويبين أن وجهتهم العلم وتطبيق قضايا علم الاجتماع على أدوار هذه الامة التي كانت آية الرفعة فأصبحت آية في الانحطاط •• ومن ناحية اخرى يبين العقاد أن لهم وجهة أخرى ، سياسية بحثة تجري

(٤٦) راجع صحيفة « الدستور » الصادرة في ١١ يناير ١٩٠٨

والاعداد التي تليها •

(٤٧) راجع صحيفة الدستور الصادرة في ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٠٧

مباحثهم فيها مجرى الصائد يتعرف مكان الصيد ومسارحه ، ويتبين مواقع الضعف والقوة منه ، ليرصد له الشرك في الطريق الذي يختلف إليه ، وتكيف مشارب هذه الفئة بتكيف مشارب السياسة وتناوح مهاب الاستعمار^(٤٨) .

والرأى العام في تصور العقاد عبارة عن مجموع آراء افراد الامة ، وكلما كانت الامة أوفر من المعارف حظا ، وأوفى من الاتحاد قسطا ، كان لرأيها العام شخصية واضحة وصورة صحيحة ، وكلما كانت الامة جاهلة مفككة الاوصال كان رأيها العام مشوها مضطربا لا تكاد تعرف له صورة . ويقول العقاد على هذا الرأى العام في تهذيب طباع أفراد الامة وترقية عواطفهم وعلى أسسه تلين شكائم الجبارين وتهدأ أئسرة المستبدين : ومن هنا فانه يرى أن الرأى العام قوة دونها كل قوة ، لأنه ارادة الملايين مجتمعة في ارادة واحدة ، ومتجهة الى اتجاه واحد .

وتأسيسا على هذا الفهم نراه ينمى على المصريين تجاهلهم لقوة الرأى العام فلا يجهرون بمطالبهم ويكتفون بالالم والشكوى في بيوتهم ، ولا يتكلمون في اظهار ما تكنه صدورهم أقل مشقة ، ، ويكلمون أمر كل صلاح على عاتق الحكومة « ومن أين تعلم الحكومة مكان الشكوى منا ونحسن سكوت على ما بنا ، صموت لا يسمع صوتنا » .

« نعم قد تعلم حكومتنا بحاجاتها فتهملها أحيانا كثيرة ، الا أن في التثيه قوة ليست في السكوت حتى ان الخالق قدست صفاته مع احاطته بسرائر النفوس ومطويات الضمائر ، طلب الينا ان نجاهر له بحاجاتنا ،^(٤٩) .

على أن الشعب هو كل شىء لدى العقاد ، ومن هنا يرجع اليه الفضل كله ، ويتضح هذا من ذهابه الى أن « خوفو » ليس صاحب الهرم الكبير ولكن صاحبه الامة المصرية باقامته تمثالا لها وهو أول تمثال أقيم لتخليد

(٤٩) راجع : الدستور بتاريخ ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٧

(٤٩) لاجع : الدستور بتاريخ ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٧

(٤٩) راجع : الدستور بتاريخ ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٧

ذكرى الامم على حين لم يهتد الناس الى نصب نماثيل الرجال . وان من يتفرسه جيدا يرى فيه الذكاء المصرى متجسدا ، والحدق بالصناعة والفنوان مشخصا يكاد يلمس ، فهو خير تمثال لخير مثال^(٥٠) .

ويخلص من حديثه لنفسه بجوار هذا الهرم ساعة الغروب الى ان الدنيا معهد تمثيل ، وكان يحسبها كذلك « موضوعا » فاذا بها لا تختلف عن معاهد التمثيل في شيء ، فهذه استار حمراء أسدلت على فصل مثل اليوم ، وستعقبه فترة الليل ثم تنكشف أستار الفسق عن فصل جديد ربما ملك فيه الخادم وخدم فيه المالك ، ولعل لبلادنا العزيزة فيه شأن ارقى من شأنها في فصول الرواية السابقة^(٥١) .

وأما المبادئ النقدية التي تبرز من مقالاته في صحيفة « الدستور » فمن أهمها أنه كان ينقد الشعر على أساس تصويره للمعاني وتشخيص أدواء الاجتماع ، والتعبير عن خطرات النفس والاماطة من مساوىء « العالم »^(٥٢) ومن هنا نراه يعد أبا العلاء من الذين عرفوا للشعر مقامه ، فلم يستعمله في مدح أحد تطلعا لنواله مهما كان واسع السلطة عريض الجاه ، وذلك خلافا لما جرى عليه الشعراء في أشعارهم ، إذ أنهم كانوا يدورون في محور واحد هو الغزل والتشبيب بالنساء حتى أكسبهم ذلك طباع بعضهن فصاروا لا يمدحون الا ذانوال ولا يتأون الا عن فقير ضيق الحال ، وكانوا يأخذون على مدحهم الاموال وتخلع عليهم لأجله أنفس الحلل وأوطأ الفرش ، ثم يعيب العقاد على مكانة الشاعر والشعر في ذلك العصر ، إذ انه لم يكن من الوقعة ومنعة الجانب كما يتوهم بعض المعاصرين ، ولكنه كان يمنح ويدنى من مجالس الملوك والولاة اتقاء للسانه وشراء لمدحه ، ويستدل على ذلك بقول أبي سعيد المخزومي :

الكلب والشاعر في حالة ياليت أنني لم اكن شاعرا
هل هو الا باسط كفه يستطعم الوارد والصادرا

(٥٠) نفس المرجع بتاريخ ٢ أبريل سنة ١٩٠٨

(٥١) المرجع السابق ، نفس العدد

(٥٢) نفس المرجع بتاريخ ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٠٧

ثم يتحدث عن رسالة الشاعر في مطلع هذا القرن فيقول : « ان شاعر
العصر معدود من القوى العاملة على ترقية الاحساس وتوثيق العواطف
فهو في مقام سام » .

ويعلل ذلك بأنه لا يوجد في أشخاص الشعراء اليوم سر يجذب
اليهم القلوب ولم يكن هذا السر في سابقهم ، بل لأن الشعر نفسه قد مر
من مناخل العصور فوصل الينا على فطرتة الاولى أي تكييف عواطف
النفس وتصوير الفضائل بهيئة تحبب اليها النفوس ، وتمثل الرذائل في
صورة يشترك الحس والعقل في تقيحها^(٥٣) .

وتأسيسا على هذا الفهم عد أبا العلاء المعري أقرب الى هذا الفهم
للشعر ، لأنه كان أعجوبة في سمو نفسه وأخلاقه وأعماله ،
فقد كانت نفسه لا تلين لمذح أحد ، ولا تولى بالتغزل في
امرأة أو فتاة ، وظل جالسا في كسر دار يصدر أحكامه على
الكون من أعلاه الى أسفله ، ومن عنصره الى ما بدا منه ، ويقبح أعمال
الناس الذين يتكوفون على الدنيا تكوف الكلاب على الجيفة قانعا بالثلاثين
دينار من ريع وقفه الى آ نفس من أنفاسه حتى أمكنه ان يودع العالم
وهو يقول بحق :^(٥٤) .

ولم يجني أحد نعمة ولكن مولى الموالي حبا
ثم يوازن بينه وبين « شكسبير » في انتقاد كل منهما على أضرار
المجتمع وذلك اذ يقول أبو العلاء في الفقراء وشكواهم والاغنياء وتغاضيتهم :
وأحسب الناس لو اعطوا زكاتهم لما رأيت بني الاعدام شاكيننا
ويقول :

غلت الشرور ولو عقلنا صيرت دية القتييل كرامة للقاتل
وفي البيت الاخير تقع الموازنة بينه وبين قول « شكسبير » الشاعر
الانجليزي بلسان يوليوس قيصر : « انك ان قتلت الجبان فقد ارحته من

(٥٣) راجع : صحيفة الدستور الصادرة في ١١ من ديسمبر ١٩٠٧

(٥٤) نفس المرجع بتاريخ ٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٧

توقع الموت طول حياته فكأنك أمته مرة واحدة وهو لو عاش لمئات في حياته
أكثر من مرة،^(٥٥) .

وتأسيسا على هذه النظرة للشعر ، نظر الى ابن الرومي فذهب الى أنه
كان سريع الخاطر حسن التصوير في المدح والثناء ، واستعاراته وتشبيهاته
يستدني بها النفوس الى تصديق ما يقول ، والاشراك معه في الثناء وان
لم تشترك في الجزاء ، واستدل على ذلك بقول ابن الرومي :^(٥٦)

كم قد وردنا فلم نكدر مواردہ ولا بدا في لقاء منه تحميص
كأنه الحق يصفو كلما اعتلجت فيه من الفحص والبحث المخاويض

ونظرية اشتراكية القارىء أو السامع للشعر عند العقاد تتضح أكثر
حينما يقول عن « صريع الغواني » انه كان ينظم تجربته في سيمط من
المعنى رقيق يحول الفكر من اللفظ الى الجوهر فكأنما تلقاه الروح من
روح القائل بلا وساطة العين^(٥٧) .

على أن عمق العقاد يتضح حينما يذهب الى أن للوسط الاجتماعي
الذي كان يعيش فيه الحطيئة أثرا في تشبيهاته ، ومن هنا يرى أن أحسن
الشعراء استعارة وأرقهم تشبيها أكثرهم سياحة وأرقاهم وسطا والعكس
بالعكس^(٥٨) .

وعلى هذا المستوى من الفهم يفهم الوصف على أنه أحسن ما ينتظم
فيه الشعر لأنه يربى ملكة المقارنة بين جليل الأشياء وصغائرها ، ويمرن
الفكر على القياس وقوة الدليل فضلا عما فيه من لذة وفكاهة . كما أنه
يعتمد على كثرة ما رأى الشاعر وعلى رقة ذوقه^(٥٩) .

وفيما كتبه العقاد عن « فارس شعرها وشعراؤها » نراه يفضل

(٥٥) صحيفة الدستور الصادرة في ٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٧

(٥٦ ، ٥٧) نفس المرجع بتاريخ ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٧

(٥٨، ٥٩) نفس المرجع بتاريخ ٣١ من ديسمبر ١٩٠٧ ، ١٠

يناير ١٩٠٨

السعدي في وصف الشيطان على « ملتون » وأضرابه من الشعراء
والمصورين ، لأن وصف السعدي للشيطان يعد أحسن وصف له ، إذ
ليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأنه دميم الخلقة مشوه الطلعة ، بل أن
ما ترويه الكتب المنزلة عن تكبره على آدم واغتراره بجماله الرائع يؤيد
ما تنزل على قلب هذا الشاعر من وحي الخيال ، وكذلك يتبادر الى الذهن
أنه على غير ما يمثله المصورون والشعراء لانه لا يدفع الناس الى الشر
مرغمين فيقال انه يخيفهم بمنظره الرهيب وانما يزين لهم الباطل ويقرب
اليهم المحال حتى يأسوا به ويطمثوا اليه . ومعنى هذا ان الشيطان - في
تصور العقاد - ليس من المعقول أن يكون هائل الجثة غائر العينين كما
وصفه « ملتون » ، وهو الذي التبس أمره على حارس الجنان فظنه ملكا
ومر « باريال » صاحب منطقة الشمس على ما يقول « ملتون » فسمح
له بالعبور الى السماء ، ولا أن تكون مملكته هاوية سحيقة ذات لهب
لا ينبعث منه الا ما يكشف طريق اليأس والآلام ، فان من يستدرج أبوينا
في الجنة لا يرهب وانما يرغب ، ومن يذهل الغافل عن نعيم السماء لا
يمنيه بمثل تلك الهوة السحيقة ، ولا يقابله بذلك الوجه الدميم (٦٠) .

ثم ينقد « الشاهنامة » على أساس أنها عمل فني متكامل كسلسلة
متصلة الحلقات يعسر أن تنتزع منها جزءا دون أن تخل ببقية أجزائها ،
ولا ينقدها على أساس وحدة البيت كما كان النقد سائدا في ذلك
الحين (٦١) .

ومن ثم نراه يثور على الشعر العربي لخلوه من القصص كالشعر
الفارسي أو الشعر الاوربي ، ذلك الشعر القصصي المترع في الاغلب الاعم
بآيات البلاغة ، المفعم بالتعابير الحسنة .

ويرى العقاد في هذا الصدد أن هذا اللون من الشعر الروائي مزينة
اختصت به كل لغة غير اللغة العربية . ثم يعلل أقفار الشعر العربي منه

(٦٠،٦١) راجع : صحيفة الدستور الصادرة في ١٣ من

ديسمبر ١٩٠٨

بوعورته لما يلتزمه الشاعر من مراعاة الوزن والقافية ، والانيان بالبيت منفردا في انسجام ، منسجما في انفراد حتى لايزيد المعنى عن ابيت ولا يخل البيت بانسجام القصيدة ، وليس الغربيون كذلك فان الشعر القصصي لديهم لا يمتاز عن النثر الا بالوزن فلا تراعي فيه القافية ولا الاتصال ، ومن هنا فهو مركب ذلول وسبيل سهل الطروق ، ولو شاء العرب لرجزوا على كون الرجز أوعر من شعر الافرنج ، ولكنهم آثروا استخدام الرجز فيما يضيق عنه الشعر كالعلمييات وما شاكلها^(٦٢) .

ويخلص من هذا كله الى أنه من الخطأ قول بعضهم : « ان خلو الشعر العربي من هذا الاسلوب يعد نقصا في اللغة العربية ، لان النقص انما ينسب الى اللغة اذا لم يكن في مفرداتها ما يعبر به عن معانيها وليست العربية من هذا القبيل »^(٦٣) .

وفي اعتقادنا أنه من العسير على الدارس لمقالات العقاد في «الدستور» واستخلاص المبادئ النقدية التي كان ينقد على مقتضاها قبل العشرين من عمره ، ومن ثم فاننا نرى أن فيما أوردناه منها يكفي للتدليل على مدى استفادته من الابحاث النقدية الاوربية ، وعلى أنه أجاد تطبيقها في الكتابة عن الشعراء والقضايا النقدية في يومياته في صحيفة الدستور ، اذ كتب عن عدد غير قليل من شعراء العربية ، كما كتب ست مقالات عن شعراء ايران تحت عنوان « فارس - شعرها وشعراؤها » .

ونود أن يتقرر في ذهن القارئ أننا حينما ننظر الى أن العقاد لم يحاول التجديد في المقالة الادبية ، فانما نعني بذلك قالبها Form وذلك لانه قد نقل قالبها محمد السباعي وأضرابه من الكتاب ، ولا يستطيع العقاد التجديد فيه لضلعة المتقدمين عليه فيه ، اذ أنهم أوصدوا أبوابه أمامه .

ومن ثم لجأ العقاد الى باب واحد لم تشمل عليه الصحافة المصرية ، وهو باب الاحاديث الصحفية مع الوزراء والساسة ، وباقتحامه لهذا الباب

(٦٢،٦٣) راجع صحيفة الدستور الصادرة في ١٤ من ديسمبر ١٩٠٨

استطاع أن يفتح صفحة جديدة في تاريخ الصحافة المصرية ، لأنه كدر أول السابقين إليه^(٦٥) وأجرى الحديث الأول مع سعد زغلول في وزارة المعارف^(٦٥) ، وأجرى غيره من الاحاديث مع المغازي أحمد مختار « فومسير » الدولة العثمانية ، كما كانوا يسمونه في زمانه ، وغيره من الشخصيات المصرية والاجنبية على سواء^(٦٦) ، وتعتبر هذه الاحاديث التي أجراها العقاد غير مسبوق بها هي أوليته التي خرج بها من أول عمل في صحيفة يومية •

وقد كان العقاد يوقع مقالاته في صحيفة « الدستور » على الطريقة التي كان يوقع بها كتاب المجالات الاجنبية ، وكان توقيعها باللقب وبالحرطين الاولين من الاسمين « ع.م.ع. العقاد » • ومثل هذا التوقيع كان ماثرا لبعض الظرفاء الى ان يسلقوا العقاد بالسنة حداد حيث يتندرون وينفكهنون بتوقيع حين راحوا يتحدثون عن مقالات « عم العقاد » ، وماذا قال عمك؟ وماذا تقول يا عم؟ واكتب لنا يا عمنا بما تراه^(٦٧) •

أما من حيث المضمون الذي كانت تحويه مقالات العقاد فكان كله جديدا بالنسبة للفكر والنقد العربيين ، وحسبنا ما عرضناه من المبادئ الفكرية الطليعية والنقدية فيما سبق لنعرف كيف كان هذا الشاب يقرأ ويفتح قلبه وحواسه للتيارات الادبية والانسانية في العالم بأسره ، وكيف كانت هذه المبادئ لا زالت غريبة على معاصريه من الكتاب والشعراء بله المفكرين •



وعلى الرغم من أن العقاد كان موضع تقدير فريد وجدي

(٦٤) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ٩٤، ٩٥

(٦٥) أجرى العقاد حديثه مع سعد زغلول في صباح يوم الخميس الحادي والعشرين من مايو سنة ١٩٠٨

(٦٦) راجع : سعد زغلول سيرة وتحية ص ٦٠٠ ، وراجع : آخر

ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٥٧

(٦٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر ١٩٥٧

واحترامه ، فانه قد تخلى عن التحرير في « الدستور نظرا لان العقاد أراد أن يرثي مصطفى كامل بعد وفاته رثاء لا يخلو من النقدالموضوعي لمنهجه في السياسة تجاه الاستانة وتجاه الخديو ، وتجاه السيادة العثمانية ، ولكن فريد وجدي - وان لم يكن يسمح لنفسه أن يتدخل في مقالات العقاد - فانه أبى على العقاد أن يرثي كاملا هذا الرثاء ، لان صحيفة « الدستور » من صحف الحزب الوطني ، وهو لا يريد الا الرثاء المتعارف عليه الذي ينأى بالفقيد عن المساوىء ويهيل عليه المحامد من كل اتجاه ، ومن هنا حدثت القطيعة الموقوتة بين العقاد وصحيفةالدستور^(٦٨) . ولم تدم تلك القطيعة طويلا لانه عاد الى «الدستور» بعد ذلك للعمل فيه ، وظل يعمل فيه حتى صدر آخر عدد منه ، ولكنه في هذه المدة الثانية كانتمخالفته للاستاذ وجدي أكثر من موافقته له في القضايا الفكرية والسياسية ، ومع ذلك فان الاستاذ فريد وجدي لم يكن يغير للعقاد كلمة واحدة تختلف مع رأي الاستاذ وجدي ، ولو كان الخلاف على مسألة من مسائل الاصول^(٦٩) .

وعلى الرغم من تطلع العقاد الى العمل الصحفي وتجويده فيه وتحمله للمشقات التي كان يلاقها في سبيله ، اذ كان يذهب كل يوم من حدائق القبة الى « درب الجمايز » حيث مقر الصحيفة ، وحدائق القبة أو الدمرداش حيث مدرسة التلغراف التي كان يدرس بها ، بالرغم من ذلك كله فان الذين كانوا يعملون بالصحافة وقتذاك كانوا يرون انه ليس من اهلها متطفل على العمل بها ، ولا يتورع بعضهم عن سبه وشتمه على مقربة منه بحيث يسمع العقاد سبه وشتمه ، فيمضى في سبيله ليلوي على شئ^(٧٠) متمثلا بقول الشاعر :

(٦٨) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٤ من سبتمبر ١٩٦٧

(٦٩) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٤ سبتمبر ١٩٥٧

(٧٠) المرجع السابق نفس العدد ، وراجع كذلك : رجال عرفتهم

للعقاد ص ١٥٧ وما بعدها

ولقد أمر علي اللثيم يسبني فعضيت قلت نمت لا يعينني

والدارس لحياة العقاد يرى أنه قد صادفته ابان اشتغاله بجريدة الدستور صعوبات مادية نتجت عن نهمه في شراء الكتب العربية والافرنجية، اذ كان لا يبالي بعد شراء الكتب أن يحل أي مشكلة تعترضه بأهون الاسباب وأقلها ملائمة له بوصفه محررا صحفيا بالمفهوم الحديث للمحرر الصحفي الذي يرى أن نجاحه رهن بملابسه فيتزبى زيا يلحقه «بالمانيكان» لا بأصحاب الاعمال الذهنية ان صح أن الصحافة في الاغلب الاعم من الاعمال الذهنية .

ومن ثم فقد حل العقاد مشكلة الكساء بشراء بذلتين قديمتين ليرتديهما . ثم حلها في مرحلة تالية على وجه آخر أهدها اليه جاره ، ويتمثل في اعطاء دروس خاصة لتاجر أقمشة ، يتولى تفصيل القماش وتسليمه للعقاد كسوة كاملة ، ويوفيه أجر الدروس كسوة كل ثلاثة أشهر ، وان كانت مدة التعليم لم تزد على كسوتين كما يقول العقاد ، نظرا لنشاط التلميذ وذكائه ، أو لبراعة الاستاذ ، أو لرغبة كل منهما في فسخ العقد بسلام (٧١) . وعاد العقاد الى سيرته الاولى في مواجهة مشكلاته المادية التي تضخمت نظرا لاحتجاب صحيفة الدستور في نهاية سنة ١٩٠٩ . ونزل العقاد مرة ثانية الى الطريق العام يبحث عن عمل ولا عمل .

وقد أصيب العقاد عقب احتجاجها بمحنة البطالة التي ألجأته الى التفكير في بيع الكتب التي اشتراها طيلة بقائه في القاهرة . . وحتى هذه الحيلة على الرغم من عنفها وقسوتها على نفس العقاد ، فانه قد حيل بينه وبين بيعها ، لاحتجاز أصحاب الحجرة التي كان يقطنها في ضاحية حدائق القبة لهذه الكتب استيفاء بما عليه من ايجار متأخر ، وكادت أن تحدث معه مشاجرة بالعصى عند الكمين الذي أعدوه له ، لولا أن فطن العقاد الى أن يسلمهم ما يحمله من الكتب ، وفي الوقت نفسه كره أن يلجأ الى أحد أقاربه المسورين ، لانه قد خرج على ارادتهم ، وخيب رجاءهم بالخروج

(٧١) راجع : آخر ساعة الصادرة في ١٨ من سبتمبر ١٩٥٧

من الخدمة الاميرية ، بعد أن وصل اليها بين مزدحم الطلاب المتهاقبة
عليها (٧٢) .

ومن ثم اضطر العقاد الى السفر الى أسوان للبقاء بها فترة من الزمن
ريثما يعثر على عمل ملائم في الصحافة . ولكن هذه الرحلة كانت بدء
مرحلة جديدة في حياته وفكره . لانه وصل الى اسوان كالساهر الذي
طوى الليالي بغير راحة ، ثم ركن بجانبه لحظة واحدة الى طرف الفراش (٧٣) .
لقد كان العقاد في سهرته هذه يواصل الحركة ، ولا يبالي متى
يرقد ليستريح ، ولكنه يرقد لحظة واحدة ، فلا يدري متى هو قادر على
النهوض ، وذلك من جراء التعب الذي ترسب في نفسه طوال الفترة التي
قضاها في العمل ، فقد كان يجور على جسده ، ولا يعرف لهذا الجور
حدودا يرجع عنها ، لان تلك الحدود لم تصدمه قط بصخرة من
صخورها ، ولا بحاجز من حواجزها (٧٤) .

ولا أدل على ذلك من أنه كان يحضر ندوة زملاء - ابان اشتغاله
بمدينة الزقازيق - في ميدان المديرية ، ثم يعبر المدينة في ليالي الشتاء الى
مسكنه على حافة كفر الصيادين ، ولا يكرت للمطر ولا للبرد ، بل ولا يلبس
المعطف ولا يحمله تخففا من مؤنة حملة على الذراع ، وهو معلق في
حجرة الدار يعلوه الغبار .

وبالإضافة الى ذلك فانه كان يقضى اليوم في حدائق القبة على وجبة
واحدة من الخبز والجبن او من الخبز والفول ، ولا يخطر له ان
اهمال الغذاء ضرر يذكره لحظة بعد ذهاب الجوع (٧٥) .

ومن هذا الضرب أيضا أنه كان يفتح الكتاب الجديد فيروقه ما قرأه
فلا يلقيه من يده حتى يفرغ منه آخر الليل ، ولا ضياء في البيت غير شمعة
أو مصباح ذي قليل (٧٦) .

(٧٢، ٧٣، ٧٤)، المرجع السابق بتاريخ ٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

(٧٥) راجع آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر ١٩٥٧

(٧٦) نفس المرجع ونفس العدد

وكل هذه الاشياء وغيرها أسفرت عن شعور ترسب في نفسه في هذه المرحلة بأنه مريض بكافة الامراض ، وأخذ يتردد على الاطباءالذين أثبتوا له أنه غير مريض ، ولا يوجد به سوى الركود والاعياء ، ولكنه مع ذلك كله قد استولت عليه فكرة الموت العاجل ، وان لم يفزع وجدانه منها ، لانه كان يطلبها ولا ينفر منها ، وكانت صدمة اليأس أشد على عزيمته من صدمة الاعياء ، ولم يكن يأسه من أمل واحد حتى يستطيع التغلب عليه ، بل كان يأسا من جميع الآمال ، وفي ذلك يقول :

« كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية في الحياة ، لانني قبل ذلك بشهور عكفت على القراءة في كتب « الفلسفة المادية » وأكثر من النظر في مذهب النشوء والارتقاء ، فلاح لي أن اصدقه من أقوال خصومه المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الاوربيين باسم الدين ، ولاح لي من النظرة الاولى ، على غير روية أنه يهبط بالانسان الى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراج واحد يرتفع عليه ، كذلك كتبت في مقدمة كتابي « خلاصة اليومية » ان الانسان حيوان راق ولكنه حيوان » (٧٧) .

والدارس لحياة العقاد يرى أن قراءاته للفلسفة الحديثة ولمذهب دارون قد أصابته بصدمة أورثته شكاً في كل القيم والمعايير (٧٨) ، ويتضح هذا في قوله شعراً (٧٩) :

أين الحقيقة؟؟ لا حقيقة.....كل ما زعموا كلام
الناس غرقى في الهوى لم ينج غر أو أمام
ان الحقيقة عادة كالغيد يضمها اللثام

(٧٧) راجع آخر ساعة الصادرة في ٩ من اكتوبر ١٩٥٧

(٧٨) من حديث خاص مع العقاد في الاسكندرية في يوم ١٢ من

يولية ١٩٦٠

(٧٩) عباس العقاد : خلاصة اليومية ص ٧٩ ، والجزء الاول من

ديوان العقاد ص ١٢٩ ، ١٣٠

كل يهيم بها فان لاحت لهم صدوا وهاموا
كم أشرق الحق الصرا ح فأعرضت عنه الانام
والناس لو تدري خفا فيش يطيب لها الظلام
لاحق الا أنه لاحق في الدنيا يرام

وكان مؤثرا للعزلة في تلك الآونة ، اذ كان يتسلل الى مكان عزله
في البيت في أسوان لو اذا ، لان عيون أهله كانت ترشقه بسهامها ،
ويجتنبونه ، لانه وقر في نفوسهم أنه متمرّد على العقيدة ، وهذا بطبيعة
الحوال يخالف نشأتهم الدينية التي نشأوا عليها •

خلاصة اليومية :

وخلاصة اليومية التي ذهب في مقدمتها الى أن الانسان حيوان ،
ولكنه حيوان راق ، خلاصة الخلاصات في هذا الكتاب أنه قصة الامل
الذي بقى عنده يومئذ في شهرة الادب ، وفي عدد الايام التي يقضيها قبل
ظهور هذا الكتاب • وكان يخال نفسه مبالغاً اذا حسبها بأكثر من
الايام (٨٠) •

وفي هذه الاثناء وقر في نفس العقاد أنه ميت لا محالة ، ولكن بلا
أثر ولا خبر ، وأنه يمضي الى الموت صفر اليدين من مجد الادب ، ومن
مجد الدنيا ، ومن كل مجد يبقى بعد ذويه ، وأن هذا لا يليق به ، وانها
لضيعة لرجاء المجد الذي يتطلع اليه ويعشقه ويعبده ، ومن ثم فانه لا أقل
من هدية في اليد ، تجبر خاطر العرف على أبواب الابدية ، لانه لا يجوز
أن يجلس على الابواب في انتظار زيارة فارغة اليدين (٨١) •

وهنا تتساءل عن الطريقة التي يوفي بها العقاد القربان المطلوب ؟••
هل يوفيهما بتصنيف كتاب مثلا ؟•

وللاجابة على ذلك نرى أن العقاد كان لا يطيق في تلك الغاشية التي

(٨٠) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

(٨١) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

اعتبرته أن يوفي القربان المطلوب منه بتصنيف كتاب من وحي الساعة
والمناسبة لضيق الوقت والشك في اتساع الاجل ، ومن ثم وجد العقاد أن
خير جود يقدمه قربانا هو الموجود لديه ، وهو « خلاصة اليومية » الذي
يحتوي الخواطر والتعليقات التي قيدها العقاد فيه ، كما يحتوي رؤوس
الموضوعات التي نظر فيها ولما يفرغ من دراستها بعد ، وأبيات الشعر التي
نظمها ولم يتمها فبادر بتقييدها في هذه الدفاتر الثلاثة (٨٢) .

وحيثما وقع في وهمه انه ذاهب بغير اثر ولاخبر ، تصفح هذه
الدفاتر ، ونقل منها صفحات متفرقة تشمل على جميع نماذجها ، وبعث
بها الى صديق له في القاهرة يقول له : « ان هذه الصفحات هي كل
ما أتركه اذا تركت الحياة ، فان وجدتي أهلا للذكر ، ووجدتها أهلا
للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقي ، والا فلا حرج
عليك أن تهمل نشرها ، وتسلمها للنسيان ، يطويها حيث طواها في
زاوية من زواياه » (٨٣) .

ومن هنا استخدم أصدقاء العقاد هذه « الخلاصة » المخطوطة سلاحا
من أسلحة الفكاهة والنكايه ولم يتورعوا عن استغلال هذه القصة في كل
مناسبة ، فمنهم من يقول للعقاد مستمها : متى تظهر خلاصة اليومية ؟ لقد
طال الامد على انتظارها ، ومنهم من يقول متمها كلما شكا أو التمس
العلاج : على رسلك بالله ان المطابع مشغولة في هذه الايام ، فاصبر هنيهة
حتى تفرغ المطابع لطبع خلاصتك وأمثالها . وما فتى أصدقاء العقاد
وزملاؤه يستعجلونه ويستمهلونهم حتى أراحهم وأراح نفسه بطبعها بعد
اضافة اليها وحذف منها (٨٤) .

وعلى أية حال فان وهم الموت ظل يطارده طيلة المدة التي قضاها في
أسوان ، والمدة التي قضاها في القاهرة بعد أن رجع من أسوان اليها في

(٨٢) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

(٨٣) المرجع السابق ونفس العدد

(٨٤) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

وقت الصيف ، ولكن هذا الوهم قد زائله في شاطيء الاسكندرية يوم ذهب اليها لأول مرة ، ووجد نفسه مع عرائس البحر وعرائس الشعر في لجة من لجاج الامل والمغامرة (٨٥) .

ويرجع العقاد بعد شهرين من الاسكندرية، وهو مزود بطاقة ضخمة من الامل في العمل، ومن ثم كان لابد ان يتعرض لمشكلته الخالدة .. تلك المشكلة التي تتمثل في البحث عن عمل في القاهرة .. ولكنه لا يستطيع أن يعمل في الصحافة نظرا لانها كانت تعاني محنة سببها لها غضب ولاة الامور آنذاك على الصحافة والصحفيين ، ولا سيما الثوريون منهم من أمثال العقاد ، ولهذا لم يحاول البحث فيها عن عمل هذه المرة (٨٦) .
وأين يعمل أذن ؟

لقد ظل مدة يوالي الكتابة في مجلة « البيان » التي كان يصدرها المرحوم الشيخ عبدالرحمن البرقوقي ، ومن هنا جاءه العمل في وظيفة حكومية عن طريق المصادفة لا عن طريق البحث والتنقيب والتدبير .. ذلك أن محمد المويلحي مدير قسم الادارة بديوان الاوقاف سأل الشيخ عبد الرحمن البرقوقي عن العقاد الذي يكتب في مجلة « البيان » هل هو قريب للسيد حسن موسى العقاد المشهور ، فأجابه البرقوقي بأنه لا توجد قرابة بينهما ، وهنا سأله المويلحي عن عمله ، فكانت اجابة البرقوقي على هذا السؤال بأنه لا عمل له . ومن هنا تأثر المويلحي من أجل هذا التابغة - على حد تعبيره - الذي يعاني ما يعاني من ويلات البطالة ، وأردف قائلا للبرقوقي : « انه اولى بالعمل في الديوان من أكثر (التناقلة) الذين عندنا ، (٨٧) .

ويمكث العقاد في هذه الوظيفة عامين من سنة ١٩١٢ الى ١٩١٤ وكان عمله فيها مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقلم السكرتارية .
ولقد صادف عمل العقاد في هذا الديوان ابان الازمات ومراحل

(٨٥) راجع : آخر ساعة المصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

(٨٦) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٢٦ وما بعدها

(٨٧) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٢٦ وما بعدها

الاضطرابات اذ كان هذا الديوان ميدانا للمعركة الحامية بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية وطلاب الاصلاح (٨٨) .

والدارس لحياة العقاد يرى ان عمله في الديوان في تلك الآونة كان أنفع لتربيته النفسية ، لانه كان يجهل الكثير من حقائق الوطن ومن أسرار شؤونه العامة لو لم يقض تينك الستين في ذلك الديوان (٨٩) .

ذلك أن يد الخديوي كانت مطلقة في وظائفه وأمواله ، وكان يحتكرها لاشباع نهمه من المال والدسياسة ، ولا يأبى أن يسف الى درجة أن يختلس من أموال الصدقات وأن يستبيح السمسة على صفقات الاستبدال (٩٠) .

ولا أدل على ذلك من أنه قد شاعت في تلك الايام قصة أرض «المطاعنة» التي أخذ الخديوي لنفسه ستين الف جنيه باسم « العمولة أو الوساطة » وعاد بعدها فتعقب كل من عارضوه ووقفوا له في طريقه من الموظفين النزهاء . فعاقبهم على الامانة واليقظة بالفصل والاهمال (٩١) .

ووسط هذا المضطرب المتشعب بالسواد المتزر بالفضائح والفساد الخلقي لدى ولاة الامور عمل العقاد . . . وعمل في قلم هو حومة المعركة في ميدانها ، عمل في قلم السكرتارية ، اذ كانت تمر به مذكرات مجلس الادارة ومذكرات المجلس الاعلى . ومن خلال هذه المذكرات كان العقاد يقف على فضائح الاوقاف ، وكان يتكلم في هذه الفضائح ولا يتحفظ في كلامه . بل كان يصنع أكثر من هذا ، بأن يكتب في الصحف بعض مقترحاته لاصلاح الديوان بغير توقيع ، وقد يتحدث بهذه المقترحات في المجالس والمنتديات الادبية التي كان يرتادها ، وربما نقل أحد الادباء أو غيرهم ممن يجلسون مع العقاد الى ولاة الامور حديث العقاد في هذا الصدد (٩٢) .

وآية ذلك أن الاستاذ حسين روجي الايراني كان صاحب مدرسة

(٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١) المرجع السابق ص ١٢٨، ١٢٩

(٩٢) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٣٠ ، ١٣١

كبيرة في العباسية البحرية ، وكان مع ذلك يقوم بالترجمة في دار الوكالة البريطانية بعض الوقت ، وكانت مهمته ان يترجم بعض محتويات الصحف المصرية . وحينما وصل الى مقترحات العقاد سألوه عن صاحبها ، فقال لهم في الوكالة انه يعرف كاتبها ويلقاه كل يوم ، ومن هنا حينما وصل الى العباسية سارع الى لقاء العقاد ليعتذر له عما بدر منه (٩٣) .

* *

على أنه قد جرت محاولة لاختيار العقاد رئيسا لتحرير صحيفة « المؤيد » ابان عمله بديوان الاوقاف من قبل « اللورد كتشنر » عن طريق السكرتير الشرقي لدار الوكالة البريطانية « مستر ستورز » ، وذلك بوساطة الاستاذ حسين روجي الايراني الذي أخبر العقاد بأن « مستر ستورز » يريد مقابله في أمر يهم العقاد . غير أن مقابلة العقاد للسكرتير الشرقي « ستورز » لم تشجعه على أن يسند اليه هذا العمل ، نظرا لجوابه الصارم حينما قال له « مستر ستورز » ألا ترى أن حرمان الاوقاف من الرقابة الاجنبية هو علة هذه المفاصد التي شاعت فيه . فلم يلبث العقاد الا أن أجابه بقوله : « ان المجلس البلدي الاسكندري يتمتع برقابة أجنبية من كل جنس وملة ، ولا أظنكم تحسبونهم مثلا من أمثلة النزاهة والنظام » . وحينئذ تبه « ستورز » وسكت ، ثم استأنف الحديث ليختمه بقوله : ان اللورد « كتشنر » كان يسره ان يراك لولا انه يخرج الساعة الى موعد سريع ، ثم نهض العقاد وودع « مستر ستورز » وهنا صافحه « اللورد كتشنر » على باب المكتب ، فأوما له العقاد بالتحية ومضى في طريقه لا يلوى على شيء (٩٤) .

وحينما فشلت هذه المحاولة لاجتذاب العقاد للعمل في صحيفة

(٩٣) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٣٠ ، ١٣١

(٩٤) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ أكتوبر ١٩٥٧ ، وراجع

كذلك : حياة قلم للعقاد ص ١٣١ وما بعدها ، وكذلك : رجال عرفتهم للعقاد أيضا ص ٧٩ وما بعدها

« المؤيد » وتركه ديوان الاوقاف ، فام أحمد حافظ عوض بمحاولة اخرى للسبب نفسه عن طريق ناظر الاوقاف أحمد حشمت باشا ، وذلك بعد ان تحول ديوان الاوقاف الى نظارة ، اذ ذهب أحمد حافظ عوض الى مكتب ناظر الاوقاف وطلب العقاد ، وحينما جاء العقاد الى مكتب الوزير زعم احمد حافظ عوض ان صفحة الادب بالمؤيد تحتاج الى اديب يتفرغ لها ولا ينظر في عمل من أعمال الصحيفة غير كتابتها ، أو الاشراف على ما يكتب فيها . ثم أبدى أسفه من عدم اتساع وقته للتفرغ لهذه الصحيفة ، لانه لو اتسع لهذا لما استغفله عبد الحلیم المصري ودس عليه تلك القصيدة المسمومة التي جعلته سخريه المجالس الادبية - على حد تعبيره - والتي يقول في مطلعها : (٩٥)

وشاعر النيل دون الخلق يشربه بينا يشق الصدى منا الحشاشات

ويعني بذلك الخديو عباس وشاعره أحمد شوقي ، ولم يسكن انقاريء في ذلك الوقت في حاجة الى البراعة لفهم هذه الموارد المكشوفة (٩٦) . وبطبيعة الحال لم يتردد العقاد في قبول الدعوة الى تحرير الصفحة الادبية في « شيخ الصحافة العربية » ، لانه لم يكن يطمع وهو في الرابعة والعشرين الى عمل اهم من هذا العمل في الصحافة (٩٧) . وبالإضافة الى ذلك فان عمله في الديوان لم يكن مرضيا لنفسه اونابة وطموحه الشرود المتمرد على كل التقاليد المتعارف عليها ، والتي هي موضع تفديس وعبادة لدى الاكثرين . لم يكن عمله في ديوان الاوقاف مرضيا له اذن في حياته الادبية ، بل وفي حياته المعيشية ، ولهذا وذلك لم يكن مجال لان يتردد العقاد في قبول دعوة أحمد حافظ عوض رئيس تحرير المؤيد آنذاك (٩٨) .

ويرى الدارس أن محاولات أخذ العقاد من ديوان الاوقاف مرتبطة

(٩٥،٩٦) راجع : حياة قلم للعقاد ص ١٤٠ وما بعدها

(٩٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

(٩٨) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من أكتوبر سنة ١٩٥٧

بكتاباتة في الصحف عن هذا الديوان والاختفاء والجرائم التي يقترفها و
الأمور فيه ••

وليس أدل على ذلك من أن السبب في أخذه في المحاولة الثانية هو
أحمد حافظ عوض ، وهو نفسه السبب في استقالة العقاد من «المؤيد» •
وذلك حين تواطأ مع من استغل اسم العقاد من المحررين في قبول الهدايا
والرشوة من المشتركين في المؤيد والكتاب الذهبي الذي كان المؤيد يزعم
إصداره ليسجل فيه الرحلة التي قام بها الخديو الى الوجه البحري ، والتي
تعمد فيها زيارة الأعيان في قصورهم ، وزيارة الفلاحين بين أكوأخهم ،
واستقبال الشعب حول سرادقات الاحتفال حيثما نزل بقريته من قراهم ،
وليج به الحرص على إبراز صداقته للمعارضين في الجمعية التشريعية فجعل
أسماءهم في الصف الأول بين أسماء الأعيان الذين تقع قراهم على خط
الرحلة ، ودعاهم الى مصاحبته في غير قراهم ، وأولهم سعد زغلول •
وقد قام الخديو بهذه الرحلة الشعبية ليقوى الرأي العام في مصر
لمصلحته ضد «اللورد كشنر» الذي كان يصر على خلع الخديو وترشيح
أمير من أمراء بيت حلیم للخديوية (٩٩) •

وكان من المقرر ان يرافق الخديو في هذه الرحلة رئيس تحرير
«المؤيد» ، أحمد حافظ عوض ، ومن هنا رأى رئيس التحرير ان يمهده الى
العقاد بمهمة تمثل في تنقيح اخبار المراسلين بالصيغة الادبية ، وانتظار
الرسائل منه لمراجعتها قبل اثباتها في الصحيفة بالصيغة الاخيرة ، وهي
الصيغة التي ستظهر بها في الكتاب الذهبي ، وفي الوقت نفسه لفت نظر
العقاد الى ان هذا العمل عمل ادبي خالد على أية حال ، وانه يستحق ان
يؤجل من اجله صفحة الادب الى حين (١٠٠) •

وبينما كان العقاد منهمكا في العمل في هذا الكتاب «الذهبي» اذا
بمشترك في الكتاب يضل طريقه ويدخل حجرة العقاد بدلا من ان يدخل

(٩٩) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٤١ وما بعدها

(١٠٠) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٤١ وما بعدها

حجيرة المحرر الذي كان منوطا بتسليم الرسائل وتسليمها الى العقاد بقائمة مكتوبة لا يداعها في ملفاتها الى حين الفراغ من تدوينها .
وقد استشف العقاد من خلال حديث المشترك انه اعطى المحرر عشرة جنيهات باسم العقاد ، وانه حضر في ذلك اليوم ومعه شيء زهيد على سبيل الهدية ، وهذا الشيء الزهيد يتمثل في ساعة ذهبية بسلسلتها ، ثم طمأن المشترك العقاد بأن له هدية أخرى بعد ظهور الكتاب^(١٠٢) .
وحينذاك توقف العقاد عن العمل في الكتاب الذهبي الى ان يحضر رئيس التحرير .
وحينما رجع احمد حافظ عوض أطلع العقاد على ما حدث من المحرر ، فتجههم رئيس التحرير وتوعد ذلك المحرر المسؤول بالويل والنبور ، ووعد العقاد ان يكتب كلمة في « المؤيد » في الغد لتزيل اللبس وتبعد الشبهة عن العقاد في امر الكتاب ورسائله واشتراكاته ، ورجا الاستاذ العقاد ان يفض النظر عن المسألة ولا ينقطع عن العمل في الكتاب ، وقبل العقاد هذا التصحيح ، ولكن قبوله كان متعلقا بتنفيذ التصحيح ، فهل نفذ رئيس التحرير ما وعد به حتى يستطيع العقاد مباشرة العمل باقبال وبواعث سامية . . . أم ان رئيس التحرير ترك للمحرر المسؤول الجبل على الغارب ولم يصحح الوضع بالكلمة التي سينشرها في المؤيد ، والتي وعد بها العقاد^(١٠٣) ؟

يقول لعقاد في هذا الصدد : في مساء حديثه مع رئيس التحرير زاره بعض اصديقه ، ونزلوا الى باب الدار ينتظرون مركبة خالية تمر بهم ليستقلوها الى ندوتهم المعهودة عند دار القضاء « في الوقت الحاضر » ، ولم يكدهم العقاد ينادى المركبة العابرة حتى مر بهم الاستاذ حافظ عوض يحييهم بيميناه ويضع يسراه في ابط المحرر « المتهم » وهو مقبل عليه بالضحك والحديث ، ثم صدر « المؤيد » في اليوم التالي وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون^(١٠٤) .

(١٠٢، ١٠١) المرجع السابق ص ١٤٣، ١٤٤

(١٠٣، ١٠٤) عباس العقاد : حياة قلم ص ١٤٤، ١٤٥

ومن هنا استقلال العقاد ، وكان عمله بالمؤيد اخر عهده بالصحافة
قبل الحرب العالمية الاولى ، لانها نشبت قبل نهاية الصيف •
ومن هنا كذلك نستطيع ان نرجح ان خروج العقاد من نظارة
الاقواف ثم من صحيفة « المؤيد » لم يكن قضاء وقدرًا ، بل كان عملا
مرتبًا ومحسوبًا له حسابته في أذهان المسؤولين •
وإذا ادخلنا في حسابنا ان خطة القصر انذاك فصل كل موظف
بالاقواف يعارض في نظام الديوان •

وتأسيسًا على هذه الخطة أحيل عبدالرحمن فهمي « بك » وكيل
النظارة الى المعاش ، لانه من اكبر المعارضين لنزوات الخديو في الاوقاف
وفي مقدمتها صفقات السمسة والاستبدال بالذات^(١٠٥)
لكن العقاد صغير واحالته الى المعاش تكون مكشوفة ، ففضح خطة
القصر ازاء الاحرار ، وليس في المصلحة بالنسبة للقصر ، ان يعرف عنه
ذلك • فلا بد له من وسيلة اخرى لابعاده من نظارة الاوقاف ، ومن هنا
كانت الوسيلة بالشيء المحجب للعقاد الذي يملك كل شغاف قلبه ، الا
وهو الصحافة^(١٠٦)

وقد مكث العقاد ايامًا في القاهرة بعد استقلته من « المؤيد » وهو على
نية الرحيل الى اسوان ، اذ كان يأمل ان يستقبل موسما كاملا من المواسم
الجميلة في ذلك المشتى العالمى البديع • ومن هنا رسم برنامجا لذلك الموسم
يشتمل على المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعى ،
ومضامين الاثار في اسوان ، وهى غنية بالمضامين المعلومة والمجهولة من أيام
الفراعنة الى أيام العرب الى المماليك الى أيام الدولة العثمانية^(١٠٧) •
واتناء اقامته بأسوان انتهى من تأليف كتابه «ساعات بين الكعب »
الذى سطر فيه خلاصة قراءاته وتعليقاته التى وقعت في خاطره ، واطلع
عليها اثناء القراءة ، وكان هدف العقاد من تأليف هذا الكتاب ، ان يصل

(١٠٦، ١٠٥) المصدر السابق ص ١٤٥، ١٤٦

(١٠٧) راجع آخر ساعة الصادرة في ١٦ من اكتوبر سنة ١٩٥٧

بين عالم الكتب وعالم الحياة ، وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما بدت له من النظر والمراجعة والاحاديث ، وكان الكتاب يشتمل على خمسمائة صفحة اودعها ثمرة اطلاعه وتأمله في مذاهب الفكر الحديث ، واولها مذهب « داروين » ومذهب « نيتشة » في السوبرمان • غير انه بعد اعداده للطبع فقد منه مرتين ، ولم يبق من « ساعات بين الكتب » في صورته الاولى سوى خمسين صفحة ، ومن هنا فان كتاب العقاد « ساعات بين الكتب » المائل في ايدي القراء الذي ظهر بعد ذلك بنفس الاسم واعيد طبعه مرات هو غير الكتاب الذي فقد من العقاد مرتين^(١٠٨)

وقد انتهى العقاد كذلك من كتابه « الانسان الثاني » ولم يبق منه كذلك غير صفحات وقد وقف العقاد فيه على آراء الفيلسوف الالماني « آرثر شوبنهاور » في المرأة فأعجب بحذق الرجل وجراته على المجاهرة بأقوال يعد قائلها في اوربا خلوا من التهذيب وسلامة الذوق^(١٠٩)

وبعد انتهائه من هذا الكتاب في هذا الموسم ، أتم رسالته «مجمع الاحياء» التي تعتبر تلخيصها للاراء في فلسفة النشوء وفلسفة القوة ، وفلسفة الفطرة التي تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية •

والدارس لهذا الكتاب يرى أن العقاد قد استهدف فيه ان يبين النضال بين الاهواء والمبادئ ، وان الحق الذي نعرفه ونغار عليه ، غير الحق الذي تتوخاه حركات الكون المتجلية في تاريخ البشر ، فليس مانعته منه حقا الا اداة موصلة الى الحق العميق المكون عنا ، والذي يرتسم طرق منه في عقائد الطبائع القوية السليمة ، اذ ان القانون الذي يوضع لبقاء فرد واحد غير القانون الذي يوضع لبقاء جميع الامم في جميع العصور ، لان غاية الكون اكبر من غاية هذا الفرد او ذلك الشعب ومتى تعارضت الغايتان -ولا بد ان تعارضا في حادثة من الحوادث- فلا ظلم في تضحية الصغرى منهما لاجل الكبرى ، بل الظلم ان يدرك بمجهود أحد الشعوب

(١٠٨) المرجع السابق ونفس العدد

(١٠٩) الانسان الثاني ص ١٤٠،٣ ط أولى سنة ١٩١٢ بالقاهرة

ملا يجوز ان يدرك بمجهود كافة الشعوب ماضيها وحاضرهما
ومستقبلها (١١٠) .

على ان العقاد يذهب الى ان الغيرة على الحق هي روح الانسانية ، او
هي مظهر اثرتها وحب البقاء فيها ، فاذا هي رضية لامة ان تستنزف موارد
الامم بغير الحق ، ثم اطمأنت الى هذه الحالة ، فقد آذن ذلك بانحلالها ،
وكان منها بمثابة ضعف الوطنية في الامة وضعف الحيوية في الفرد ،
وكلاهما الفناء (١١١)

ويرى الدارس ان هذا الكتاب بالرغم من قدم العهد على تأليفه ،
وبالرغم من انه نتاج شباب العقاد الفكري ، فانه ليدلنا دلالة واضحة على
وعى العقاد الكوني ، وشمول نظريته الكلية للعالم والوجود .
وقد عبر عن وعيه هذا شعرا في قوله : (١١٢)

كم آية في الكون أخفى من خفيات الضمير
من لا يرى الا العيان ن فلا يرى الا اليسير

كما عبر عنه في ختام مقدمة الطبعة الثانية من رسالته تلك بقوله :
« اسمعوا صوت الطبيعة : اسمعوه همسا قبل ان تضطركم الى سماعه
زمجرة ووعيدا وليسمعه كل حي على شاكلته ، يسمعه الشرير فيتمادي
في شره ، وتسمعه الأمة فتقضى على ذلك الشرير ، وتسمعه الانسانية
فتتحى على الامة التي تفرط في حقوق الحياة ، أو التي تمسخ عناصرها
الباقية في الامم ايثارا لمنافعها المحدودة . وما دام هذا الصوت مسموع
النداء ، فالعالم الانساني ممدود البناء (١١٣) .

وقد نظم أكثر من نصف قصائد الجزء الاول من الديوان في هذا

(١١٠) عباس العقاد : مجمع الاحياء ص ١ ط ثانية سنة ١٩٢٠
القاهرة .

(١١١) مجمع الاحياء ص ١ وما بعدها

(١١٢) ديوان العقاد الجزء الاول ص ٦٩

(١١٣) عباس العقاد : مجمع الاحياء ص ١٦، ١٥

الموسم ايضا ، وهو الجزء الذي طبع في عام ١٩١٦ ، وأعيد طبعه في عام ١٩٢٨ مع ثلاثة اجزاء آخر تحت عنوان « ديوان العقاد » .

وقد استبعد العقاد من الجزء الاول في طبعته الثانية قصيدتين : احدهما دالية نبذها لأنها - كما يقول - كانت تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها في نفسه سند سليم ، ولا مسوغ مقبول ، لأنها كانت تمثل نوبة فلسفية الحادية ، من جراء قراءته للفلسفة المادية الحديثة . كما أنه استبعد من شعره كل ما يدل على رأى سلبى أو انكار أو تشاؤم ، حتى هم أن يحذف من الجزء الثالث قصيدته « ترجمة شيطان » فيما بعد ، لولا أن قبض الله لها الاستاذ المازنى وعبد الرحمن صدقى اللذين أثنياه عما اعتمزم عليه^(١١٤) .

أما القصيدة الثانية فهي « ليالى الهوى »^(١١٥) التي يقول في مقدمتها « عن لسان بعض من طلب النظم في هذا المعنى ، وهي قصيدة غزل حسي مكشوف ، ولذا فانه قد استبعدها هي الاخرى .

ومن العجيب أنه وقع في وهم العقاد أنه لن يكتب الى الصحافة ، وأنه قد أعطى نفسه منها اجازة الى موعد غير مسمى ، اللهم الا اذا عاد الى الصحافة بقصيدة من الشعر ، ومقالة في حكم القصيدة الشعرية توحى بها لمحة من لمحات الخاطر ، أو عارض من عوارض الشعور^(١١٦) .

ولكن الانسان يقدر ويدبر، وتأتي الاقدار فنضحك من تقديره وتدبيره، وتمضى به رغم أنفه الى ما امتنع عنه واعتبر نفسه في اجازة منه ، وكذلك كان شأن العقاد الذي انقلب تقديره وتدبيره رأسا على عقب ، حينما كتب مقالة قرئت مخطوطة قبل أن تقرأ مطبوعة ، ولم تكن تزيد نسخها على عدد اصابع اليدين ، تلك هي مقالة « نادى العجول » التي أوشك العقاد

(١١٤) راجع : عباس العقاد ناقداً للمؤلف ص ١٠٩

(١١٥) ديوان العقاد ج١ ص ٣٩

(١١٦ ، ١١٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٢٣ من أكتوبر

سنة ١٩٥٧

أن يذهب من جرائها منفيًا إلى « مالطة » ، وهو أخرج ما يكون إلى الراحة والمقام بأسوان ، أو في جو القطر المصري من المشتى إلى المصيف (١١٧) .

والباعث على كتابة العقاد لهذه المقالة هو أنه قد أدركته الحرب العالمية وهو بأسوان ، وأحس الناس بوطأة الأحكام العرفية في هذا البلد النائي على طرف الصعيد الأعلى قبل أن يحسوا بها في سائر البلاد المصرية ، ومرجع الأحكام العرفية فيها إلى رئيس إقليمى بعيد من الرقابة مطلق التصرف في الأوقات التي تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون الإدارية في الأقاليم (١١٨) .

وهذه المظالم التي كانت تحدث وذلك الطغيان الذي يجرى في أسوان داعيًا لأن يتكلم العقاد بلسانه وقلمه كاتبًا إلى وزير الداخلية ، ونظم قصيدة منشورة سماها « نادى العجول » ، لأن النادى كان للسادة الحاكمين ، وسرارة القوم في المدينة وكانت تدبر فيه مؤامرات السلب عن طريق المساومات والألعاب ، وكان الحضور فيه مفروضًا على بعض الناس في ساعات معدودة كي يخلو الجو لبعض الناس الآخرين في تلك الساعات . والسر في تسمية العقاد لهذا النادى « ينادى العجول » أن رؤسائه كلهم كانوا من أصحاب الوزن الثقيل ، ولأنه « حظيرة من حظائر الدواب » الأدمية لا تخلو من القرون . وقد كتب مقاله (١١٩) وتناسخه الأدباء وأرسله إلى الصحف ، وقرأه

(١١٨) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧

(١١٩) وكانت هذه المقالة عبارة عن مقامة فكاهية جاء في مقدمتها : « أيها السادة ان العجل مدني بالطبع ، ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بني آدم بضخامة الاجسام ، وصلابة القرون ، وقد غير بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون فيه بأسنا ، ويتمسحون بأذيالنا حتى أيقنوا أنه لن يقوى على حمل هذه الدنيا أحد سوانا فعبسونا من فرط الاجلال ، وسبحوا لنا بالعشى والأصال ، وكاثوا يحسدوننا على قروننا ، فسعدوا أكبر ابطالهم واشدهم بأسا وارفعمهم ذكرا - أعني الاسكندر المقدوني -

النادي كله في جلسة حافلة من جلساته ، وتقرر في تلك الجلسة مصير الفضولي الجسور الذي يجتريء على ذوات القناطير المنظرة من الشحوم واللحوم (١٢٠) .

ويتمثل ذلك المصير في نفي العقاد ، غير أنه قد تبين من مجرى الحوادث فيما بعد ، أن النفي قد تعذر على مدير النادي ، لأنه نفي قبله ناظرا لمدرسة الموااساة ، وكان العقاد في تلك الآونة ناظرها الثاني ، فأشفق القوم أن يقال انهم يضطهدون المدرسة الاسلامية الوحيدة في البلدة ، وحينما تعذر على المدير نفي العقاد ، لم يكن أمامه الا ان يشدد الرقابة عليه ، ويقيد اقامته بالمدينة ، فلم يكثر العقاد لهذه الرقابة ولا لذلك التقييد ، لأنه بطبيعته كثير العكوف في المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة في الخلاء أو في النيل (١٢١) .

ولم تقف حيل مدير النادي وألعيه في التنكيل بالعقاد الى هذا الحد ، وانما اوقع بينه وبين المفتش الداخلية الانجليزي مدعيا أن العقاد يتهم المفتش بالرشوة ، وأنه يقاسم الموظفين اتاوات السلطة على وظائف العمد والمشايخ ، و « تبرعات » الاعيان وصفقات التموين . ولم يكذب المدير فيما ادعاه لان العقاد كتب في هذا الموضوع وأخذ يقول ويعيد القول أن المفتش الانجليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرؤوسيه .

ويصف لنا العقاد ما حدث له بعد ذلك قائلا : « واستدعاني المفتش الانجليزي الى ديوان المديرية فقال فيما قال في حديث طويل بالمغة الانجليزية : « لا يوجد انجليزي مرتش Corrupt في الحرب ولا في السلم » فبدت مني كلمة لا أدري ماذا كنت أقول - سواها - لو قصدتها في روية ، وقلت ان الانجليز جديرون بالتهنئة بعد حرب

بني القرنين ، وما اسكندرهم وما قرناه ، أن أصغر عجل فينا ليهشم رأسه اذا ناطحه ، ويجندله اذا واثبه أو صارعه ، فالعجب لك ايتها العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادي والمعاهد ٠٠ ، آخر ساعة ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧ العدد ١٢٠٠ (١٢٠ ، ١٢١) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧

الترنسفال (١٢٢) ، ولكنني لو تعمّدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة أولى وأحجى ، فان الرجل بعدها وقف الى جانب المدير في طلب اعتقاله واقصائي من المدينة (١٢٣) .

هروبه :

وتلعب المصادفة دورا خطيرا في معرفة موقف المفتش الانجليزي من العقاد ، والتقارير الذي كتبه عن العقاد طالبا فيه نفيه الى مالطة ، وذلك عن طريق أحد قراء مقامة «العجول» الذي أسر للعقاد بما يتويه المدير بالنسبة له ، ومن هنا كان لا بد من الرحيل من المدينة بكل وسيلة مستطاعة .

ويتمكن العقاد من الرحيل الى القاهرة بالرغم من الرقيب الذي كان ملازما لباب الدار بالليل والنهار ويلازمه اذا خرج ويسلمه في المساء لحارس الدرك فلا يفارق الحارس مكانه في الصباح حتى يتسلمه منه الرقيب الاول أو رقيب جديد (١٢٤) .

وفي اليوم التالي لوصوله الى القاهرة كان العقاد في ديوان الداخلية يزور صديقه الاديب جعفر والي «باشا» وكيل الوزارة ، ثم تابعت الايام والتقارير السرية تصل من أسوان الى الوزارة بتفصيلات المؤامرات التي يدبرها العقاد ، والاحاديث التي يذيعها ، والاقاويل التي يثير بها الخواطر ويستحق من أجلها التعجيل بالاعتقال والنفي من الديار . وكان وكيل الداخلية يصطحب العقاد كل يوم الى مكتب المستشار ويشهده على مقامه بعيدا من اسوان بأكثر من ستمائة ميل ، وفي الوقت نفسه هو بأسوان يراه المفتش والمدير يثير الخواطر ويدبر المؤامرات .

ولم يكن جزاء المدير على ما اقترفته يداه في حق العقاد ووظيفته معا

(١٢٢) المعروف أن حرب الترنسفال قد كشفت عن فضيحة من أشنع الفضائح في حالتها الحرب والسلم أثناء القتال وبعد القتال .
(١٢٣) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٥٧ العدد ١٢٠٠

(١٢٤) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٥٧

الا الاحالة الى المعاش قبل موعد الحركة الادارية ، ويعين بدلا منه محمد مقبل «باشا» ، كما خرج المفتش من أسوان ، وهنا أبرق العقاد الى أصدقائه الاسوانيين حينما عرف الحركة قبل تنفيذها بقوله : « شر مدبر وخير مقبل » (١٢٥)

الرقابة على الصحافة :

ولقد كانت صداقة العقاد بجعفر والي وكييل وزارة الداخلية سببا في عمله بالرقابة على الصحف ، لانه حينما علم أن مجيئه الى القاهرة للبحث عن عمل لانه لا يطيق قضاء فصل الصيف في أسوان لمرضه بالكبد ، سعى في ايجاد عمل للعقاد ، وكان هذا العمل يتمثل في الرقابة على الصحف ، لانهم كانوا في حاجة الى رقيب للصحف العربية . وقبل العقاد هذا العمل في الرقابة بلا تردد ولا غضاضة لانه يعتقد أن الرقابة في أيام الحروب من المصالح العامة التي ينبغي الاسهام فيها .

غير أن هذا العمل لم يطل مقام العقاد فيه ، لانه أصبح بغيضا الى نفسه وفكره بعد ثلاثة أيام . . . وهنا نفسه بالخيبة فيه ، ذلك أنه بعد ثلاثة أيام جاءه تسيه وسؤال عن بعض الاخبار التي تركها للنشر ، وتحقق للمسؤولين أنه لم يحدفها . فاستدعي الى مكتب مستر « هورنبلور » ، الرقيب العام ، فلما دخل على مستر «هورنبلور» سأله وهو مقطب الوجه بقوله : هل راجعت هذه الاخبار ؟ وقدم له رزمة من جزازات الصحف اليومية والاسبوعية ، فقال له العقاد بعد ارجاء النظر فيها : نعم ، انها تباح فيما أطلع عليه من الصحف الانكليزية ، ويباح لتلك الصحف ما هو أخطر منها بكثير . فصاح به الرقيب العام متهكما . . . الصحف الانكليزية؟ ثم أردف قائلا : هل أنت من الحزب الوطني ؟ فقال له العقاد : أنا مصري وطني بطبيعة الحال ، وحينئذ قال له الرقيب العام اذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟ فأجابه العقاد بما يفيد أنه لا يفهم المقصود من

(١٢٥) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧

العدد ١٢٠٠

العطف معهم ، ولذا فانه لا يبقى في هذا العمل اذا كان يتطلب منه شعورا
لا يفهمه ، وله أن يتقبل استقالته مشكورا على قبولها •
وهكذا عجز العقاد عن مهمة الرقابة بعد أسبوع واحد ، وكاد يعجز
عنها بعد يومين أو ثلاثة ، وحمد الله على هذه الخيبة الموفقة (١٢٦) •

المراسلة الحريية :

وحينما كان يعمل مدرسا بمدرسة وادي النيل الثانوية بجوار محطة
باب اللوق ، وهي على مدى خطوات من مكتب المقتطف الذي كان يكتب
فيه عن المقارنة بين فلسفة المعري وفلسفة شوبنهاور ، في هذه الاثناء زاره
ذات يوم الاستاذ نجيب شاهين بالمدرسة موفدا من قبل الدكتور يعقوب
صروف ، وقال له أن بعض ذوي الشأن ينتظرونه في المقتطف •
وذهب اليهم العقاد بعد الانتهاء من الحصة التي كان يشغلها ، فلما
دخل المكتب وجد الدكتور صروف وشابا من أصهاره ومعه الشيخ الغنيمي
التفتازاني ورجلا انجليزيا لا يعرفه العقاد ، ولم يعرفه به الدكتور صروف ،
ولكنه قال : انك تعلم قلق الناس في هذه الايام من جانب الحدود الشرقية ،
وكلهم يظنون أن الهجمة منها قريبة على قناة السويس ، ثم على جميع
البلاد المصرية ، ومثلك خليك أن يعيد الطمأنينة الى نفوسهم بما تراه
عيانا ، وتعب عنه بأسلوبك المعهود ، لان مجرد الوصف الصحفي الشائع
لا يكفي للانقاع والتأثير ، ولولا ذلك لكان في مخبر من مخبرينا أو
مخبري الصحف الاخرى من يغنى هذا الغناء •

فلما سمع العقاد هذا الاقتراح من الدكتور صروف قال له « انني
لا أكره ان ابث الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم
اذا كان المصريون هم الذين يقومون بأعباء هذا الدفاع ، أما وهو - كما
يحدث الآن - من عمل دولة الحماية فليس من المعقول أن أرفض الحماية
وأقبل دفاعها ، (١٢٧) •

(١٢٦ ، ١٢٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٥٧

العدد ١٢٠١

ولم يعقب أحد من الحاضرين في تلك الجلسة بكلام يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتازاني . . فانه طفق يقول ويعيد يا سيدي فيها ايه ؟ وماذا في ذلك يا سيد عباس ؟ أليس المهم الآن ان تطمئن النفوس على الحدود ؟ فلم يجبه العقاد ولم يجبه أحد من الحاضرين وانصرف العقاد (١٢٨) .

جريدة الاهالي :

على أن العقاد قد أمضى سنتين في التدريس مع صديقه ابراهيم المازني في مدرسة بعد مدرسة من المدارس الثانوية الكبيرة ، وقد جرت عادتهما أن ينتهي عملهما في كل مدرسة بأزمة من أزمات الخلاف على تصحيح أوراق الامتحان ، لانهما قد دأبا على تصحيح الاسئلة والاجوبة في أوراق الاجابة . وهذا بطبيعة الحال مناف لما درجت عليه الوزارة بالنسبة لاوراق الامتحان التي تدعها في خزائنها بعد الامتحان ، وتنظر اليها كأنها أوراق الرصيد المنتظر في حساب المصروفات .

وقد انتهت السنتان في مهنة التدريس وخرجا منه بعد حدوث الازمة السنوية الخالدة حينما آن أوانها المقدر ، واتفقا بعد خروجهما من مهنة التدريس على ان يقطنا بالامام الشافعي حيث تقيم أسرة المازني من زمن بعيد ، وقدرا أن اختزال النفقات المعيشية بالسكنى في « الامام الشافعي » بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنيهما عن التعجل في طلب العمل بضعة أشهر الى أن يسر الله العمل بعد ذلك أو قبل ذلك كما يشاء .

ومن هنا صرح العقاد صديقه المازني بقوله : « ابحت يا صاح عن عمل في صناعتك ولا ترتبط بي في بحثك ، ودعني أنتظر العمل في صناعتي حينما اتفق ، فلا حيلة لنا في استعجاله ، ولا في البحث عنه ، لانه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه ، » (١٢٩) .

وفي هذه الاثناء يسر للمازني العمل ناظرا للمدرسة المصرية

(١٢٨) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٥٧

العدد ١٢٠١

(١٢٩) آخر ساعة الصادرة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧ العدد ١٢٠١

الثانوية ، ولبت العقاد في البيت بالامام الشافعي يترقب أوائل الشتاء ليعمل فيما يتهيأ له من عمل يرتضيه أو يزعم الرحلة الى أسوان ، لانه كان يعاني حالة يأس من العمل في الصحافة والتدريس معا الى ما بعد الهدنة ، اذ كاز للهدنة موعد قريب قيل انتهاء الحرب العالمية الاولى . .

وبينما هو على هذه الحال من اليأس والضيق والفتور ، مما جعله يفكر في ازماع الرحلة الى أسوان ، اذ بالاستاذ محمد عبدالقادر حمزه يستدعيه عن طريق عبدالؤمن الحكيم ، ليقوم بالتحضير في صحيفة «الاهالي» بالاسكندرية ، وقد فوض عبدالقادر حمزه لعبدالؤمن الحكيم أن يصرف للعقاد مرتب شهر ، وما يطلبه من تكاليف السفر الى الاسكندرية ، وأن يراجع الصحيفة اذا طلب العقاد مرتبا أكبر .

على أن يكون السفر في ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الاكثر ، فكان رد العقاد عليه : أنه لا حاجة الى المراجعة الان ، ولعلها في الاسكندرية أجدر وأيسر واتشى يومئذ الى الامام الشافعي لاعداد حقيته للسفر واختيار ما يحمله معه من الكتب الى الاسكندرية والاستغناء عما هو معد للبيع من الكتب في يومين أو ثلاثة ولم يكن طلابه بالقليلين في تلك الآونة ، لانقطاع البريد الاوربي في الفترات بعد الفترات على غير انتظام .

وسافر العقاد الى الاسكندرية حيث عمله الجديد تاركا صديقه المازني بالقاهرة ، ليلتقي بعبدالرحمن شكري في الاسكندرية حيث يعمل مدرسا بمدرسة رأس التين الثانوية (١٣٠) .

ولم يستطع المازني حينئذ البقاء بالقاهرة وصاحبه بالاسكندرية ، ولذا فانه ما ان أفلست المدرسة المصرية الثانوية التي كان يعمل ناظرا لها ، حتى كتب الى العقاد ليتوسط له في عمل بالصحافة في الاسكندرية ، فأجاب العقاد طلبه بالحصول له على عمل في جريدة وادي النيل لترجم فيها ويكتب المقالات ، وهذه أول مرة يحترف المازني فيها الصحافة ، وكان ذلك عام ١٩١٨ (١٣١) .

(١٣٠، ١٣١) راجع آخر ساعة الصادرة في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧

العدد ١٢٠١

واستمر العقاد في جريدة «الاهالي» حتى نهاية الحرب العظمى وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصري بقيادة سعد زغلول ، وحينئذ افرقت الخطة العامة بين جريدة الاهالي والعقاد فيما يكتبه من تحقيقات مصورة أو مقالات أو غيرها .

ذلك أن «الاهالي» قامت لتأييد محمد سعيد باشا برأس مال مجموع من تبرعات أنصاره وأبناء بلده السكندريين ، فلما تألف الوفد المصري كانت خطتها حياله هي خطة محمد سعيد حيال سعد زغلول ، وهي خطة الوزارة أمام معارضها الاكبر في الجمعية التشريعية . ومن ثم كان كل ما نشره العقاد من الصور الوصفية والتعليقات على تأليف الوفد المصري خارجا على سياسة الجريدة ، ولذا فانه لم يعد للعقاد بقاء للعمل فتركها ، وانتقل الى القاهرة ليعمل في تحرير الاهرام ، لانها هي الصحيفة الوحيدة التي أعلنت وقتذاك أنها «مصرية للمصريين» ، وسمحت للوفد بنشر بياناته وأخباره على صفحاتها ، وكانت فاتحة عصر جديد في حياة مصر والصحافة وحياة العقاد الصحفية بالذات ، وفي الوقت نفسه رجع معه المازني ليعمل بجريدة الاخبار مع أمين الرافعي (١٣٢) .

وعقب وصوله الى القاهرة من الاسكندرية اشتعلت نيران ثورة ١٩١٩ ، فكان العقاد وزميله المازني يحرران منشورات جماعة «اليد السوداء» السرية ، ويكتبان في الصحف مقالات نارية ملتهبة ، حتى تقرر نفيهما على يد وزير الداخلية «ثروت باشا» الذي استقال في هذه الفترة ، ولولا استقالته ، لحل بهما قضاء النفي والتشريد ، لان رصيدهما في الاتهامات كان وافرا بحمد الله ، اذ حامت حولهما الاتهامات في حوادث الاغتيالات التي وقعت حينذاك بدعوى ايفار الصدور واثارتها الشعور

(١٣٢) راجع اخر ساعة الصادرة في ٣٠ من أكتوبر ١٩٥٧ وراجع كذلك «يوميات العقاد» بجريدة الاخبار الصادرة في ٤ من سبتمبر ١٩٦٣ العدد ٣٤٨٥ .

العام (١٣٣) •

على أنه ابان اشتغاله بالاهرام وبعد الحرب العالمية الاولى قد جار على نفسه مرة اخرى في العمل ، فأصيب بمرض الصدر ، وسافر الى أسوان ليشفى هناك في جو جاف ، ولكن المرض لم يمنعه من أن يشترك هو وصديقه ابراهيم عبدالقادر المازني في تأليف كتاب « الديوان في الادب والنقد » ، وهو الكتاب الذي يعتبر دستوراً لمدرستهم الجديدة في مجالي الادب والنقد على نحو ما سنبينه فيما بعد •

والى هنا ترانا قد استطعنا أن نقف على مقومات العقاد الشخصية في كفاحها من أجل صناعة القلم ، لان شخصيته أصبحت فيما بعد من الشخصيات التي يعتد بأرائها في الفكر والادب ، وأصبح كاتباً يشار اليه بالبنان ••

وتمضى به الايام حتى يكمل الله جهاده بالنجاح ، وذلك بتقديمه للمحاكمة بتهمة العيب في الذات الملكية في عام ١٩٣٠ ، على اثر ما قاله في الاجتماع الخاص الذي عقد في البرلمان للنظر فيما يدبر للحياة النيابية آنذاك • وحكم على العقاد بالسجن تسعة أشهر في ٣١/١٠/١٩٣٠ ، فلتقى العقاد هذا الحكم بجنان ثابت وجأش رابط ، وابتسامة ساخرة قائلاً : « ولو » (١٣٤) •

وفي « غضون هذه الشهور التسعة التي قضاها في السجن استطاع العقاد ان يدرس « ابن الرومي » فأصدر عنه كتاباً يسمى « ابن الرومي حياته من شعره » وأصدر كتاباً آخر يدعى « عالم السدود والقيود » • ولم يقبل العقاد مساومة الملك فؤاد له، بأن يتنازل عن آرائه ويخرج من الوفد لقاء العفو عنه ، والاشراف على القسم العربي بالديوان الملكي آنذاك •

(١٣٣) العقاد في ندوته ، وراجع أيضاً : أدب المازني للدكتورة

نعمات فؤاد صفحة ٣٦ •

(١٣٤) من حديث خاص مع العقاد •

ويحدثنا الاستاذ عبد الرحمن صدقي ، وهو من المتصلين بالعقاد منذ عام ١٩١٢ أنه لازم العقاد عقب خروجه من السجن ، وتعمد هو وأصدقاء العقاد الا يفارقوه خلالها ، لانه قد انطلقت اشاعة قوية تؤكد أن ثمة مؤامرة تدبر في الظلام لاطلاق الرصاص على العقاد .

ومن ثم حضر صدقي مساومة اسماعيل صدقي للعقاد حينما أتى الى الوزارة واستقبله العقاد بمجموعة من المقالات السياسية المتتالية التي يشن فيها هجومه على الوزارة ، بالرغم من الاوامر التي كان يصدرها صدقي في كل يوم باغلاق أي جريدة أو مجلة تنال منه او من سياسته . يقول عبدالرحمن صدقي : « فكنت مع العقاد عندما أرسل اليه اسماعيل صدقي رسولا خاصا يقول له : ان رئيس الوزراء على استعداد لان يدفع له شهريا المبالغ التي فقدتها باغلاقه الصحف والمجلات التي كان يكتب فيها بشرط واحد . . هو أن يكتب عن رئيس الوزراء معترفا بميزاته في الاقتصاد ، وألا يستمر في حملته السياسية عليه . . ورفض العقاد قائلا : انني أولا أحرص على احترامي لنفسي قبل أن أحرص على احترام الناس لي (١٣٥) .

وفي اعتقادنا أنه حسبنا ما وقفنا عليه من مقومات العقاد الشخصية ، ومن ظروفه المعيشية ، وكيف كانت تمضي به الحياة من حيث تغلبه على الصعاب التي واجهته في حياته المريرة التي عاناها . ومن ثم فانه لا بد لنا في هذا المقام من الحديث عن حياته الادبية ، وكيف كان يمضي في عالم الادب والادباء ، لان الحديث عن حياته الادبية يمثل جانبا هاما من مقومات شخصيته أيضا .

* *

الفصل الثالث

مع الادباء

١ - معرفته بالكتاب :

وقد أتاح اشتغال العقاد بالصحافة فرصة اللقاء بالمهاجرين من سورية ولبنان والعراق ، وغيرها من الاقطار العثمانية ، حيث كان يجلس مع هؤلاء ومع بعض الصحفيين الذين كانوا يجلسون في « سبلند بار » أو قهوة « الشيشة » أو « القهوة الوطنية » أو قهوة « يلدز » أو قهوة « متايا » ، أو قهوات الحي الحسيني وباب الخلق والفجالة^(١) .

وذلك لان القاهرة كانت مركزا لكل الدعوات التقدمية ، ومن هنا فانك ترى خليطا عجيبا من الناس يجلس على تلك المقاهي ، فهناك ترى « شبلي شميل » الباحث في فلسفة النشوء والارتقاء ، والدكتور مهدي خان صاحب مجلة « حكمت » الايرانية الحرة ، وقد التقى به العقاد في صيف عام ١٩٠٩ حينما كتب العقاد في صحيفة « الدستور » مقالة ينمي فيها على شاه الفرس محاولته الغاء الحياة النيابية ، ووجه خطابه في مقاله الى الشاه الصغير الذي ولي العهد بعد فرار الشاه الكبير ، وقال في مفتح خطابه : « أنت في الشرق بين أمة الشعر والشعور » وحينئذ طلب الدكتور مهدي خان مقابلة العقاد ، وقابله بوساطة صديقه الشاعر علي شوقي^(٢) .

(١ ، ٢) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٥٧ ، ٢٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٧ ، وكتاب « رجال عرفتهم » صفحات ١١٦ وما بعدها ، و ١٥٨ وما بعدها و ١٦٩ وما بعدها - والعقاد في نفوسه .

كما التقى العقاد بالدكتور يعقوب صروف في عام ١٩٠٥ حينما ذهب الى دار « المقتطف » لبحث عن كتاب « الكائنات » للشاعر الباحث العراقي جميل صدقي الرهاوي ، لان مجلة المقتطف هي التي تولت طبعه في القاهرة ، لانه يبحث في « فلسفة ما وراء الطبيعة » وهو من الموضوعات التي كانت تثير الريبة في الاقطار الشرقية الى ما بعد أوائل القرن العشرين^(٣) .

ويقول العقاد في هذا الصدد : « ان لقاء الدكتور يعقوب صروف هو الغرض الاول من زيارة الدار » ، اذ كان في وسعه أن يسأل عن الكتاب بمخزن المطبوعات هناك ، وكان في وسع عامل المخزن أن يتولى اخراج الاذن ببيعه من رئيسه في ادارة « المقطم » أو ادارة « المقتطف » . ولا يذكر العقاد أن حديثه مع الدكتور صروف دار حول فلسفة ما وراء الطبيعة ، التي أعلن الدكتور صروف للعقاد أنه لا يهضم تلك الفلسفة بالرغم من حصوله على لقب دكتور في الفلسفة^(٤) .

وفي هذه القهوات التقى بأحمد رضا رئيس « مجلس » المبعوثان ، الذي صنع انقلاب مصر الفتاة فيما بعد ، ورضا توفيق التركي ، ونجيب شاهين محرر المقتطف ، وابراهيم الورداني ، والشايخ رشيد رضا ، ومصطفى الصغير الداعية الاسلامي الهندي ، الذي جازت حيلته في مصر واعتقله الكماليون في الاستانة ، فحكموا عليه بالاعدام ، ونفذوا الحكم على الرغم من احتجاج الدولة البريطانية^(٥) .

وفي هذه القهوات التقى كذلك بأناس من الادباء الذين لا يشتغلون بالصحافة الا اذا كتبوا اليها ، ومنهم كانت صفوة صحب العقاد وزملائه على قلة ترددهم وتردده على القهوة « سبلند بار » لغير موعد أو مصادفة

(٣ ، ٤ ، ٥) راجع اخر ساعة الصادرة في ٢٨ من اغسطس سنة ١٩٥٧ ، ٢٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٧ ، وكتاب « رجال عرفتهم » صفحات ١١٦ وما بعدها ، و١٥٨ وما بعدها و١٦٩ وما بعدها - والعقاد في ندوته .

وهؤلاء الادباء هم محمد حافظ ابراهيم وامام العبد ومحمود عماد ،
وعلي شوقي^(٦) .

وفي فهوة « متايا » التقى العقاد بالكاتب محمد توفيق دياب أثناء
اجازته من جامعة لندن ، حيث كان يدرس فيها الاقتصاد السياسي ، وفي
التقائه بالعقاد كان حديث العقاد يتسم بالضيق والملل من شباب مصر ، اذ
يتهمهم العقاد بأنهم يفقدون القدرة على الاعجاب ، ومن هنا فانهم لا
يفهمون أن في الانسانية نوعا من السمو ، أو أن هناك قيمة انسانية يطمح
اليها الشاب منهم ، ومن ثم خلدوا الى اللهو والعبث ، وانصرفوا عن
الاعمال العظيمة . فطمأنه توفيق دياب على شباب مصر ، لانه سعيد بهم
ومتفائل لهم ، ولا سيما أن فيهم عباسا العقاد وأمثاله من الشباب الذين
يعجب بهم^(٧) .

بالإضافة الى ذلك فقد التقى جرجي زيدان في إحدى مكبات حي
« الفجالة » حينما ذهب ليسأل عن كتاب باللغة العربية في فلسفة الجمال ،
لانه كان قد تصفح فصول الاديب الخطيب « آدمون بيرك » استاذ
« هازلت » عن الجليل والجميل فخطر له أن مثل هذا البحث لا بد أن
يكون مطروقا باللغة العربية ، وحينئذ قال له جرجي زيدان ، وكان
يجلس مع الكاتب أبو بكر لطفى المنفلوطي شقيق مصطفى لطفى
المنفلوطي : « ما أظن كتابا في هذا الموضوع قد ألف باللغة العربية » .
وبعد ذلك توطدت صلته العلمية به ، فكثيرا ما كان يناقشه في مقابلاته
في فلسفة التفاؤل والتشاؤم^(٨) .

وبجانب ذلك أتاحت له الصحافة والعمل بها فرصة التعرف على
ابراهيم عبدالقادر المازني ، ولم تكن المعرفة بين العقاد والمازني شخصية
في بادىء الامر ، ولكنها كانت تتمثل في معرفة قارىء هو المازني ، لكاتب

(٦) راجع : عباس العقاد ناقدا وللمؤلف صفحة ٩٦ .

(٧) من حديث خاص مع كل من العقاد ومحمد توفيق دياب .

(٨) رجال عرفتهم من ١٩٢ وما بعدها .

بصحيفة الدستور هو العقاد ، حتى انه كان يعنى أشد العناية بالمقالات التي تعالج موضوعا واحدا مثل المقالات الست التي كتبها العقاد عن الشعر الفارسي ، تحت عنوان : « فارس شعرها وشعراؤها » وكذلك مقالاته عن الشعراء العرب القدامى من أمثال « ابن الرومي ، والمعري ، وأبي تمام وغيرهم » (٩) .

ثم انتقلت المعرفة بين كل من العقاد والمازني الى طور آخر هو طور المعرفة بالشكل ، لان جريدة «الدستور» كان مقرها في « درب الجماميز » وعلى مقربة من المدرسة الخديوية التي كان المازني يتردد عليها لزيارة زملائه ، ومن هنا كان يعرج على جريدة « الدستور » ليسدد الاشتراك ، وحينئذ كان يلقي العقاد فيسلم عليه ، وبعد ذلك توطدت العلاقة بينهما وأصبح العقاد يصطحب المازني معه في الذهاب الى « سبلند بار » ومكتبة مجلة « البيان » التي كان يصدرها الشيخ عبدالرحمن البرقوقي (١٠) .

وقد كان العقاد يلتقي في هذه المكتبة بنخبة من الاساتذة منهم محمد السباعي ومحمد حسين هيكل ، والصادق حسين ، وعباس حافظ ، وطه حسين وغيرهم ، ويمكنون في المكتبة وقتا غير قصير حتى يحين موعد اغلاقها ، وكانت جلستهم في هذه المكتبة - كما يقول العقاد - أشبه بجلسات التلاميذ ، حيث يتحدث كل اثنين أو ثلاثة في موضوع ، ولم يكن هناك دراسة لموضوع موحد بحيث يستمع اليها جميع الجالسين في المكتبة . وفي هذه الاثناء كان العقاد يكتب في مجلة « البيان » عن نيشة وماكس نوردو ، ويكتب المازني عن ابن الرومي (١١) .

ويتضح من هذا أن العقاد كان يلتقي بالمازني لقاءات متكررة في كل اسبوع سواء أكانت هذه اللقاءات تتم في مكتبة « البيان » أو في « سبلند بار » أو في غيرهما ، ثم وطد الجوار صداقتهما عندما سكنا معا

(٩) العقاد في نلوته .

(١٠) من حديث شخصي مع العقاد .

(١١) ١٢ من حديث شخصي مع العقاد .

في بيت واحد في حي الامام الشافعي اولا ، ثم في حي السكاكيني^(١٢) .
وفي تصورنا أن صداقة العقاد للمازني على هذا النحو وسكنهما معا في
حي الامام الشافعي والسكاكيني، تذكرنا بصداقة (وردزورث) ل(كولردج)
وما كان لصداقتهما هذه من أثر في الادب الانكليزي^(١٣) .

ومهما يكن من أمر ، فان صداقة العقاد للمازني متوسطة منذ ذلك
الحين ، بحيث كانا لا يفترقان الا عند النوم ، ولا أدل على ذلك من أن
السياسة ودواعيها واختلاف منهج كل منهما فيها ، لم تكن باعثا لاجداث
الفرقة بينهما ، اذ كان العقاد يمجّد سعادا في صبيحة كل يوم بمقالة ،
والمازني لا يؤمن بسعد ولا بالوفد معا ، ومن ثم فانه يسلب سعادا كل ما
أضفاه عليه العقاد من عبقرية وذكاء ، وما أهاله عليه من صفات وشيم ،
كان المازني يسلب سعادا كل هذا بمقالة كذلك ، ومع هذا فقد كان العقاد
والمازني يقضيان الليل في السمر حيناً والقراءة أحيانا^(١٤) .

وحسب القارىء معرفة لابعاد هذه الصداقة أن يستمع الى ما قاله
العقاد في هذا الصدد : « لقد قيل أن الصديق نفس ثانية في جسم آخر ،
وما هي بكلمة صادقة ان لم تصدق على صداقة سبع وثلاثين سنة أو تزيد
•• تعاقبت فيها الحوادث بفتنتها وأهوالها ففرقت بين الوالد وولده ، وبين
الاخ وأخيه ، وبين الزميل وزميله ، ووقفت دون تلك الأصرة السماوية
لا تبلغ اليها بضربة من ضرباتها ، ولا تسعى اليها بنفثة من نفثاتها ، ولا
تمسها الا لتزيدها قوة على قوة ، ومناعة على مناعة ، ثم تركها نفسا
واحدة تفرق بالرأي فلتقي بالشعور ، وتفرق بالشعور فلتقي في صلة
من صلات الروح ، تجمع البديهة على البديهة ، والخيال على الخيال ،

(١٢) من حديث شخصي مع العقاد ••

(١٣) راجع *Wordsworth Poetry and Prose, Introduction.*

By D.N. Smith, P. 4.

(١٤) العقاد في ندوته ، وراجع : أدب المازني للدكتورة نعمات

فؤاد ص ٧٠ وما بعدها .

والمعنى على المعنى شاخصة ماثلة مذكورة حيثما تقلبت صفحة من كتاب
أو ترددت عبارة من مقال^(١٥) .

وقد ظلت معرفته بالمازني وبهؤلاء المهاجرين من البلاد الافريقية
والاسيوية مستمرة بالرغم من انقطاع العقاد عن الاشتغال بالصحافة زمنا
ما ، نظرا لاحتجاب صحيفة الدستور .

وقد التقى العقاد أيضا بلفيف من الادباء والشعراء من شيوخ الادب
وشبانه في ديوان الاوقاف حيث كان يعمل به كما عرفنا سابقا ، ومن بين
هؤلاء الادباء والشعراء محمد المويلحي ، وعبدالعزیز البشري ، وعبد
الحليم المصري ، وأحمد الكاشف ، وحسين الجمل ، وحسن المدرس ،
وأمين الدولة ، ومحمد فكري ، كما التقى كذلك بمحمود عماد وعلي
شوقي^(١٦) .

وفي خلال عمله بديوان الاوقاف تعرف بعبدالرحمن شكري
بوساطة المازني الذي كان زميلا وصديقا لشكري في مدرسة المعلمين
العليا ، اذ تخرجا في عام ١٩٠٩ ، وكانت الصداقة بينهما وطيدة طيلة
أيام الدراسة . وحينما وقع الاختيار على شكري للسفر الى انكلترا لتفوقه
في بعثة الى جامعة « شيفيلد » ومكث هناك ثلاث سنوات منذ عام ١٩٠٩
الى ١٩١٢ ، كانت رسائل المازني لا تنقطع عنه ، ولا يفتأ يحدثه فيها عن
العقاد الذي تعرف عليه المازني ، حتى أرسل شكري للعقاد رسالة من
انكلترا دون سابق معرفة ، وهكذا تعارفا قبل أن يلتقيا . ثم قام المازني
بعد ذلك بتعريف كل منهما بالآخر بعد رجوع شكري واتصلت المعرفة
بين ثلاثتهم منذ ذلك الحين ، وصاروا فيما بعد ينشرون رسائلهم النقدية
التي كانت تبشر باتجاههم الادبي الجديد في صحيفة « عكاظ » وغيرها
من الصحف المعنية بالادب^(١٧) .

(١٥) بعد الاعاصير ص ١٣٤ .

(١٦) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٩ من اكتوبر سنة ١٩٥٧ ،

و « رجال عرفتهم » للعقاد ص ٧٩ وما بعدها .

(١٧) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٠٥ .

على أن العقاد قدم الجزء الثاني من ديوان شكري بعد شهر من معرفته به في عام ١٩١٣ ، وفي هذه المقدمة وصف العقاد شعر شكري بأنه « ينسبط انبساط البحر في عمق وسعة وسكون » ، ويقول فيها أيضا : « فإذا تلقى قراء العربية اليوم هذا الجزء الثاني من ديوان شكري ، فانما يتلقون صفحات جمعت من الشعر أفانين ، قد سمح بها قلم سخي وقريحة خصبة » (١٨) .

وبالإضافة الى ذلك عد شعر شكري بمثابة تهيبء المكان لاستقبال المذهب الجديد ، وأعلن انهم اليوم غيرهم بالامس ، لانه قد تبوأ منابر الادب فتيه لا عهد لهم بالجيل الماضي ، نقلتهم التربية والمطالعة أجيالا بعد جيلهم (١٩) .

ومعنى هذا أن معرفة هؤلاء الشعراء كانت في ميدان الكتابة أولا ، ودامت معرفتهم سنين طويلا .

وليس أدل على ذلك من قول العقاد في هذا الصدد : « فمن عجب التوفيق أن يكون شكري في الاسكندرية ، وأن يكون المازني في القاهرة ، وأن أكون أنا في أسوان ، ثم نلتقي على قدر ، وعلى اتفاق فيما قرأناه ، وفيما يجب أن نقرأه مع اختلاف في حواشي الموضوعات من غير اختلاف في جوهرها » (٢٠) .

على أن هذا الحشد الهائل من الادباء الذين تعرف عليهم العقاد ، لم يكونوا مثلا عالية يحتذيها العقاد في شبابه الادبي ، لان أكثرهم لم يعرف للادب قيمته ولا ماهيته ، ولكنه يحترف الادب كأني مهنة يحترفها الانسان للارتزاق ، ومن هنا يصعب على الباحث أن يجسد في أشعارهم واتاجهم قيما انسانية عالية ، وليس لهم في اتاجهم سوى الصنعة التي تبدو في الصقل والمهارة الناتجين عن الدربة والمران .

(١٨ ، ١٩) عباس العقاد : مطالعات في الكتب والحياة صفحات

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٠ .

(٢٠) العقاد في رثائه للمازني بمجلة المجمع اللغوي الجزء السابع .

ومن ثم نراهم يشتجرون حول لا شيء ، اذا قسنا معاركهم بمقياس
النافذ الحديث الذي ينتظر من المعارك أن تدور حول قضايا أدبية أو
فكرية من شأنها أن تكون مرتبطة أشد الارتباط بالمجتمع ، بحيث تعمل
على تقدمه ورفعته . وتأسيسا على هذا الفهم نستطيع أن نقول أن معاركهم ،
بل ان شئت فقل أن مؤامراتهم كانت تتبع من القصور من قصر الخلافة
بتركيا ، ومن قصر عابدين حيث الخديو ، ومن قصر الدوبارة حيث
المعتمد البريطاني الذي كان يلقب آنذاك بقيصر قصر الدوبارة ، واليه
يوجه حافظ ابراهيم قصيدته حين يقول :

قصر الدوبارة هل أذاك حديثنا فالشرق ريع له وضج المغرب
وعنه يتحدث حين قال :

وما دام في قصر الدوبارة ربه فسعد ودنلوب لعمرك واحد
والدارس لاتجاهات هذا الجيل الادبية لابد أن يفتش اذن عن
القصر - كما يقول العقاد - أو عند قضية الخلافة ، وذلك ليفهم حقيقة
لاغنى عنها في تقدير تلك الاتجاهات الادبية في الجيل الماضي ، وتقدير
أسباب التجمع والتفرق بين حملة الاقلام في كل اتجاه منها . وبغير هذا
الشعار يتعذر عليه كل التعذر أن يدرك الاسباب الكامنة وراء تكوين تلك
الاتجاهات من مجرد العلم بآثارها المكتوبة وتراجمها المعروفة^(٢١) .

فالسultan العثماني كان يتهم الخديويين بالسعي الى تحويل الخلافة
من الترك الى البلاد العربية ، وكان الخديويون في الوقت نفسه يحذرون
من سلطان الخليفة ، لانه السلطان الذي كان من حقوقه أن يخلع أمير
مصر أو يبدل نظام الوراثة ، أو يساوم الدول الاوربية على حساب
الخديوية المصرية ، كلما كانت له في ذلك مصلحة من مصالح السياسة
الدولية^(٢٢) .

وقد كان طموح أحمد فؤاد الى الخلافة واعتقاده أنها توطد مكانته
عند الدولة البريطانية لتستعين به على حكم الامبراطورية الهندية^(٢٣) .

(٢١ ، ٢٢ ، ٢٣) عباس العقاد : رجال عرفتهم ص ١٠٨-١٠٩

وكانت هناك مؤامرات النزاع بين قصر عابدين مقر الخديو ، وقصر
الدوبارة مقر المعتد البريطاني ، كما أشرنا الى ذلك قبلا . وكان لكل
قصر حاشيته من الادباء والمفكرين . وليس أدل على علاقة القصور
بمدارس الشعر ما ظهر في منظومات أناس بلغ من قحة أحدهم - كما
يقول العقاد - أن يسمي قصائده بالكروميات معارضا بها «الشوقيات» (٢٤) .
ويرى العقاد أنه لولا الحركة الوطنية ، لكان مجال المؤامرات
القلمية بين قصر عابدين وقصر الدوبارة أوسع من كل مجال آخر بلا
استثناء ، اذ كان ظهور هذه الحركة سببا في تحويل أصحاب الاقلام الى
معركتها الصريحة في الصحف وعلى منابر الخطابة (٢٥) .

وباتهاء العلاقة بين مصر والدولة العثمانية ، انتهت هذه الطائفة من
الادباء الذين كانوا يضعون قدما في هذا البلاط أو ذاك ، وقدما أخرى في
بلاط صاحبة الجلالة على حد تعبير العقاد (٢٦) .

ويتساءل الباحث في هذا المقام سؤالا هو ألزم سؤال ، اذا كان
الجيل السابق للعقاد على هذه الحالة ، واذا كانت علاقته بقضايا الامة على
النحو الذي أشرنا اليه ، واذا كانت المؤامرات القلمية حقيقة واقعة . .
اذا كان هذا كله كما رأينا . . فمن من الشعراء أو الكتاب نعتبره مثلا
عاليا لشاب طموح هو العقاد .

ومن هنا ندرك أن تعرف العقاد على هؤلاء الشعراء والكتاب ، كان
من باب الوقوف على الحقيقة فيما يتصل بوجودان هذه الامة وفكرها
وقضاياها .

وندرك أيضا لماذا وقف العقاد مع الجيل الجديد من الكتاب
والشعراء الذين نشأوا في الهواء الطلق على حد تعبيره ، والذين نشأوا
في صف المعسكر الجديد وهو معسكر الامة .

ونخلص من هذا كله الى أن العقاد استطاع أن يستصفي من كتاب
الجيل الجديد شابين على جانب كبير من الثقافة والتفتح ويكون معهما

(٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦) المرجع السابق ص ١١١ ، ١١٢ .

مدرسته الادبية والفكرية التي تعرضت ابان نشأتها للتشهير والتنديد في الصحف الاسيوية التي تخصصت للمهجاء الاجتماعي والمناورات الادبية والسياسية .

ويقول العقاد في هذا الصدد : « ان هذه الصحف كانت تقصد بحملاتها من يبدلون المال في سبيل اتقائها ، ولا يعنيهها أمر أمثالنا من الناشئين الفقراء ، الا أن يكون مصدر الحملة من ورائها ، لا من بين يديها » (٢٧) .

ويفسر العقاد مصدر هذه الحملات بأنه القصر بسراديبه وحواشيه ، الذي يستعين على ذلك بسلاح السلطان ، ويمالئها بسلاح الدرهم والدينار (٢٨) .

٢ - مدرسة الجيل الجديد :

عرفنا فيما سبق أن العقاد كون مع زميلين له (٢٩) مدرسة أدبية فكرية ، وأن المعرفة بين الثلاثة كانت في ميدان الفكر والادب وانهم صاروا ينشرون رسائلهم النقدية فيما بعد ، تلك الرسائل التي كانت تبشر باتجاههم الادبي الجديد في صحيفة « عكاظ » وغيرها .

وقد نشأ اتجاه هؤلاء الشبان ابان شيوع الشعر التقليدي وسيطرته على الحياة متأثرا باهتماماتها المختلفة ، ومرتبطا في الوقت نفسه بالطبقة العالية من المجتمع غير حافل بالسواد الاعظم منه (٣٠) .

وقد انساق شعراء التقليد في هذا التيار الذي يعبرون فيه عن غيرهم ، وينسون وجداناتهم ومشاعرهم الخاصة ، حتى غدت رسالة الشاعر تعادل رسالة الموظف في مفهوم كبار الشعراء . وليس أدل على ذلك من أن شوقي لم يكن موظفا في القصر الا لانه كان شاعرا ، وأصبح الشعراء ينفسون عليه هذه المكانة لدى الخديو ، وحاولوا أن يستلبوه هذه الوظيفة ، وحاول كثير من الشعراء الذين لم ينالوا حظا من الشهرة ، أن

(٢٧ ، ٢٨) عباس العقاد : رجال عرفتهم ص ١١٤ .

(٢٩) هما ابراهيم عبدالقادر المازني ، وعبدالرحمن شكري .

(٣٠) راجع : عباس العقاد ناقدا : للمؤلف ص ١١٣ .

يقلدوا الشعراء الموظفين باعتبارهم المثل الاعلى (٣١) .

في هذا الجو الخانق لفردية الشاعر وحرية ونسيانه ذاته ومشاعره ووجداناته برز هؤلاء الشعراء الثلاثة من الشبان ، لانهم ضاقوا ذرعاً بالحياة الادبية والفكرية في مصر ، فاتجهت أنظارهم صوب التراث العالمي من فكر وحضارة وأدب ، يعبون منها بنهم شديد ، لترتوي نفوسهم الظمأى من ذلك التراث ، وفي الوقت نفسه قاموا بدراسة التيارات الفكرية والادبية المعاصرة في العالم (٣٢) . وخرج هؤلاء الشبان من ذلك كله بثورة عاتية ، ولوعة مضيئة في نفوسهم ، حينما قارنوا بين تلك التيارات في العالم وبين الحالة الادبية في مصر ، فهالهم الامر بادية ذي بدء ، لان مصر كانت متخلفة عن الركب الحضاري والفكري والادبي العالمي ، واشتدت هذه الثورة عتوا ، وتلك اللوعة أضناء حينما وجدوا أن منابر الادب في مصر يتبوأها شعراء مقلدون (٣٣) ، بينما يحس هؤلاء الناثرون بما في نفوسهم من امكانيات أدبية ضخمة ، ويرون نفوسهم ظلالة حائرة تضع في الزحام والضجيج ، ومن ناحية أخرى فان بريق المجد الادبي ليخلب أبصارهم ، والبحث عن المثل الاعلى يضني نفوسهم الرقيقة الحساسة الثائرة (٣٤) .

ومن هذا الصراع الناشب بين طموح هذا النفر من الشعراء وأحلامهم ، وبين واقعهم المرير الذي يعيشونه في ذلك الوقت - وهم من الطبقة الكادحة - اندفعوا يحطمون بمعاولهم كل عقبة كأداء تصادفهم ، وأنكروا أصنام الادب وعملهم ، وطلبوا عملاً أصح منه وأوفى ، وأحدثوا في الحياة الادبية دوياً هائلاً ، في جراءة منقطعة النظير ، ويحمل هذا الدوي الهائل في طياته تياراً جديداً في مطلع هذا القرن العشرين (٣٥) .

(٣١ ، ٣٢) راجع : عباس العقاد ناقداً للمؤلف ص ١١٣

(٣٣) راجع : العقاد يتحدث عن النقد والنقاد ، لعبدالحى دياب في

مجلة « المجلة » الصادرة في أبريل ١٩٦٢ .

(٣٤ ، ٣٥) راجع : عباس العقاد ناقداً ص ١١٤

والمتابع لهذا التيار الجديد يجده متجليا في دراسات هؤلاء الشبان النقدية التي كانوا ينشرونها في صحيفة «عكاظ» وغيرها من الصحف الاسبوعية التي يهدفون من ورائها الى ارساء مدرستهم بنقد الاخرين ، أو بتقديم أعمال بعضهم ، كما حدث في تقديم العقاد لديوان شكري والمازني ، أو بنقد أعمال بعضهم ومقارنتها بغيرها من الاعمال واظهار البون الشاسع بين اتجاههم الادبي الجديد ، وبين الاتجاه السائد ، وذلك كما حدث في موازنة المازني بين شعر شكري وحافظ في صحيفة «عكاظ» التي ابتدأت في ٢٧ من يولييه عام ١٩١٣ بسلسلة من المقالات ذهب في المقالة الاولى منها الى أنه لا يجد أبلغ في اظهار فضل شكري والدلالة عليه ، وبيان ما للمذهب الجديد على القديم من المزية والحسن من الموازنة بين شاعر مطبوع مثل شكري ، وآخر ممن ينظمون الشعر بالصنعة مثل حافظ ، فان الله لم يخلق اثنين هما أشد تناقضا في المذهب وتباينا في المنزع من هذين ، والصد كما قيل يظهر حسنه الضد (٣٦) .

ثم يخلص من هذا كله الى أن حافظا « اذا قيس الى شكري لكان كالبركة الآجلة الى جانب البحر العميق الزاخر ، وحسب القارىء أن يتأمل ديوانيهما ليعلم ما بينهما من البعد ، وليعرف كيف يقعد الخيال بحافظ ، ويسمو بشكري في سماء الفكر ، وكف يجنى التقليد على رجل ، ويفلق في وجهه أبواب التصرف والتفنن ، فان حافظا قد حذا في شعره حذو العرب ، وقلدهم في أغراضهم وفرط عنايتهم باصلاح اللفظ وان فسد المعنى » (٣٧) .

والدارس لنشأة هذه المدرسة يجد أن العقاد قد ساند المازني بتحطيم حافظ من وجهة نظره ، وذلك في مقالتين تحت عنوان « الشعراء الندابون » نشرتا في « عكاظ » كذلك . ووصفه في مقاله الاولى بأنه شاعر نداب وقف شعره على الندب والولولة والعويل ، مدعيا أن للشعراء الندابين

(٣٦ ، ٣٧) راجع : « عكاظ » الصادرة في ٢٧ يولييه سنة ١٩١٣

العدد ٣ .

سعرهم وللعصر شعره ، وعليهم أن يقرؤا في قبورهم ويتزملوا بأكفانهم ،
حتى اذا انهدم جدار ، أو اصطدم قطار أو وقع طيار ، هنالك يثوب
الداعي بهم (٣٨) .

ثم يختم حديثه في هذا الصدد بقوله : « فانبعثوا وقولوا ما شئتم ،
ولكن لا تفاجئونا يرحمكم الله ويطيب ثراكم » (٣٩) .

على أن العقاد قد سماه في المقالة الثانية أبا جهل ، وانه مغلق الذهن
ثم وازن بينه وبين أحمد شوقي في رثائه للطيار العثماني فتحي « بك ،
مفضلا شوقي عليه في ذلك الرثاء ، لان الحقيقة وحدها قد حركت خيال
شوقي ، في الوقت الذي لم يتحرك خيال حافظ فيه الا بمنخاس الغلو
الفاحش والمبالغة المستحيلة ، ثم يقول : « وأحرر بمثل أبي جهل ألا
يتيقظ خياله الا على دوى المدافع ، وقصف الرعود » (٤٠) .

والذي يتضح مما تقدم أن دعاة هذه المدرسة لم يدخروا وسعا في
سبيل ارساء اتجاههم الادبي الجديد الذي اتضحت معالمه فيما بعد ، فيما
سميناه بمدرسة الجيل الجديد ، وانهم كذلك قد استخدموا من الاساليب
أفطعها ، وذلك ليزلزلوا مكانة الشعراء الذين جمدوا على التقليد
لا يريمون مكانهم ، ولا يبغون عنه حولا ، ومن هنا لم يكن في وسع
هؤلاء ، الا أن يستخدموا مع المقلدين العنف في الاسلوب مشوبا بالسخرية
والتهكم ، وذلك لانهم كانوا في حالة من اليأس ، ونقطة التحول الفكري
الذي أدى الى محضة العقل والسريرة ، وذلك قبيل الحرب العالمية
الاولى (٤١) .

ويرى الدارس أن العنف في الاسلوب اذن سمة من السمات التي
تدل على الثورة الكامنة في نفوس هؤلاء الشبان ، تلك الثورة التي ابتعثها

• (٣٨ ، ٣٩) راجع : «عكاظ» الصادرة في ٩ من مارس سنة ١٩١٤ .

• (٤٠) المرجع السابق في ٢٣ من مارس سنة ١٩١٤ .

• (٤١) عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص ١١٥ .

دواعي القلق من جراء الانطلاق الفكري والادبي الذي يشيع في وجداناتهم وعقولهم (٤٢) .

ويقول العقاد في وصف هذه الفترة وما اتسمت به ، وبين أثرها في نفسه وأنفس صديقيه : « وأخال انها شملتنا جميعا بمحنة العقل الاليمة فنفضها شكري عنه بقصائده العابسة في ديوانه الثالث والرابع ، ونفضتها عني بقصيدتي التي نظمتهما على نمط الملاحم ، وسميتها بترجمة شيطان ، وراضها المازني كما راضته فاستراح اليها غاية ما استطاع من راحته ، وعالجها يومئذ - ولم يزل يعالجها بعد ذلك - بنزعة الاستخفاف وقلة الاكتران ، (٤٣) . »

ومعنى هذا أن هؤلاء الشعراء ، وان اتفقت نشأتهم في أسرهم الى حد ما بوصفهم من الطبقة الوسطى وتقاربت أعمارهم الى حد ما أيضا (٤٤) ، واتفقت كذلك معرفتهم ومناجى الثقافة التي رقدتهم . . ان اتفقوا في هذه الامور كل الاتفاق أو بعضه ، فان هذه الفترة - كما يقول العقاد - كان لها أثر كبير في اختلاف طبائعهم وأمزجتهم الى حد ما .

وليس أدل على ذلك من أننا بينما نجد العقاد في طبعه حدة وصلابة ، وقوة وعنف ، وعدم مبالاة بالجمهور ، نجد ان شكري منطو على نفسه ، في خلقه لين ورقة وانزواء . أما المازني فيتفق مع العقاد في عدم المبالاة بالجمهور ولكن من طريق آخر هو طريق الدهاء والمكر والسياسة التي جعلته أحيانا لا يعترف بشاعريته ، ويقول دائما لشائثيه حسبى من الادب ما كتبه من المقالات .

والدارس لموقف هذه المدرسة من القدماء واختلاف دعائها فيما بينهم من حيث الطبائع والامزجة ونظرتهم للحياة ، يرى انه يشتهه الى حد ما

(٤٢) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص ١١٥ .

(٤٣) عباس العقاد : بعد الاعاصير ص ١٤٥ .

(٤٤) ولد عبدالرحمن شكري في ١٢ من اكتوبر عام ١٨٨٦ ،

والعقاد في ٢٨ من يونيه سنة ١٨٨٩ ، والمازني في ١٩ من أغسطس سنة

١٨٩٠ .

بموقف شعراء مدرسة البحيرة في الادب الانجليزي - س.ت. كوليردج
 S.T. Coleridge ووليام ورد زورث W. Wordsworth وروبرت براوننج
 Robert Browning وموقفهم ممن سبقهم أو عاصرهم من الشعراء ،
 أو النقاد ، وان اختلف كل منهم عن الاخر في بعض الاتجاهات في شعرهم ،
 فصداقتهم كانت تقوم على التحالف والتضاد . التحالف في أنهم يتفقون
 على الاصول الرئيسية في الشعر ، وأما التضاد فانه يوجد في تقسيم الشعر
 فيما بينهم ، لان « ورد زورث » أفاض ضوءاً على الحياة الحقيقية على
 الاشياء العادية والناس ، كما ان « كوليردج » قد اتخذ غير الطبيعي
 والاحساس الغريب ميداناً له ، وكانت فكرته تتمثل في أن يبلور الاهتمام
 البشري بالموضوعات الخيالية . أما « براوننج » فاتخذ لنفسه اسلوباً
 مستقلاً ، فاسمى الفاظه بغيرابة الوقع في الاذن ، وقوافيه بجريانها على غير
 المؤلف ، وجعله بالاقتراب والتقطع ، واصطبغت أشعاره بصبغة واقعية ،
 غير انها كانت تعد لازمة من لوازمه الشخصية (٤٥) .

على أن اقسام شعراء البحيرة ميدان الشعر فيما بينهم لا يعنى أنهم لم
 يستفيدوا بعضهم من بعض ، ذلك لانهم كانوا يبحثون المبادئ النقدية
 والانتاج الذهني ، ويحاول كل منهم أن يخلق من أخيه شاعراً صادقاً في
 تعبيره ، وفي الوقت نفسه يصدر شعره عن شحذ لافكاره (٤٦) .

وعلى أية حال فاننا نقول أنه بالرغم مما بين مدرسة الجيل الجديد
 ومدرسة شعراء البحيرة من أوجه الشبه بالنسبة لموقفهم من القدماء ،
 وموقف بعضهم من بعض ، فاننا نرى ان ما أحدثته فترة التحول الفكري
 والادبي في نفوسهم كان سبباً في اختلاف طبائعهم وتباين أمزجتهم ، وكان

A Short History of English Literature. By: (٤٦ ، ٤٥) راجع

Emile Legouis P. 281 etc.

Wordsworth Poetry and Prose Introduction By: وكذا :

D.N. Smith, P. 4.

وكذلك : موجز تاريخ الادب الانكليزي لاميل لوغويز : ترجمة

الدكتورين شوقي السكري وعبدالله عبدالحافظ ص ٨١ .

له أثر بعيد المدى في علاقاتهم بعضهم البعض ، ومن هنا يسوغ لنا ان نرجع أسباب الجفوة التي حدثت بين المازني وشكري الى طبيعة مزاج كل منهما (٤٧) .

٣ - خصومة المازني وشكري :

ولقد شاء القدر لهذه المدرسة أن تتصدع العلاقة بين أفرادها ، بحيث نرى الخصومة تدب بين المازني وشكري ، ويقف العقاد بينهما حائرا لا يدرى ماذا يصنع ، ولا من أين يكون منفرج الطريق .

وقد نشبت تلك الخصومة من اختلاف طبائعهما وتباين أمزجتهما كما أشرنا الى ذلك ، اذ أن طبيعة شكري قد سولت له أن يبدى سرقات المازني من الادب الانجليزي ، لانه رجل متقزز الاعصاب متوفزها ، يقيمه النقد ويقعده مهما كان مصدره ، لانه يخشى أن يكون النقد مبررا لمروجي الشائعات والتهم الذين كانوا يناصبونه ودعاة المذهب الجديد العداء .

والدارس لهذه المدرسة يرى أن شكري قد استفز المازني اولا ، لانه لم يقتصر على النقد ، بل كثيرا ما غمزه ، ولم يستنكف أن يصيبه في رزقه ، اذ نبه الى مقالات كتبها المازني بامضاء مستعار ضد نواظر المعارف آنذاك (حشمت باشا) حين كان المازني يعمل مدرسا بالوزارة ، ولم ننج المازني من هذا التشهير الذي أتى من مأمته (٤٨) .

وقد أكد لنا الاستاذ على أدهم - تلميذ شكري - أن شكري في تنبيهه على سرقات المازني لم يكن مخلصا كما يدعى حينما يزعم انه لا يتأثر من رؤية العفريت ، كما يتأثر من رؤية هذه السرقات ، لان الاستاذ أدهم قد حدثه عن قصيدة « فتى في سباق الموت » للشاعر « هود » التي سرقها المازني ، فأغضى عن تنبيه أدهم له ، لان المازني في ذلك الوقت كان يكتب عن شكري في عامي ١٩١٣ ، ١٩١٤ في صحيفة «عكاظ» ويجعله محور التجديد ، والمبشر بالمذهب الادبي الجديد ، فلما وقع الخلاف بينه

(٤٧) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٤٨) راجع : أدب المازني للدكتورة نعمات فؤاد ص ٧٧ وما بعدها .

وبين المازني ، ذكر له هذه السرقات ، ولم تكن من باب المفاجأة كما يدعي
في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه (٤٩) .

وبعد أن يعدد شكرى في هذه المقدمة ما ظن أن المازني قد سرقه ،
ينتهي الى قوله : « ولا أظن أحدا يجهل مدحى المازني ، وايتارى اياه ،
واهدائي الجزء الثالث من ديوانى اليه ، وصداقتى له ، ولكن كل هذا
لا يمنع من اظهار ما أظهرت ومعاتبته في عمله ، لان الشاعر مأخوذ الى
الابد بكل ما صنع في ماضيه ، حتى يداوى ما فعل ، ويرد كل شيء الى
أصله ، وليس الاطلاع قاصرا على رجل دون رجل حتى يأمل المرء عدم
ظهور هذه الاشياء ، ولسنا في قرية من النمل حتى تخفى (٥٠) .

والذى يتضح مما سبق أن حديث شكرى عن مدحه للمازني
واهدائه للجزء الثالث من ديوانه اليه ما هو الا دليل واضح على سوء نيته
تجاه المازني ، مهما يسرف تلميذ شكرى (٥١) في تبرير نقد استاذ
للمازني ، بأنه لم يكن الا ردا على انتقاص المازني من شعر استاذ
شكرى ، ونسبة بعضه الى شعراء الغرب .

نقول ذلك ولا نصدق تبرير تلميذ شكرى لسبب واحد يشتمل على
جميع الاسباب التى تؤيد وجهة نظرنا ، ويتمثل ذلك السبب في أن
المازني كان يعتبر شعر شكرى مبشرا بالمذهب الادبى الجديد ، وقد نشر
سلسلة من المقالات في جريدة « عكاظ » عقد فيها موازنة بين شاعرية
شكرى وحافظ ، ذهب في هذه الموازنة الى أن حافظا اذا قيس الى شكرى
لكان كالبركة الآجئة الى جانب البحر العميق الزاخر ، وذلك في عامي ١٩١٣ ،
١٩١٤ ، ومن ثم لم يكن من المعقول أن يتغير رأى المازني في شاعرية
شكرى الى هذا الحد ، ولا سيما أن ما نقل عن المازني من انتقاص لشعر

(٤٩) من حديث خاص مع الاستاذ علي أدهم في ٤ من يولييه سنة
١٩٦٣ في بيته .

(٥٠ ، ٥١) عبدالرحمن شكرى في مقدمة الجزء الخامس من ديوانه
ص ٣٧٣ وما بعدها ط ١٩٦٠ .

شكري لم ينشر منه شيء ، بل ان المازني نفى أنه رمى شعر شكري
بالسرقة ، ووصف عمله هذا بأنه عنت ظاهر يرينا مبلغ فهمه وعدله (٥٢) .
وماذا ينتظر القارئ من المازني أزاء النقد الجارح والاستفزاز القائم
على سوء نية زميله وصديقه شكري ؟ أيقف مكتوف اليدين ؟ أم ماذا
يصنع ؟ .

وهنا نجيب على هذا التساؤل مبينين أن المازني رد على شكري بمقالة
ينقد فيها شكر شكري نشرت في جريدة « النظام » ، وأجابه شكري
بمقالة نشرت في الجريدة نفسها (٥٤) .

على أن المازني أبدى وجهة نظره في دعوى السرقة مدعياً أنه كان
يجب أن يفض عن هذه التهم اكتفاء باظهار الجزء الثاني من ديوانه ،
فانه وحده خير رد على ما رمى به ، ولكن الضجة التي قامت حول هذا
الموضوع والشماتة الحقيرة التي لم يخفها قتلى المذهب العتيق ، لا تجعلان
السكوت من الحزامة في شيء ، ولقد كان من الانصاف ألا يلام غيره ،
اذا ما صح النسب اليه ، ولكن الناس تجاوزوه الى غيره ، واتهموا سواء
قياسا عليه (٥٥) .

وهذه الضجة المرتبة الميئة لم تكن مقصورة على الجزء الاول من
ديوان المازني الذي طبع فقد ، ولكنها تجاوزته الى شعر لم ينشره بعد ،
وظهر في الديوان الثاني الذي صدر بعد هذه الضجة الخرقاء ، ومن هنا
يعجب المازني كيف يستحل شائوه لانفسهم أن يجزموا أنه اذا طبع الجزء
الثاني لا محالة منتحل هذه القصائد ؟ وهي « الراعى المعبود » و « الوردة »

(٥٢) هو الاستاذ نيقولا يوسف في مقدمة ديوان شكري ص ٥
ط ١٩٦٠ .

(٥٣) ديوان المازني مقدمة الجزء الثاني ص ١١٩ ، ١٢٠ ط المجلس
الاعلى للفنون والاداب .

(٥٤) راجع : « العقاد يتحدث عن النقد والنقاد » لعبدالحى دياب
في مجلة « المجلة » الصادرة في أبريل سنة ١٩٦٢ .

(٥٥) مقدمة الجزء الثاني من ديوان المازني ص ١٢٠ .

الرسول» و «الغزال الاعمي» ر : اكليل الشوك» وخمسة أبيات من قصيدة «الشاعر المحتضر» وكلها منشورة في الجزء الثاني من ديوانه منسوبة الى أصحابها . ثم يختم المازني مقدمته بقوله : «ولئن كان ما أخذ علينا دليلا على شيء» ، فهو دليل على سعة الاطلاع وسرعة النسيان وهو ما يعرفه عنا اخواننا جميعا . هذا ولا يسعنا الا أن نشكر لصديقنا شكري أن نبهنا الى ما أخذ شعرنا والسلام (٥٦) .

على أن شكر المازني لشكري لم يكن باعنا لان يرجع عن غيه ويقطع عن استفزازه لصاحبه ، لانه كتب بعد ذلك مقالة نشرها في مجلة «المقتطف» (٥٧) حول هذا الموضوع ، ذهب فيها الى أن الاطلاع على الآداب الغربية كان معدودا من الجرائم والتهم في أعين الادباء ، لانه مظنة السرقة ، وذلك لان بعض الشبان لا يدين بدين الملكية في الادب والعقول مثل التربة تحتاج الى أن تتعهد بما يظهر خصبها . ثم أخذ يعدد ما سبق أن تحدث عنه في أماكن متفرقة ، من سرقات المازني ، ولم يكتف شكري باستفزازه للمازني ، ولكنه أضاف اليه العقاد ، وأخذ ينقد شعرهما معا في سلسلة من المقالات نشرت في «عكاظ» في عامي ١٩١٩ ، ١٩٢٠ وكان يوقعها بامضاء «ناقد» . وقد أكد الاستاذ علي أدهم أن هذا الناقد هو عبدالرحمن شكري ، بل انه يزيد المسألة تأكيدا فوق تأكيد حينما يذهب الى أن شكري كان ينقد الشيخ فهميم قديلا تقودا لاجل أن ينشر له هذه المقالات ، وأنه كثيرا ما رآه في هذه الفترة مصطحبا الشيخ فهميم ، وذلك لان الشيخ فهميم قد وقع بينه وبين العقاد والمازني سوء تفاهم أدى الى مقاطعتهما الكتابة في صحيفته بعد أن كانت قائمة على أبحاثهما .

ومن ثم دخلت الخصومة طورا جديدا، وهو طور الرد . على استفزاز شكري المتكرر للمازني والعقاد ، وكان الرد من جانب المازني فقط ،

(٥٦) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٥٧) راجع : مجلة (المقتطف) عدد يناير سنة ١٩١٧ .

بينما وقف العقاد أزاء هذه المعركة حيران صامتا (٥٨) .

لم يشأ المازني أن يسكت على استفزاز شكري المتكرر وتواطؤه مع صاحب «عكاظ» الذي كان يدلي بدلوه في هذه المعركة بالتعقيب الذي يرم على بذاءة لسانه المعهودة فيه ، والتي لا يستغربها القراء إذا ما أتاحت لهم الفرصة لقراءة تعقيباته أو مقالاته (٥٩) . لم يشأ المازني حينئذ إلا أن ينتهز فرصة سفر العقاد الى أسوان للاستشفاء من مرض الصدر الذي داهمه في ذلك الحين ، فكتب المازني ما كتب بعيدا عن العقاد الذي ترك له كتاب «الديوان في الأدب والنقد» في المطبعة تحت رقابة المازني ، وكان العقاد ممسكا بزمام المازني طيلة ست سنوات منذ هاجمه شكري ، فكان العقاد لا يسمح للمازني بمهاجمة شكري لتشاؤمه وانطوائه ونفوره من الناس (٦٠) .

ومعنى هذا أن سفر العقاد قد أتاح الفرصة للمازني لكي يشمى ما في نفسه بنقد شكري في كتاب «الديوان في الأدب والنقد» وكانت لهجته في نقده لشكري عنيفة يتخللها اتهام لشكري بالجنون والخرس والادعاء والبكم والحقد ، وأنه منكود ومائق الى آخره (٦١) .

وبعد ذلك يطير صواب شكري ، ويتهم صديقيه اتهامات تتمثل في المنزلة الوضيعة والعرض المستباح ، وأنهما خنازير الانسانية وغير ذلك من الاتهامات التي نربأ بأنفسنا وبالقراء من تدوينها ، وإن كانت (٦٢) قد نشرت في صحيفة «عكاظ» فلأنها صحيفة كانت لا تمثل قيما ، وبالإضافة الى ذلك فإن العصر الذي نعيشه الآن لا يسمح بنشر تلك الترهات

(٥٨) راجع : مجلة «المقتطف» عدد يناير ١٩١٧ .

(٥٩) علي أدهم : في مجلة «المجلة» فبراير ١٩٥٩ ، وحديث خاص

معه في ٤ من يولييه سنة ١٩٦٤ .

(٦٠) من حديث خاص مع العقاد .

(٦١) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٢٣ .

(٦٢) نشرت في عام ١٩٢٠ في الأعداد ٥٨ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٢ .

٧٤ وغيرها .

والسخافات التي كانت تنشر في الماضي •
والدارس لهذه القضية يرى أن بعض الكتاب رأوا أن الفرصه
سانحة لتوسيع شقة الخلاف ، والقضاء على هذه المدرسة في أشخاص
أصحابها ، فوقفوا ظلما في جانب شكري ، واتهموا المازني بالتعامل عليه
والظلم له (٦٣) • كما اتهم العقاد (٦٤) نفر آخر بأنه كان سبب الخلاف
والذي بذر بذور الفتنة بين المازني وشكري ، ثم وقف بعد ذلك موقف
الحياد الذميم •

وفي تصورنا أن هؤلاء الكتاب لو وقفوا على حقيقة الامر ، كما
صورناها ، لعرفوا أن المازني كان معذورا في نقده لشكري ، لان شكري
هو الذي أساء الى المازني أولا ، واستمرت اساءاته تكرر وتكرر حتى
استتارت المازني ، وهو رجل متطرف لا يلزم الوسط ، ان رضى أو
غضب ، على حد تعبير العقاد (٦٥) •

ولعرفوا كذلك أن العقاد كان سمحا مع شكري ، بالرغم من نوح
شكري فيما كتبه عنه ، ووصفه له بالنشأة الوضيعة الى آخر ما تفتقت عنه
نفس شكري من أوصاف لا يسكت عنها انسان عادي فضلا عن العقاد
الحساس (٦٦) •

وفي رأينا أن العقاد لم يسكت عن الرد على شكري خوفا ، وانما
دفعه الى ذلك خوفه من تبديد شمل الجماعة التي قامت لارساء قيم في
الادب والفن يحتاج اليها الوطن أيما احتياج (٦٧) •

ومن ناحية أخرى كان سكوته خوفا من فرحة صرعى المذهب
القديم ، ومن ثم لم يطب نفسا لتلك الجفوة التي حدثت بين صاحبيه
فجمعهما ورأب الصدع وعاهدتهما على أن يكفأ ، فرضيا حكمه ، وكتب

(٦٣) من هؤلاء مصطفى السحرقي في كتابه «الشعر المعاصر على
ضوء النقد الحديث» ص ١٥٧ •

(٦٤) من هؤلاء محمود الخولي : في مجلة «أبولو» يونيه ١٩٣٤ •
(٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧) راجع : عباس العقاد ناقدًا ، للمؤلف ص ١٢٣ ،

العقاد يومئذ مقالة في « الأفكار » وصف ما جرى بينهما بأنه مصارعة
أصدقاء ، لا مقابلة أعداء ، وانقضت السحابة وعادت سماؤهما صفوا (٦٨) .
وقد وصف العقاد هذه الجفوة بين صديقيه وموقفه بينهما في رثائه
لشكري بقوله (٦٩) :

أبذل الخلد وأفدى بالمدى	ساعة أشقى بها قلبين صدا
ساعة يذهب فيها غضب	بين صنوين طغي ثم استبدا
نفرا وا أسفي بينهما نفرة	ما عرفت في القلب حقدا
لم يكونا بالعدوين ولا حملا	ضغن عدوين استعدا
أيسر العتب شديد بين من	ألفوا الصحبة كالاملاك ودا
غضبا فافترقا فاسترسلت	فرقة الموطن هجرانا وبعدا
أنا أدري ما انطوى بينهما	من رضى أصفى من الطل وأندى
فيم كان البعد فيم اختلفا	فيم كان الهجر امعانا وشدا
أفلا كان لقاء بيننا	قبل أن يفترقا لحدا ولحدا

* * *

وبجانب ذلك أحس المازني باحساس الفنان أنه كان غنيا في نقده
لكل من حافظ وشكري ، فندم على أنه استخدم العنف في نقده ، ووصفه
بأنه كان فورة شباب ، فكتب بعد أن تقدمت به السن ، وصالح الحياة
على ما هي عليه ، مقالا في جريدة السياسة لارضاء شكري وتطيب خاطره
ولا سيما أنه زميله الذي قضى معه عهد الشباب ، والنائر معه على القيم
الادبية البالية ، وكان هذا المقال تحت عنوان : « التجديد في الادب
العصري » ، حيث جاء فيه « وقل من يذكر الان شكري حين يذكر الادب
ويعد الادباء ، ولكنه على هذا رجل لا تخالجنى ذرة من الشك في أن
الزمن لا بد منصفه ، وان كان عصره قد أخمله ، ولقد غير زمن كان فيه

(٦٨) راجع : أدب المازني للدكتورة نعمات فؤاد ص ٧٧ .

(٦٩) راجع : جريدة الاخبار الصادرة في ١٨ من ديسمبر سنة

١٩٥٨ العدد ٢٠١٠ .

شكري محور النزاع بين القديم والجديد ، ذلك أنه كان في طبيعة
المجددين ، اذا لم يكن هو الطليعة والسابق الى هذا الفضل ، (٧٠) .

والمتبع للمحاولات التي بذلها المازني ليرضى بها شكري يجد أن
هذه المقالة لم تكن هي المقالة الوحيدة التي كتبها المازني يترضى بها
شكري ، بل انه كتب في نفس الجريدة ، وفي الاسبوع التالي للمقالة
الاولى مقالة فحواها أن شكري قد احتمل وحده في أول الامر وعكسة
المعركة بين القديم والجديد ، وأنه رجل حساس رقيق الشعور ، سريع
التأثر ، وميال بطبعه الى اليأس ، فشق عليه أن يظل يدأب وليس له من
يعنى به ، وأن يقضى خير عمره يرفع صوته بأعمق ما تضطرب به
النفس الملهمة الفياضة الحساسة ، وليس له من يستمع اليه ، أو يعيره
لفتة (٧١) .

ومهما يكن من أمر ذلك التقدير الذي فاضت به كلمات المازني ،
فان شكري كان لا يزال غاضبا ، ومن هنا لم يطب المازني نفسا لذلك ،
ولا سيما أنه رأى بعض الكتاب لا زال يعمل على توسيع شقة الخلاف
كرمزي مفتاح وغيره من الذين كانوا يناصرون شكري ، لا خدمة لقضية
أدبية ، بل بغية توسيع شقة الخلاف ، وتفريق الشمل ، وتشيت جهود
العمالقة الثلاثة (٧٢) .

حينما رأى المازني ذلك فما كان منه الا أن كتب مقالة ثالثة في أول
سبتمبر سنة ١٩٣٤ يعتذر فيها عما بدر منه ، ويعلن فضل شكري ،
وتوجيهه له ، وتأثيره فيه ، وأنه لولا عون شكري المستمر للمازني لتخبط
أعواما أخرى ، وكان من المحتمل أن يضل طريق الهدى (٧٣) .

• (٧٠) راجع : « السياسة » الصادرة في ٥ من أبريل سنة ١٩٣٠ .

• (٧١) المرجع السابق في ١٢ من أبريل سنة ١٩٣٠ .

• (٧٢ ، ٧٣) راجع : عباس العقاد ناقدًا للمؤنف ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

على أن الدارس يرى أن لمقالات المازني التي يترضى بها شكري أثرا وخيم العاقبة بالنسبة لمدرسة الجيل الجديد ، إذ ذهب كثير من النقاد في ذلك الوقت الى أن شكري هو الاستاذ لهذه المدرسة ، واستندوا في ذلك الى مقالات المازني ، مما جعل العقاد يفرغ الى جريدة الجهاد وينشر مقالة في ٤ من سبتمبر سنة ١٩٣٤ عقب نشر مقالة المازني الاخيرة بثلاثة أيام ، وأعلن في هذه المقالة أنه لم يتأثر بأحد ، وليس لانسان عليه فضل وليس تلميذا لاي مخلوق^(٧٤) .

وبطبيعة الحال اعتبر شكري أن العقاد يعرض به ، فكتب مقالة على الاثر في صحيفة « البلاغ » بتاريخ ٦ من سبتمبر ١٩٣٤ ، وعلق فيها على مقالتي العقاد والمازني مدعيا أنه لم يقل لاحد أنه أنشأ مذهبا جديدا في الادب ، أو أنه استاذ لاحد ، ويؤكد في الوقت نفسه أنه ليس بينه وبين العقاد والمازني تنافس على شهرة أو حرفة أو رزق ، ولا يحمل لاحدهما ضعيفة ، كما أنه لم يحرض أحدا على نقد العقاد ، أو على اتهامه بالاخذ منه ، بل كان دائما ينفي ذلك كما يشهد بذلك خصوم العقاد أنفسهم^(٧٥) .

ومن ناحية أخرى عاد شكري الى هذا الموضوع بالكتابة فكتب في جريدة « المقطم » مقالة بتاريخ ١٢ من سبتمبر ١٩٣٤ تحت عنوان « الشهرة والخلود » كرر فيها ما قاله في مقالته الاولى .

ومهما يكن من أمر فإن العقاد قد أكد لنا أن المازني قد زار مدينة الفيوم وشكري ناظرا لمدرستها ، فلم يحسن لديه أن يقضى بالمدينة ساعات دون أن يقصد اليه ليلقاه ، فلم يجده بالمدرسة ، وقيل لشكري أن المازني عاد الى القاهرة ، وقد وقر في نفسه أنك قد تعمدت الاختفاء منه ، وذلك لبقية في نفسك من العتب عليه بعد ما كان بينكما من النقد

(٧٤) راجع : مقدمة ديوان شكري لنيقولا يوسف ص ٩ ط ١٩٦٠ .

(٧٥) نيقولا يوسف في مقدمة ديوان شكري ص ٩ .

والملاحاة ، فنظم شكري قصيدته الدالية التي خاطب بها المازني فقال
رحيق الحياة الود لو دام صافيا
وكالراح أحلاه المعتق ذو العهد
وأحسنه ما كان من عصرة الصبا
ولم يحل بعد الشيب مستحدث الود
رأيت الصبا ودا ، وود الصبا صبا
كبانهما الممزوج كالجوهر الفرد

ثم علق العقاد على هذه القصيدة بقوله : انها من أبلغ ما نظم شكري
ومن أبلغ الشعر العربي في جميع عهوده^(٧٦) .
على أن نيقولا يوسف يؤكد في مقدمة ديوان شكري أن شكري
قد زار القاهرة في عام ١٩٤٤ ، واتهز الفرصة فزار صديقه القديم
المازني في دار جريدة « البلاغ » كما زار العقاد ، ولم يعد يذكر هذا
الموضوع أو يتحدث عنه .

وقد عادت للمازني طبيعته السمحة وهو يتحدث عن ذكرياته في
جريدة « أخبار اليوم » بتاريخ ٢٥/١٠/١٩٤٧ (أي قبل وفاته بعامين)
معلنا أن شكري بالرغم من أنه كان زميله فانه كان استاذة ، وكان موجهه
الذي تولاه برعايته .

وعلى أية حال فان هذه الخصومة بين شكري والمازني قد بالغ
الناس في نتائجها ، وذهبوا فيها مذاهب شتى^(٧٧) ، فمن قائل : انها كانت
سببا في انزواء شكري وتحطيم قلمه^(٧٨) ، ومنهم من أخذ جانب شكري

(٧٦) من حديث خاص مع الاستاذ العقاد ، وراجع كذلك « الاخبار »
الصادرة في ٢٢ من ديسمبر ١٩٥٨ .
(٧٧) محمود الخولي في مجلة « أبولو » عددي أبريل ويونيه من
سنة ١٩٣٤ .

(٧٨) رمزي مفتاح في سلسلة مقالات جمعها في كتاب سماه
« رسائل النقد » وعمر الدسوقي في « دراسات أدبية » ص ٢٣٥ وما
بعدها .

وتحيز له وحاد عن الصواب^(٧٩) ، ومنهم من اعتبر المازني متحاملا على شكري ، وظالما له غاية الظلم .

ومهما يكن من أمر فان الدارس لا يسلم بهذه الآراء ، لانها لم تقم على أساس علمي ، ومن ثم فانها تحتاج - من وجهة نظرنا - الى نقاش طويل ، من شأنه أن يضع الحقيقة في نصابها ، ويبرزها في وضوح وجلال .

فمن ناحية الاستاذية لم يستند دعائها في اثباتها الا الى مقالات المازني في هذا الشأن ، دون أن يعرفوا طبيعة المازني السمحة ، التي أبت أن يظل شكري غاضبا ، ولذا فان المازني كتب ما كتب لينزيل من نفس شكري ما علق بها من غضب وحق عليه من جراء ما كتب عنه في كتاب « الديوان في الادب والنقد » من نقد لم يتحملة بسهولة شكري المتطير الحساس - وذلك بالرغم من أن شكري هو المعتدي لا المازني كما بينا سابقا - ومن هنا حاول المازني ارضاء شكري ، وصنع ما صنع^(٨٠) .

واذن فالمازني رجل جم التواضع ، ينكر نفسه في سبيل صاحبه ، نجس ذلك في جلاء ووضوح من المقدمة التي كتبها لديوان العقاد ، والتي جاء فيها :

« وبعد ، فهل يصلح هذا الكلام أن يكون مقدمة لهذا الديوان ؟ لا أدري . . . وليس ذنبي الا يكون كذلك ، فقد أردت شيئا وأراد العقاد خلافه ، وكان العزم أن أقول غير ما قلت ، وأن آخذ في نهج غير هذا النهج ، فأبى علي ما هممت به ، وردني عما شرعت فيه ، وركب رأسه وأصر على أن أعدل ، فاذا كان فيما كتبت قصورا ، أو تقصيرا فالذنب له ونحده دوني ، وما كنت أبغي الا أن أقول كلمة حق أبرى بها ذمتي ، وأنصفه حتى من نفسي فأباها علي ، واستنكرها مني كبرا أو تواضعا

(٧٩) مصطفى السحررتي : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث

ص ١٥٧ وما بعدها .

(٨٠) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

أو حياء أو مجاملة لا أدري • وحسنا فعل أو شرا فعل •• فما بالعقاد
من حاجة الى انصاف مني أو من سواي، (٨١) •

والذي علمته عن المقدمة التي أباها العقاد ، أنها كانت تتضمن
الإشادة بشاعرية العقاد ، واتهام لشاعرية المازني وشعره ، وأطرى العقاد
أطراء جعل العقاد يقدم على رفض تلك المقدمة حياء منه وتواضعا ، ويشير
عليه بكتابة غيرها ، وهي التي تصدر الديوان ، ولكن المازني مع ذلك
لم ينس أن يشير فيها أيضا الى المقدمة الاولى ، ويثبت عدم ارتياحه لذلك
الرفض (٨٢) •

ويحدثنا صاحب مكتبة « الانجلو » المصرية عن المازني بأنه كان يمر
عليه كل اسبوع على مكتبته ليسأله عن الكتب التي اشتراها العقاد طيلة
الاسبوع فيشترئها المازني بالتالي (٨٣) ، وذلك ان دل على شيء فانما يدل
على ثقة المازني في العقاد من ناحية ، وعلى حسن اختيار العقاد للكتب التي
يصح أن يقرأها من ناحية أخرى •

ويتضح مما سبق أن المازني في حديثه عن شكري والعقاد يتناسى
نفسه ، حيث يجعل من أحدهما استاذا عليه ، ويجعل شاعرية الآخر أنها
ستودي بقيمة شاعريته وشعره ، وذلك في الوقت الذي لا يقل - من
وجهة نظرنا - المازني عنهما جهدا أو جهادا في سبيل ارساء هذه المدرسة
وان كان طابعه السخرية ، وعدم الاكتراث بالخلود والشهرة ، وشأنه
في ذلك شأن الفنان الواصل من نفسه وفنه • ولعل المازني يقصد من
الاستاذية السبق الزمني لشكري عليه في ميدان الانتاج الادبي ، لانه
طبع الجزء الاول من ديوانه في عام ١٩٠٩ ، واعتبره المازني هو
و « يوميات العقاد » بداية اقتحام المذهب الجديد في الادب ، وفتحة

(٨١) راجع مقدمة ديوان العقاد للمازني ص ٦ •

(٨٢) من حديث خاص مع العقاد •

(٨٣) من حديث خاص مع الاستاذ صبحي جريس صاحب ومدير

القسم الاوربي بمكتبة « الانجلو » •

الصراع بينه وبين المذهب القديم^(٨٤) .

أما الخصومة بين المازني وشكري فأننا نعتقد أنها لم تكن سببا في انزواء شكري وتحطيم قلمه ، لانه اعتدى أولا ، فكان لا بد أن يكال له بالكيل الذي كان به للمازني تطبيقا للنظرية القائلة « كما تدين تدان » . ولانه من ناحية أخرى ليس من السهل - كما يقول الاستاذ علي أدهم - على المازني أن يسكت على تشهير شكري به ، لان ما كتبه شكري في نقد كل من المازني والعقاد ، لم يكن من المستوى اللائق بأدبه العالى وثقافته الممتازة ، وواضح أن المازني في كتابته أراد أن يثار لنفسه ، بعد أن احتمل الكثير من استرسال شكري في نقده على صفحات « عكاظ » ولذلك لم يكن من المنتظر أن يكون نقد المازني لشكري نقدا موضوعيا قوامه البحث الهادى ، والتحليل الدقيق وتحري الانصاف ، ونشيدان الحقيقة^(٨٥) .

وعلى الرغم من ذلك كله فانهما قد تبادلوا التقدير لبعضهما البعض منذ عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٤٧ (أي قبل وفاة المازني بعامين) عن طريق المقالات التي أشرنا إليها سلفا ، وزار المازني شكري في الفيوم ، وزاره شكري في القاهرة في عام ١٩٤٤ .

ومن ثم يسوغ لنا أن نقول أن القول بأن للخصومة أثرا سيئا ، كان من نتيجته انزواء شكري وتحطيم قلمه ، قول يعوزه الدليل ، ولا يستند الا على أهواء أصحابه قبل أن يستند على عقولهم . وليس أدل على ذلك من أن الاستاذ نيقولا يوسف^(٨٦) تلميذ شكري قد رفضه اصالة ، لانه لا يركز على أدلة علمية صحيحة .

ويرى الدارس أنه لم يبق من مبالغات الدارسين في هذه القضية سوى ظلم المازني لشكري ، ولعلنا بعد أن وقفنا على حقيقة هذه القضية

(٨٤) راجع : أخبار اليوم الصادرة في ٢٥ من سبتمبر سنة ١٩٤٧

(٨٥) راجع : «المجلة» الصادرة في عدد فبراير ١٩٥٩ .

(٨٦) راجع : مقدمة ديوان شكري للاستاذ نيقولا يوسف ص ٩ .

وتطورها ، وما انتهت اليه ، نستطيع أن نرجح عدم ظلم المازني لشكري د
لأن شكري لم يكن الا مستثيرا للمازني في بادىء الامر وطوال فترة
الخصومة التي بلغت قرابة سبعة عشر عاما ، حتى تبادلنا التقدير لبعضهما
البعض في مقالاتهما التي سبق أن أشرنا اليها .

وخلاصة الخلاصات في هذا الصدد أن المعركة بينهما كان البادىء
فيها شكري بانارة غبارها وايقاد نيرانها ، وقد حورب فيها بذلك السلاح
الذي شهره ، وكيل له بالكيل الذي كال به . ومن هنا لم يكن من حقه
كإنسان سوي أن يشعر فيها بظلم وقع عليه في الوقت الذي كان هو
البادىء بالمنازلة والمقارعة ، ولذا فانها لم تكن تكن سببا في انطوائية شكري
وعزله ، ولكن يرجع ذلك الى دخيلة نفس شكري وارادته وعزمته
وتشاؤمه بمزاجه لا بتفكيره .

الفصل الرابع

معالم المدرسة الثورية

١ - موقف العقاد من مقومات المدرسة :

ويقودنا الانصاف قبل أن نتحدث عن معالم مدرسة الجيل الجديد أن نتحدث عن موقف عباس العقاد في هذه المدرسة ، إذ أنه يعد بحق - من وجهة نظرنا - أمام هذه المدرسة ، وذلك لأنه بالرغم من أن صاحبيه قد شاركاه في المعارك التي نشبت بينهم وبين الشعراء المقلدين ، الذين كانوا يتبوأون منابر الادب ، من أجل تحقيق ذات قيم كل منهما ، وبالرغم من أنهما شاركاه في ارساء قيم هذه المدرسة على أسس علمية كما تبدو في دراسات المازني النقدية في الربع الاول من هذا القرن ، أو عملاً على ارسائها بوساطة النماذج الشعرية التي تحمل في أطوائها هذه القيم الجديدة ، كما تتضح في شعر شكري منذ عام ١٩٠٩ حينما صدر الجزء الاول من ديوانه « ضوء الفجر » وتوالت بعد ذلك الاجزاء الاخرى من ديوانه^(١) .

بالرغم من ذلك كله فإن الدارس يقول : ان العقاد يعتبر امام هذه المدرسة لانهما قد انفض سامرهما منذ عام ١٩١٦ ، وانطوى شكري عن الاتاج النقدي - في الاغلب الاعم - الذي يحمل طابع المدرسة ، فلم يشارك في أول عمل علمي منظم وهو « الديوان في النقد والادب » ، ولم يصدر له من الدراسات النقدية الا النزر اليسير الذي كان ينشر عاطلاً من التوقيع اللهم الا بالرموز التي تتضمن (ع . ش) . ولجأ المازني الى السخرية والتهكم ازاء المعارضات التي كانت توجه من دعاة المذهب

(١) راجع عباس العقاد ناقدا ص ١٣١ .

القديم ، ولم يعرهما التفاتا ، بل كان يسلم لشائيه بماأخذهم على نقده
وشعره ، ويدعي أن له ميدانا لا يقتحمه عليه أحد بماأخذ أو غيرها ،
وهو ميدان الصحافة والمقالة والقصة ، وما صدر له بعد ذلك من دراسات
نقدية ، انما كانت تقف عند منطلق المدرسة النقدي والفكري ، ليس فيه
تطوير لفكرة ، أو نظرية ، أو ابتداع لمبدأ نقدي يحسب له في حساب
الدراسة والتقويم^(٢) .

وتأسيسا على هذا الفهم فإن الدارس لا يجاوز الصواب حينما يزعم
أن العقاد هو امام هذه المدرسة عندما نريد التعرف على امامها الذي يحمل
لواءها ناقدا وشاعرا ، اذ واصل جهاده في ميدان النقد ، فعمق مفاهيم
هذه المدرسة وقيمها^(٣) . ومضى يناوئ فلول دعاة القديم في النقد
والادب من أجلها ، كما يتحدث عن نشأتها وعلاقتها بالاتجاهات التي كانت
سائدة قبل نشأتها أو صاحبها ، وأهدافها .

وفي هذا الصدد نرى أن العقاد ينفي أي تأثير حدث لدعاة مدرسة
الجيل الجديد - من حيث اللغة والروح معا - من قبل شوقي وأضرابه
من شعراء الجيل السابق عليهم ، بل ربما كان الاصح أن شوقيا تأثر بهم
في أخريات أيامه الى أغراض من النظم تخالف أغراضه الاولى التي كان
يعيها عليه دعاة مدرسة الجيل الجديد ، فاتجه الى الروايات وأكثر من
التاريخيات والاجتماعيات ، وعدل أو كاد عن شعر المناسبات الضيقة الذي
كان ينحصر فيه وقلما يتعداه^(٤) .

ويوضح العقاد أكثر حينما يبين ما أجمله في كلامه السابق ،
ويوضح مصادره التي اطلع عليها من حيث التكوين اللغوي والروح .
ذلك أن العقاد وصاحبه لم يتأثروا بشوقي من جانب اللغة أقل

(٢) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٣١ .

(٣) راجع : « هل عندنا مذاهب أدبية ؟ » للدكتور محمد غنيمي

هلال في مجلة « الاداب » يناير سنة ١٩٦١ .

(٤) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٩١ ، ١٩٢ .

تأثر ، لم يتأثروا بتسعر شوقي وأضرابه من الشعراء التقليديين ، لانهم كانوا يقرأون دواوين الاقدمين ويدرسونها ويعجبون بما يوافقهم من أساليبها ، ولذا فقد كان لكل شاعر منهم شاعر قديم أو أكثر من شاعر واحد يدمن قراءتهم ويفضلهم على غيرهم ، ولولا التوافق بين دعاة هذه المدرسة في المشرب لاتسعت بينهم الشقة أيما اتساع من جراء اختلافهم في تفاضل الأساليب العربية بين شعراء كالمثنبي والمعري وابن الرومي والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وابن زيدون ، ولكنهم كانوا لا يختلفون الا في الاداء والعبارة ، لانهم متفقون في ادراك معنى الشعر ومعابير نغده ، ولانهم كانوا يقرأون كل شاعر عربي وان فضل بعضهم واحدا يتعصب له على نظرائه^(٥) .

وأما الروح فان العقاد يرى أن دعاة هذه المدرسة كانوا وليدي مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الادب العربي الحديث ، فهي مدرسة أوغلت في القراءة الانكليزية ، ولم تقصر قراءتها على أطراف من الادب الفرنسي ، كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر ، وهي على ايغالها في قراءة الادباء والشعراء الانكليز ، لم تنس الالمان والاطليان والروس والاسبان واليونان واللاتين الاقدمين^(٦) .

وفيما يختص بمصدر الاستفادة لهذه المدرسة - يحدده العقاد لنا حينما يذهب الى « أن هذه المدرسة قد استفادت من النقد الانكليزي فوق فائدها من الشعر وفنون الكتابة الاخرى » ولا أخطيء اذا قلت أن « هازليت » هو امام هذه المدرسة في النقد ، لانه هو الذي هداها الى معاني الشعر والفنون وأعراض الكتابة ومواضع المقارنة والاستشهاد ، وقد كان الادباء المصريون الذين ظهوروا أوائل القرن العشرين ، يـجبون « بهازليت » ويشيدون بذكره ويقرأونه ويعيدون قراءته يوم كان « هازليت » مهملا في وطنه مكروها من عامة قومه ، لانه كان يدعو الى غير ما يدعو في

(٥) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٦) نفس المرجع ص ١٩٢ .

الادب والنقد والسياسة والوطنية ، فكان الابداء المصريون مبتدعين في الاعجاب به لا مقلدين ولا مسوقين ، وأعانهم على الاستقلال بالرأي عندما يقاربون الاداب الاجنبية أنهم قرأوا أديبهم قبل ذلك وفي أثناء ذلك فلم يدخلوا عالم الاداب الاجنبية مغمضين أو خلوا من الرأي والتمييز^(٧) .

والمتبع لهذه المدرسة يرى أن العقاد يدفع فكرة ربما تكون قد راودت بعض الدارسين ، وهي تقليد تلك المدرسة المصرية للادب الانكليزي ، فيذهب الى أن هذه المدرسة ليست مقلدة للادب الانكليزي ، ولكنها مستفيدة منه ، مهتدية على ضيائه ، ولها بعد ذلك رأيها في كل أديب من الانكليز ، كما تقدره هي ، لا كما يقدره الدارسون من الانكليز^(٨) .

ويرى العقاد أن هذا هو المطلوب من الفائدة الادبية التي تستحق اسم الفائدة لانه لا جدوى هناك فيما يلغى الارادة ، ويشل التمييز ، ويبطل حق الاديب في الخطأ والصواب ، « وانما الفائدة الحق ، هي التي تهديك الى نفسك ، ثم تتركك لنفسه تهدي بها وحدها كما تريد ، ولأن تخطيء على هذا النمط خير لك من أن تصيب على نمط سواه »^(٩) .

ويواصل العقاد حديثه عن العلاقة بين مدرسة الجيل الجديد ، والثقافة الانكليزية ، ومدى استفادتها من المدارس الغالبة على الفكر الانكليزي التي قرأوها ، وسرت من روح هذه المدارس الشيء الكثير الى العقاد وصديقيه .

ومن ثم يؤكد العقاد أن المدرسة التي كانت غالبة على الفكر الانكليزي بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، هي المدرسة التي كانت معروفة عندهم بمدرسة النبوة والمجاز ، أو هي المدرسة التي تتألق بين نجومها أسماء كارليل ، وجون وستيوارت ميل ، وشيللي ، وبيرون ، وورد زورث ، ثم خلفتها مدرسة قريبة منها تجمع بين الواقعية

(٧) المرجع السابق ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٨ ، ٩) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٩٣ .

والمجازية ، وهي مدرسة براوننج ، وتيسون ، وأمرسون ، ولونجفلوا ،
وبسو ، وويتمان ، وهاردي ، وغيرهم ممن هم دونهم في الدرجة
والشهرة (١٠) .

وعلى أية حال فإن الدارس يرى أن العقاد يسلم بأن شيئا كثيرا قد
سرى من روح هؤلاء الاعلام في الادب الانكليزي ، ولكنه كان سريان
التشابه في المزاج واتجاه العصر كله ، ولم يكن تشابه التقليد والفناء ،
أو هو سريان جاء من تشابه فهم رسالة الشعر والادب ، لا من تشابه فيما
عدا ذلك من تفصيل (١١) .

والذي يبدو مما سبق أن العقاد ينفي أي تأثير للجيل الذي سبقه
على مدرسته سواء كان هذا التأثير لغويا ، لانه وزملاءه كانوا يقرأون
دواوين الاقدمين ، أم كان هذا التأثير من ناحية الروح والهوى ، لان
الجيل الناشئ بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها
في تاريخ الادب العربي الحديث .

على أن العقاد يلح على هذه الفكرة حين يقول : « نحن اليوم غيرنا
قبل عشرين سنة ، فقد تبوأ منابر الادب فتيه لا عهد لهم بالجيل الماضي ،
نقلتهم التربية والمطالعة أجيالا بعد جيلهم ، فهم يشعرون شعور الشرقي ،
ويتمثلون العالم كله كما يتمثله الغربي ، وهذا مزاج أول ما ظهر من
ثمراته ، أن نزعنا الاقلام الى الاستقلال ، ورفع غشاوة الرياء ، والتحرر
من القيود الصناعية ، هذا من جهة الاغراض والانساق .

« وأما من جهة الروح والهوى فلا يعسر على النديس (١٢) البصير
أن يلمح مسحة القطوب للحياة في أسرة الشاعر العصري الحديث ،
ويتفرس هذا القطوب حتى في الابتسامة المستكرهه التي تردد أحيانا
بين شفثيه (١٣) .

(١٠) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٩٣ .

(١١) نفس المرجع ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(١٢) النديس : الفطن .

(١٣) عباس العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ص ٢٧٨ .

ويتساءل الدارس عن مضمون كلام العقاد ، ولكنه لا يلبث أن
يجيب بما يفيد أن العقاد لا يرى أي تأثير للجيل الذي سبق ظهور مدرسته
عليه وعلى زملائه ، لأن مدرستهم قد تكونت بعيدا عن ذلك الجيل •
وهنا يبرز سؤال هو ألزم سؤال في هذا الصدد وهو ألم يكن في
الجيل الماضي على ظهور مدرسة الجيل الجديد ، من فطن الى التجديد
في الادب أو النقد بالبداهة أو الدراسة ؟؟

وللاجابة على هذا التساؤل لا بد ان تستحضر في اذهانتنا انه قد كانت
هناك محاولات نقدية في أواخر القرن التاسع عشر واولئل القرن العشرين
تعد ارهاصا للتجديد في النقد ، ولا سيما محاولات خليل مطران النقدية
التي دعمتها تجاربه الشعرية الجديدة في مضمونها وصياغتها بحيث خرج
كثير من هذه القصائد مشتملا على الوحدة العضوية التي هي أمل النقاد
المحدثين ••

وعلى الرغم من هذا فان العقاد ينفي أن تكون مدرسته قد تأثرت
بمطران ، ولو عن طريق تنبيه الوعي الفني الى حقيقة الشعر ، لان مطران
- من وجهة نظر العقاد - من المجددين لا ريب في ذلك ، ولكنه لا
فضل له في تجديده ، لانه لم يكن يستطيع غيره •

والتجديد الذي للانسان فضل فيه - كما يرى العقاد - هو الذي
يقابل في الدعوة اليه العناية كل العناية ، لانه ينازع فيه موروثاته وعقباته ،
ويتخذ له فيه طريقا غير الطريق المرسوم له من قبل وجوده^(١٤) •

وتأسيسا على هذا الفهم يرى العقاد ان مطران كان في حاجة الى جهد
لاجتناب التجديد ، ولم يكن محتاجا الى جهد لاتباع مناهج الادب الحديثة •
وفي مقام التعليل لذلك يقول العقاد : « ان مطرانا درج على الدراسة
الاوربية ، ولم يفرض عليه الماضي الموروث ان يتشيع تشيع العقيدة لبقايا
الادب العربية ، او بقايا الادب الاسلامية ، فعناؤه حين يمضي في طريق
التجديد عشر خطوات ، دون العناية الذي يلقاه في الخطوة الواحدة رجل

(١٤ ، ١٥) عباس العقاد : شعراء مصر ص ١٩٩ •

مثل حافظ ابراهيم ، وقوة الطبع في تجاوز هذه الخطوة الواحدة أظهر من قوة الطبع في تلك الخطوات العشر ، لان الفرق بينهما كالفرق بين من يسبح في وجه التيار ، ومن يسبح مع التيار^(١٥) .

ويخلص العقاد من مناقشة قضية التجديد لدى مطران على هذا النحو ، الى دعوى تأثيره في مدرسة الجيل الجديد ، تلك التي يرفضها العقاد ، كما رفض سابقتها التي تتضمن تأثير شوقي على مدرسته . .

على ان العقاد في رفضه تلك الدعوى يرتكز على ان مطران من جيل أحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، ومن هنا فهو أكبر من دعاة مدرسة الجيل الجديد الذين نشأوا في اواخر القرن التاسع عشر واول القرن العشرين ، وهو علم وحده في جيله . ولكنه بالرغم من ذلك لم يؤثر بعبارة او بروحه فيمن اتى بعده من المصريين ، لان هؤلاء كانوا يطلعون على الادب العربي القديم من مصدره ، ويطلعون على الادب الاوربي من مصادره الكثيرة ، ولا سيما الانكليزية ، فهم اولى ان يستفيدوا اللغة من الجاهليين والمخضرمين والعباسيين ، وهم اولى ان يستفيدوا نوازع التجديد من آداب الاوربيين . ومن ثم ليس لمطران - من وجهة نظر العقاد - مكان الوساطة في الامرين ، ولا سيما عند من يقرأون الانكليزية ، ولا يرجعون في النقد الى موازين الادب الفرنسي ، أو الى الاقتداء بموسيه ولامرين وغيرهما من امراء البلاغة ابان نشأة مطران^(١٦) .

ولم يقتصر العقاد على رفض دعوى تأثير مطران على مدرسة الجيل الجديد ، بل ذهب الى ابعد من هذا حين ادعى أن مدرسته قد أثرت في مطران ، كما اثرت في شوقي قبله ، وذلك حين يقول :

« ولا بد أن يلاحظ أن شعراء مصر المجددين بعد جبل شوقي وحافظ ومطران ، كانوا جميعاً من دارسي الانكليزية ، أو دارسي الآداب الاوربية من طريق اللغة الانكليزية ولعل الاثر الذي احدثوه في الثقافة العصرية هو الذي جنح بالاستاذ مطران الى ترجمة شكسبير والعناية به

(١٥ ، ١٦) عباس العقاد : شعراء مصر ص ١٩٩ ، ٢٠٠

أكثر من عنايته بكبار الشعراء الفرنسيين ، فهو كصاحبه شوقي قد تأثر بثقافة الجيل الناشئ بعدهما في مصر ، ولم يؤثر فيه^(١٧) .

ثم يحدد العقاد أهداف تلك المدرسة بعد أن أسهب في الحديث عن عدم تأثرها بالجيل السابق ، ويبين اصالتها ، وانها مقلدة للادب الانكليزي وانما المسألة في الالتقاء بينها وبين الادب الانكليزي مسألة اتفاق في المزاج وفهم لرسالة الشعر والادب .

ومن ثم نراه يحدثنا عن مذهبهم في النقد ، وذلك حينما يقول : « وأوجز ما نصف به عملنا - ان افلحنا فيه - انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا أنه مذهب انساني مصري عربي : انساني ، لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة ، ومصري لان دعائه مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربي ، لان لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن أدبنا الموروث في أعم مظاهره الا عربيا بحتا ، يدير بصره الى عصر الجاهلية^(١٨) .

على انه بعد تحديد مذهبهم نراه يرضح اهداف المدرسة التي استطاعت أن تقلب موازين النقد في مصر ، وان تكون - على حد تعبيره - اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، وذلك لان هذه المدرسة استطاعت ان تقاوم فكرتين كلتاهما خاطئة ناقصة ، بالرغم من ان احدهما قد جاءت في الماضي ، وجاءت الاخرى من احدث الاطوار في الاجتماع^(١٩) .

فالفكرة الاولى تتضمن حقيقة « الادب القومي » حيث كان جيل

(١٧) عباس العقاد : شعراء مصر ص ٢٠٠ .

(١٨) عباس العقاد : الديوان في الادب والنقد ص ٢٥ ، ٢٦ ط

ثانية القاهرة .

(١٩) عباس العقاد : شعراء مصر ص ١٩٤ .

شوقي وحافظ ينظر اليه على انه الادب الذي تذكر فيه الفلواهر ومعالم القومية بالاسماء والتواريخ والحوادث ، فليس من الادب القومي عند هذا الجيل ، ان يصف الشاعر عواطفه الانسانية ، او يصف المحيط الاطلسي ، او نهر دجلة ، او مناظر لندن وباريس ، لان هذه الاشياء لا تحمل اسم النيل ومصر والهرم واخبار الصحف المحلية والحوادث الداخلية^(٢٠) .

ومن هنا نراه يصحح هذا الفهم حينما يذهب الى هذه الفكرة خاطئة ناقصة ، لانه ينفىها أمثلة العظماء من الشعراء في كل زمن وكل أمة فشكسبير مثلا مفخرة قومية عند الانكليز ، ولكنه ألف من الروايات عن الرومان واليونان والطلليان في القرون الاولى والقرون الوسطى أكثر من تأليفه في تاريخ قومه ، وهاردي كتب عن ابناء اقليمه في رواياته ، ولكنك اذا قرأت شعره وجدت فيه ما يهم المصري والهندي واليوناني ، كما يهم الانكليزي وقس على ذلك شعراءنا الاقدمين وجلة الشعراء المحدثين^(٢١) .

والذي يتضح مما سبق انه ليس المطلوب من « القومية » - في تصور العقاد - ، ان يسجل الشاعر اسماء البلاد ومعالمها وعنواناتها ، وانما المطلوب أن يكون الشاعر انسانا يشعر بقومه وبالناس وبالدينا وبالارض وبالسما ، وتأني « الطبيعة القومية » من وصفه السماء ، كما تأني من وصفه طنطا والاقصر واسوان ، لانه لن يخرج من قوميته ولا من طبيعتها اذا وصف الشعرى اليمانية على وجهة نظره المصرية ولم يصف الشارع الذي يسكن فيه^(٢٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان القومية المصرية - في نظر العقاد - تظهر في خوالج النفوس اكثر مما تظهر في اسماء المعالم وعناوين المدن والاشخاص ، لان الانكليزي يستطيع أن ينظم مائة قصيدة يذكر فيها النيل والهرم وأبا الهول والفلاح والقطن والذرة ، ولكنه لا يستطيع أن يكون قويا بشعوره ومزاجه ، كما يكون الشاعر المصري الذي يعبر عن نفسه

(٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) المصدر السابق ص ١٩٤ ، ٩١٥ .

ولا يذكر القاهرة وبنها والبدرشين ، وفلانا ابن فلان ، ذلك لان هذه
الاسماء تحاكي وتقلد ، ولكن الطبيعة المصرية التي تعبر بها عن ذات نفسك
لا تحاكي ولا تقلد ولو كانت موضوعاتها انسانية لا تنحصر في عناوين هذه
البلاد^(٢٣) .

ويمضى العقاد في تقرير المبادئ النقدية التي اضطلعت بها مدرسته
حينما يقرر هذا الفهم « للادب القومي » بغض النظر عن انه ينطبق على
شعره او انه لا ينطبق عليه لانه يقرر الفكرة لذاتها ويدع أمر التطبيق لمن
يعنيه ، فلو انه كان يقرر المبدأ الادبي ليستفيد منه ، لقرر ان الشعراء
القوميين هم الذين يذكرون الاتار والمشاهد ، وينحصر في المواقع
والمناسبات القريبة ، وذلك لانه نظم في مناظر النيل ، وفي وصف معابد
ادفو ، وانس الوجود ، وتمثال رمسيس وغيرها من الاتار ، ونظم كذلك
النشيد القومي والقصائد الوطنية الاخرى في خطاب الشبان ، كما نظم
القصائد الكثيرة في بعض المناسبات العامة ، ولم يقرر هذا ، لانه يريد
الفكرة لذاتها ولا ينظر فيها الى شخص أو شخص آخرين^(٢٤) .

على ان العقاد يعمق فكرة القومية في الادب حينما ذهب الى ان البيئة
القومية لا تلزم الشاعر المصري الزاما ان يثبت المصرية بالعناوين والاسماء ،
او بموضوعات تحمل هذه العناوين والاسماء ، وهي كذلك لا تحرم عليه
هذه الموضوعات ، ولا تناقضها في الشعر ، ولا في أبواب الكتابة النثرية ،
وانما الواجب على الشاعر القومي ، أن يكون قويا بنفسه وشعوره وادراكه
ما دام صادقا في تعبيره عن ذلك جميعه ، وليصف بعد ذلك نجوم السماء ،
او ازهار الارض ، او فنطرة قصر النيل ، او حديقة « هايدبارك » او ينابيع
جبل لبنان ، فما في ذلك ضير على الشعر ، ولا عليه ولا على القومية ،
لأنها انسانية قبل كل شيء مصبوغة بصبغة وطن من الاوطان^(٢٥) .

وفي اعتقادنا ان هذا الفهم من العقاد للقومية ، لا يتفق وفهم الاشتراكيين

(٢٣) عباس العقاد : شعراء مصر ص ٢٠١ .

(٢٤) ، (٢٥) المصدر السابق صفحات ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(الماديين) للادب ، لانهم كما يقول العقاد - « يزعمون ان الادب كله ان هو الا آلة من آلات الاقتصاد ، وسلاح من اسلحة الطبقات في نضالها القديم ، ويريدون من ثم الا يخرج الشاعر من افق الطبقة او افق البيئة ، الى افق الانسانية الواسع الدائم ، ولكن الاشتراكيين (الماديين) ما كانوا قط اهلا لفهم الفنون ولا اهلا لفهم الانسانية . . انما يفهمون ان الاقتصاد هو مسخر الحياة ، ولا يفهمون ان الحياة هي مسخرة الاقتصاد والاقتصاديين ، ولو عمل الناس وقالوا من بداية الزمن كما يريد الاشتراكيون الغلاة ، لما كانت علوم ولا كانت فنون ولا كان اقتصاد (٢٦) ، أما الفكرة الثانية التي قاومتها مدرسة الجيل الجديد فتنبع مما انتهى اليه في الفكرة الاولى من خلاف بينه وبين الاشتراكيين الغلاة في فهمهم العقيم ، الذي يحرم على الاديب ان يكتب حرفا لا ينتهي الى « لقمة خبز » او الى تسجيل حرب الطبقات ونظم الاجتماع (٢٧) .

وفي مقام التدليل على عقم هذه الفكرة يذهب العقاد الى ان «روسيا» التي كان قد استولى عليها الشيوعيون زهاء عشرين عاما ، ونبت فيها على ايديهم جيل كامل يعد بالملايين ، ويتراوح عمره بين العشرين والاربعين ، لم ينبغ في هذا الجيل شاعر او فيلسوف او مصور او اديب من طراز رفيع . وهكذا تخمد القرائح بين اناس يحسبون كل ملاحظة وكل شعور عبثا من عبث البطالة والفراغ ما لم يكن منتهيا الى الخبز او الى الاقتصاد في عمومته (٢٨) .

ثم يعقب العقاد على هاتين الفكرتين بقوله : « فمدرسة الشعر المصري بعد شوقي تعني بالانسان ولا تفهم « القومية » في الشعر ، الا على انها انسانية مصبوغة بصبغة وطن من الاوطان ، وهي تلقي بالها كله الى شعور الانسان في جميع الطبقات ، ولا تحصر شعورها في طالبي الخبز وعبيد الاقتصاد ، وهي على هذا مدرسة الطبيعة الانسانية ، ولا يتأتى ان تكون

(٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٩٥ ،

بمعزل عن القومية بحال ، لان « القومية » سجية كل انسان مطبوع ، ولو
عني بالقطب الشمالى او قطب السماء (٢٩) ، *

٢ - الاصاله في الدعوة :

ويواصل العقاد حديثه عن تلك المدرسه وما أحدثته في الادب من
روح الاستقلال وما دعت اليه من الصدق في التعبير فيذهب الى أن
الادب العصرى الحديث حسبه من روح الاستقلال في شعرائه ، انهم
رفعوه من مراغه الامتحان التى عفرت جبينه زما ، فلن تجد اليوم شاعرا
حديثا يهنىء بالمولود ، وما نفض يديه من تراب الميت ، ولن تراه يطرى
من هو أول ذاميه في خلوته ، ويقذع في هجو من يكبره في سريره ، ولا
واقفا على المرافىء يودع الذاهب ويستقبل الآيب ولا متعرضا للعطاء يبيع
من شعره ، كما يبيع التاجر من بضاعته ، وليس بالقليل من هذه الروح
الشماء في الادب ، أن تجهز على آداب المواربة والتزلف بيننا أو ترددها بها
وراء الاستار ، بعد أن كانت تنشر في الاشعار ، وينادى بها في ضحوة
النهار (٣٠) . *

على أن العقاد يوضح أكثر حينما يؤكد انهم أنكروا أصنام الادب ،
لانهم أنكروا عملهم وطلبوا عملا أصلح منه وأوفى ، وأصلحوا أنفسهم ،
وحولوهم الى وجهه غير وجهتهم وجعلوهم يطرقون أبواب الفنون الحية ،
بعد أن كان كلامهم أو أكثره وقفا على المديح والرثاء وشكوى الزمان
والاخوان (٣١) . *

ويقرر العقاد أن تقدمهم لم يقتصر على الادب الحديث ، وانما فتحو
أبواب النقد القديم بعد أن كان التعرض لشاعر كامرىء القيس ، أو أبى

(٢٩) المصدر السابق ص ١٩٦ . *

(٣٠) عباس العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ص ٢٧٨ وما

بعدها . *

(٣١) ، (٣٢) راجع : جريدة الاساس بتاريخ ١٩ من أكتوبر سنة

١٩٥١

الطيب المنسبى كفرا ، أو جنسية تعاب ، كما تعاب الجنسية على الشرائع
أو القوانين (٣٢) .

ويتضح مما سبق أن هذه المدرسة قد استطاعت أن تحول تيار الادب
من مراغة الامتحان التي عفرت جبينه الى ادب انساني يبحث في النفس
الانسانية ، ويعبر عن أفراحها وأحزانها ، وهدوئها وصخبها ، وغير ذلك
من حالاتها المختلفة .

ومن ثم نقول مع الدكتورين محمد مندور ومحمد غنيمي هلال بأن
تجديد هذه المدرسة لم يخرج بالشعر العربي عن دائرته الغنائية ، لان
الشعر الغنائي أصل أجناب الادب العربي وأعرقها (٣٣) .

ويرى الدارس أن التجديد في الشعر الغنائي أصعب منالا من خلق
أجناس أدبية أخرى كالقصة والمسرحية ، لانه قد استأثر بالنصيب الاوفى
من النقد الادبي القديم ، وقد جمد على تقاليد فنية شائنة ، تمثلها المماحكات
اللفظية ، والتعقيدات المنطقية عند السكاكي وأمثاله من علماء البلاغة
المتأخرين .

ومن هنا نعلم ان التجديد في الشعر الغنائي ليس بالشىء الهين الذي
لجأ اليه دعاء مدرسة الجيل الجديد ، لان التجديد يحمل في طياته من
ناحية اخرى تطورا خطيرا في جميع جوانب الحياة الانسانية ، وهذا
ما صنعه دعاء مدرسة الجيل الجديد ، اذ أنهم دلفوا من خلال الحديث عن
الشعر الى هدم القيم البالية العتيقة في الفكر والاجتماع .

نعم ، كان التجديد في الشعر الغنائي هو المنتظر وهو أصعب - كما
قلنا - بكثير من انشاء الادب الموضوعى ، وخاصة أنه ليس للمصريين به
عهد في الادب العربي ، فأى نماذج منه يضعها هؤلاء الشعراء النقاد ، أو
أي مبادئ يضعونها كان المصريون يتقبلونها ، ولا يوجد من يفظن منهم

(٣٢) راجع في ذلك : ابراهيم المازني للدكتور محمد مندور ص ٢٨
ومجلة « الاداب » البيروتية الصادرة في يناير ١٩٦١ في « هل لدينا مذاهب
أدبية » للدكتور محمد غنيمي هلال .

الى نواحي الضعف في هذه النماذج ، ولن يصطدم بها القراء لعدم معرفتهم لها .

والذي يتضح مما سبق أن عدم انشائهم للادب الموضوعي لا يقدر فيما قاموا به من تجديد ، ولا يضيرهم ألا تشمل مدرستهم على ادخال الادب الموضوعي ، وحسب الادب العربي منهم ، أن تزلزل مدرستهم القيم الفنية الموروثة حول الشعر العربي ، كما يبدو لنا ان التجديد في الشعر الغنائي ونقده هو أساس النهضة الادبية التي يشتمل عليها عصرنا الحديث . ومهما يكن من أمر ، فعلى الرغم مما قيل حول مدرسة الجيل الجديد والادب الموضوعي ، فإن هذه المدرسة استطاعت أن تنتشل الادب العربي بصفة عامة ، والشعر الغنائي بصفة خاصة ، من الوهدة التي كان يتردى فيها ، وأن يبصر نقادها الادباء بكثير من مواطن الزلل التي لا تدركها موهبة الادباء وحدها ، ولا سيما أن النقاد في كثير من الاحيان بطبيعة موهبتهم وعملهم أكثر ثقافة من الادباء .

وبالإضافة الى ذلك فإن ازدهار النقد يعنى ازدهار الادب ، وان كلا من النشاطين مكمل للآخر ، وأن كثيرا من النقاد في الامم التي سبقتنا الى الحضارة كان لهم من الاثر في عصرهم ما يفوق آثار كثير من الادباء (٣٤)

٣ - بين مدرسة الجيل الجديد والمهجرين :

وحينما يقف الدارس لمدرسة الجيل الجديد على ما سبق فانه ليعجب حينما يرى أن ميخائيل نعيمة يكتب في « غرباله » مقالا حماسيا حارا عن كتاب « الديوان في الادب والنقد » يحيى به هذا الجهد الذي قام به نقاد مدرسة الجيل الجديد ، واستهله بقوله :

« ألا بارك الله في مصر فما كل ما تنشره ثرثرة ، ولا كل ما تنظمه بهرجة ، وقد كنت أحسبها وثنية تعبد زخرف الكلام ، وتؤلف رصف القوافي ، فكم زمرت لبهلوان ، وطببت لمشعوذ و « طبيت » لسكران ،

(٣٤) ناقش العلاقة بين الناقد والاديب الدكتور محمد غنيمي هلال

في مجلة « المجلة » الصادرة في يولييه ١٩٥٩ العدد ٣١ .

غير أنني عرفت اليوم بالحس ما كنت أعرفه أمس بالرجاء (٣٥) .

ويواصل نعيمة حديثه عن هذه المدرسة مدعياً أنه قد بدأ يسمع أن في مصر جماعة تأبى اليوم أن تتناول غذاءها الأدبي من قصص أجدادها ، وبملاعق أجدادها ، بل تفضل أن تطبخ طعامها بيدها ، وأن تمضغه بأسنانها لا بأسنان سواها ، وبعبارة أخرى يرى نعيمة أن هذه الجماعة قد اكتشفت لذة الاستقلال في التفكير والشعور ، فهي تفكر لذاتها وتشعر لذاتها ، ومن ثم فإنه يعد تلك الساعة التي اهتدى فيها إلى هذه الجماعة أطيب ساعة في حياته ، لأنه لمس الحياة الجديدة فيها ، فأيقن أن أحلامه التي كان يحلم بها منذ سنين أصبحت اليوم حقيقة محسوسة (٣٦) .

على أن نعيمة يبين مصدر هذا اليقين الذي وقر في نفسه ، وهو كتاب « الديوان في الأدب والنقد » الذي اشترك في تأليفه اثنان من ادباء مصر هما عباس العقاد و ابراهيم المازني ، وهذه التحية لمدرسة الجيل الجديد من ميخائيل نعيمة توضح لنا العلاقة بين مدرسة الجيل الجديد ومدرسة المهجر . . . تلك العلاقة التي بدأت في عام ١٩٢٣ عندما أراد نعيمة أن يطبع كتابه في مصر وطلب من الناشر أن يقدم الكتاب للعقاد ليكتب مقدمته ، وكان الكتاب يشتمل على التحية السابقة (٣٧) .

ويتضح مما سبق أن شعراء المهجر ونقادهم ، كانوا يقرأون ما يكتبه دعاة مدرسة الجيل الجديد ، ويعجبون بهجومهم على مدرسة الأدب التقليدي ، والدعوة إلى أدب جديد ، ولعل هذا ما دعا إليه الغربال بعد ذلك (٣٨) .

والمطلع على كتاب نعيمة « الغربال » يرى أن العقاد قد كتب مقدمته ، ورد على تحية نعيمة السابقة ، واستهلها بشكر نعيمة والناشر اللذين أتاحا

(٣٥) ميخائيل نعيمة : الغربال ص ١٨٣ .

(٣٦) ميخائيل نعيمة : الغربال ص ١٨٣ وما بعدها .

(٣٧ ، ١٨) راجع : العقاد يتحدث عن النقد والنقاد ، لعبدالحى

دياب بمجلة « المجلة » الصادرة في أبريل سنة ١٩٦٢ .

له فرصة الاطلاع الذى تزود به في رحلته الى أسوان ، ولأن قراءة الغربال من الوجهة الاخرى دليل من دلائل القرابة الفكرية ، ووثيقة نسب جديد من أنساب الادب ، وفيها يقول : « لو لم يكتب قلم النعيمي هذه الآراء التى تمثل للقارىء في هذه الصفحات ، لوجب أن أكتبها أنا ، فأما وقد كتبها وحمل عبثها ، فقد وجب على الاقل أن أكتب مقدمتها (٣٩) » .

ويعلل العقاد القرابة الفكرية بينه وبين نعيمة بأنه لو كان هناك نفس في المريخ خطر في ضميرها مثل الذى يخطر في ضميره ، لكانت ألصق به ، وأوفى رحما ممن يلونه ويجاورونه على فرقة في الرأى والاحساس ، ولو أن قائلا جمعه بالعقاد الفكر والهوى لما كان غريبا عنه ، وان فرقتهما لعة ، وباعد بينهما زمان وموطن ، فكيف بميخائيل نعيمة وهو يكتب باللغة التى يكتب بها العقاد ، وينتمى الى جانب الارض التى ينتمى اليها (٤٠) ؟؟

على أن العقاد يؤكد تلك القرابة الفكرية حينما يذهب الى أنه وقع من قراءة « الغربال » على قرابة صحيحة ، وجوار ملاصق في الحى الذى يسكنه العقاد من هذه الدنيا الجديدة ، وذلك لانه رأى قلما جاهدا في طلب الشعر الصحيح شعر الحياة ، لا شعر الزخافات والعلل ، رأى هذا القلم ينعى على الشعر الرث الذى تركنا بلا شعر ، ولم يبق في حياتنا ما ليس منظوما سوى عواطفنا وأفكارنا (٤١) .

ويرى الدارس أنه ليس معنى قرابة المدرستين ان احدهما وليدة للآخرى ، وان تبادلنا التحية والتأييد ، وانما قد نبعتا تلقائيا ، وسارتا متوازيتين ساعتين الى هدف موحد ، هو الهجوم السافر على مدرسة الادب التقليدي ، والدعوة الى أدب جديد .

ويستدل الدارس على ذلك بأن الباعث على هذا الهدف هو ظروف متشابهة هي اتصال دعاة كل منهما بالآداب والثقافات الاوربية ، ثم احساس

(٣٩ ، ٤٠ ، ٤١) راجع : عباس العقاد في مقدمة « الغربال » لميخائيل نعيمة صفحة ٧ وما بعدها ط المطبعة العصرية سنة ١٩٢٣ .

دعاة كل منهما بأن اتجاهات الادب العربي التقليدي لم تعد تكفي حاجات العصر المتطورة ، لان كل انسان من الدعاة في حاجة الى أن يطبخ بنفسه وأن يأكل بملاعق من صنع يده لا من صنع أجداده على حد تعبير نعيمة (٤٢) .

ومن هنا بدأ كل منهما يحيي الآخر تحية حارة ، ويشد على يده على بعد المزار ، مع تبادل الرسائل بينهما ، ولم يحدث لهذين الاديبين الناقدين التقاء شخصي الا في مؤتمر الادباء العربي الذي انعقد في القاهرة في ديسمبر سنة ١٩٥٧ ، فالتقى العقاد بميخائيل نعيمة ومعه الياس فرحات والدكتور محمد مندور (٤٣) .

ويعلل الدكتور مندور التقاء المدرستين في الدعوة الى التجديد في الشرق العربي وفي المهاجر في شعر الوجدان الذاتي ، بأنه يرجع الى أن المدرستين قد قامتا في زمن أخذ الوعي القومي ينتشر فيه فيعكس على الافراد احساسا قويا بذواتهم ورغبة عارمة في تأكيد تلك الذوات ، ولا سيما أنهم قد اطلعوا على الآداب الغربية والشعر الغربي بالذات ، وأحسوا ببض قائله (٤٤) .

ويرى الدارس أن الشعر الغنائي هو الميدان الخصب للتجديد لما يحوي من القيم الفنية الموروثة ، وزلزلة هذه القيم من أذواق الجمهور واحلال قيم أخرى في هذا الفن أمر جد عسير ، يحتاج الى صبر وعزم وجلد على ما يواجهه به الدعاة من عداوة وشحناء واحتراب حول القديم والجديد (٤٥) .

(٤٢) حديث شخصي مع العقاد ، وناقش هذه العلاقة بين المدرستين الدكتور مندور في مجلة « المجلة » الصادرة في أبريل سنة ١٩٥٩ .

(٤٣) راجع : حديثنا مع العقاد في « المجلة » الصادرة بتاريخ ابريل سنة ١٩٦٢ ، ومجلة « المجلة » للدكتور محمد مندور الصادرة في أبريل سنة ١٩٥٩ .

(٤٤ ، ٤٥) راجع : « المجلة » الصادرة في أبريل ١٩٥٩ .

ويقودنا الانصاف لمدرسة الجيل الجديد أن نقرر أنها قد ابتدأت عملها منذ عام ١٩٠٧ في صحيفة « الدستور » بيوميات العقاد التي أشار إليها المازني والتي وقفنا على بعض المبادئ التي تحدثنا عنها في فصل « كفاح قلم » ، هذه اليوميات كانت بداية اقتحام المذهب الجديد على حد تعبير المازني ، كما ابتدأت المدرسة عملها كذلك بصدور الجزء الاول من ديوان شكري « ضوء الفجر » الذي صدر في عام ١٩٠٩ ، وقد كتب العقاد في ذلك الوقت عن الشعراء القدامى والمحدثين في صحيفة « الدستور » واشتجر مع الادباء الذين كانوا يتربعون على عرش الادب حينذاك ، واشترك معه اخوانه في ذلك الشجار واقتسموا الادباء فيما بينهم ، فتناول كل منهم أديب ، فكان شوقي من نصيب العقاد ، وطه حسين من نصيب شكري (٤٦) ، وحافظ تولاه المازني ، وان كان هذا التقسيم اعتباريا بحيث لا يمنع أن يعرج أحدهم بالنقد على فريسة صاحبه .

وفي مقام التدليل على ذلك نقول : انه بالرغم من نقد المازني لحافظ الذي نشره تباعا في صحيفة « عكاظ » ، فان العقاد قد تناول حافظا تحت عنوان « الشعراء الندابون » في « عكاظ » كذلك في عام ١٩١٤ ، وتناول كل من المازني والعقاد طه حسين بالنقد أيضا .

ومعنى هذا أن الاتجاه الذي قام به دعاة مدرسة الجيل الجديد قد أرسوا قواعده في ذلك الوقت ، وكان له أنصار ، وقام دعاة هذا الاتجاه بنقد بعضهم لبعض ، وتقديم أعمال بعضهم بغية انتشاره وتدعيمه .

وفي اعتقادنا أن كتاب « الديوان في الادب والنقد » الذي ألفه العقاد والمازني ليس هو أول عمل نقدي قامت به تلك المدرسة ، ومن هنا فان قول الدكتور مندور بأن قيام المدرستين كان في زمن واحد من باب

(٤٦) من الطريف في هذا الموضوع أن طه حسين رد على شكري بالشعر قائلا :

قل لشكري قد غلا وتمادى بعض هذا يشفي الفؤادا
أنت في الشعر والنشر أديب لا يعجز النقادا

التجاوز ، لأنه اعتمد فيه على نشر كتابي « الديوان » و « الغربال » • مع
أن الواقع بجانب هذا القول ، لان العقاد وزملاءه قد صدرت لهم قبل
« الديوان » دراسات عديدة في النقد الادبي ، والدواوين التي كانوا
يقدمونها لبعضهم البعض ، ويوضحون فيها اتجاههم الجديد ، كما أن
كتبهم التي صدرت بعد عام ١٩٢١ - وهو عام نشر الديوان - كان معظمها
قد نشر على هيئة أبحاث في الصحف قبل ذلك •

* * *

الفصل الخامس

في عالم السياسة

١ - منهجه السياسي :

يرى العقاد أن السياسة على صلة بالادب كما يعرفه ويميل إليه ، إذ أنها تستهويه بمبادئها الانسانية المطلقة ، لا بمبادئ العنصرية الضيقة ، وتتصاه بالنظرة الجمالية الفنية لا بالنظرة التي تحصر الحياة في الانظمة والقوانين (١) .

ومن ناحية أخرى يذهب الى « أن تشبع قلب الانسان لاحد الموقفين في حادثة من حوادث التاريخ أو قصة من قصص الخيال حين يرى أحدهما في جانب الضعف والمروءة ، ويرى الاخر في جانب القوة والخسة » يرى أن هذا التشبع من قبيل السياسة الادبية ، أو من قبيل الادب السياسي ، لان العدة التي ينزل بها الاديب الى ميدانه لا تختلف عن عدة السياسي حين ينظر بتلك العين الى ذينك الموقفين ، وكذلك كنت وأكون في سياستي التي أشتغل بها ، وكأن الادب عندي شجرة طعمت بغصن من السياسة ، فتغير طعم الثمرة بعض الشيء ، ولم تتغير التربة ولا الجذور (٢) وتأسيسا على هذا الفهم رأيناه ينص على كثير من المشتغلين بالسياسة في مصر ، الذين يتدلهون بطلعتها ، ويهيمون بشمائلها ينعى عليهم فهمهم لها على انها اصوات واحزاب ، وقوانين وشرائع ، ومعارضة وتأيد ، وان الامور التي تطرح في معترك الاحزاب هي الامور التي تدور عليها حقائق الحياة وأسرار الوجود واحكام القضاء .

(١ ، ٢ ، ٣) عباس العقاد : مراجعات في الاداب والافنون ص ٢٤

وما بعدها .

على أن العقاد يصف هذا النوع من السياسيين الذين ينكبون على
الاشتغال بالسياسة هذا الانكباب ، بأنهم كمن يطعن في الهواء ، أو يقبض
على الماء ، أو يجري في دائرة مسدودة بلا انتهاء (٣) .

ويرى الباحث أن الباعث على فهم العقاد للسياسة وعلاقتها بالادب
على هذا النحو ، هو تفرغ نفسه للادب ، إذ انها قصرت عليه سرائرها ،
ومحضته زبدة ودائعها ، واتخذت منه محرابا تتوجه اليه ومعقلا تلوذ به ،
ولذا فانه حينما رأى الوطن يمر بالازمات السياسية جند نفسه للدفاع عن
قضيته التي يناضل من أجلها ، ومن هنا جاءت كتابته السياسية متممة
بالطابع الادبي ، ومعتمدة على ملكته النافذة منذ فهم السياسة واشتغل بها ،
وذلك ما دفعنا الى الحديث عنه في ميدان السياسة (٤) .

والدارس للعقاد السياسي يرى أن العصر الذي نشأ فيه كان عصرا
مضطربا مزيجا بين عنصرين ، ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على
رأي واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما وافقها وتوافقته من
التفكير الحديث .

ويصف هذا العصر بأنه كان « برج بابل » يبني ويعاد بناؤه بين عام
وعام ، فلم تمتحن فيه العقول بعد بمحنة المحن في العصر الحديث : محنة
تكوين الرأي جماعات وجماعات ، فلا ينطوي الشباب في جماعة صاحبة
حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها ، فهو مع جماعته ، ينطوي فيها،
يقبل خطأها كما يقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الاخرى يرفض
صوابها كما يرفض خطأها ، وانه لخاسر مضلل في كلتا الحالتين (٥) .

ذلك أن الجامعة الاسلامية - كما يقول العقاد في وصفه لهذه
الفترة - كانت على مذاهب ، والجهاد الوطني على مذاهب ، والتجديد
وكلها مشكلات ..

الفكري على مذاهب ، ولا نرى أمانا واحدا في قضية من قضايانا الكبرى،

(٤) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٥) راجع آخر ساعة الصادرة في ٢١ أغسطس ١٩٥٧ العدد ١١٩١

فالجامة الاسلامية مدرستان : مدرسة جمال الدين ، ومدرسة
الدعاة الرسميين ، مدرسة جمال الدين تعني بالجامة الاسلامية أن تكون
جامعة شعوب متيقظة مسئولة عن شؤونها ، مرعية الحقوق مع ملوكها
وامرائها ، فضلا عن حقوقها مع الطامعين المتربصين بها . ومدرسة الدعاة
الرسميين تعمل للملوك والامراء ، وتريد من الجامة الاسلامية أن تكون
وحدة سياسية بزعامة هذا الخليفة أو ذاك من ملوك المسلمين ، وأعلامهم
صوتا في مصر من كان يعمل لخليفة بني عثمان (٦) .

ومدرسة الجهاد الوطني على هذا الحال ، مذهب يعتمد على مناورات
الدول وحقوق السيادة الشرعية ، ومذهب يستشف هذا الرأي ويحسب
العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ، وبخاصة في أمر التعويل على
السيادة العثمانية ، لان حقوق هذه السيادة لم تكن عصمة للمعتمد عليها ،
بل كان مجرد الانتماء الى الرجل المريض صاحب التركة المنتظرة - كما
كانت الدولة العثمانية تسمى في ذلك الحين - ذريعة الى ضياع البلد في
معركة النزاع على التركة ، أو في مساومات التقسيم والتفريق (٧) .

وفي خضم هذا التيه بين مهابطه ومراقبه اتت ابنت الطفل الناشء حيرة
وشك وعثرات وازمات ، ولكنه استطاع ان يصل الى قرار واضح في كل
قضية من هذه القضايا حين بلغ السادسة عشرة من عمره ، بعد حصوله على
شهادة اتمام الدراسة الابتدائية مباشرة .

وهذا القرار الواضح يمثل - كما يقول العقاد - « في أن الجامة
الاسلامية عنده هي جامة جمال الدين الافغاني ، أو جامة شعوب
متيقظة متعاونة لا جامة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة ، أو
تخليف ذلك السلطان .

« الدولة التركية تمنى بقاءها وصلاحتها ، ولكننا لا تمنى سيادتها ،
ولا نستمع لمن يحاربها باسم الشورى أو النعمة على الاستبداد .

(٦ ، ٧) راجع : آخر ساعة الصادرة في ٢١ اغسطس ١٩٥٧ ،

« الدولة الاجنبية لا تتفعا ان تنفع أنفسنا ، وسياسة « مصر
للمصريين » هي أقوم سياسة يتبعها المصريون ، ويهتدون بهديها فيما لهم
من حق وعليهم من واجب .. الحزب الوطني حزب مخلص مجتهد ،
ولكنه مفرط في مجاملة « يلدز » و «عابدين» ، مقصر في مساعيه نحو
« مصر للمصريين » (٨) .

وعلى هذا الاساس فهم العقاد ان الملوك والامراء يخدمون القضايا
القومية بمقدار ما تخدم عروشهم ، فان تلاقت مصالحهم ومصالح الوطن
فجبا وكرامة ، وان تشعبت الطريق بين هذه المصالح وتلك المصالح فلا
خفاء بالطريق القويم .

كما فهم العقاد ان الحكم الدستوري لا غنى عنه ، ولا وجه للمقارنة
بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الاحوال .

ومن ثم كانت كتابة العقاد - فيما بعد - في صحيفة « الدستور »
لا تخرج عن هذا النطاق ، في فهمه للمسائل السياسية والفكرية حول أي
قضية من هذه القضايا ، اذ أنه لم يمدح الخليفة عبدالحميد الا في مناسبة
واحدة هي اعلان الدستور ، وحينذاك هنأ العقاد بأبيات سجل فيها تاريخ
السنة بحساب الحروف الابدجية فكان التاريخ هذه الشطرة : قد أنشأ
الدستور عبدالحميد .

ومجموع حروفها بحساب الجمل (١٣٢٦) ، وهي السنة الهجرية
التي أعلن فيها الدستور ، بل أن تنفيذ هذا البرنامج السياسي الصحفي
على هذا المستوى من الفهم قد أحدث بينه وبين الاستاذ فريد وجدي
- حينما كان يعمل في صحيفة الدستور - سوء تفاهم انتهى بمقاطعة
العقاد لصحيفة الدستور حيناً من الدهر (٩) .

ومضى العقاد غير عابىء بما يصيبه من جراء تنفيذ هذا البرنامج
السياسي في مشكلات هذه الحقبة وأزماتها جميعا ، بالرغم من أنه لم يتعد

(٨ ، ٩) راجع آخر ساعة الصادرة في أغسطس ١٩٥٧ العدد ١١٩١

العشرين من عمره بعد ، ومع ذلك استطاع أن يسلك مسيله بين تلك النقائص والشبهات دون أن يروض نفسه على استقامة القصد الى الحقيقة واستقلال الرأي بين شتى الدوافع والمغريات مستفيدا في ذلك كله من ظروف تلك الآونة التي نشأ فيها^(١٠) .

وهذه الظروف بعينها كانت منطلقا لان يفكر العقاد في الحكم وأشكاله في مصر والشرق بأسره اذ أنه يرى أن شكل الحكومة لم يكتسب شيئا من تعديلاته وادواره في الشرق كله . لا قديما كما كان يقع مرارا في روما واليونان ، ولا حديثا كما وقع في فرنسا وانكلترا من التجارب المتتابعة وراء تكوين الحكومة الصالحة ، ذلك بالرغم من أن الارتباك والضغط اللذين كانا يثيرانهم الى قلب الحكومات قد نزل أضعافه بالشرقيين ، ولكن مع هذا الفرق اليسير ، وربما كان الجمود على شكل واحد من أشكال الحكومة ناشئا من انطباع الشرقيين على قلة الاهتمام بالعموميات لتمهيد الوسائل الخصوصية ، فاذا استولى أحدهم على الملك استقر له الامر وانقاد له الجميع ، وكثيرا ما يتفق أن خادما من خدام البلاد يسط نفوذه في المملكة فيغتصب الملك لنفسه ، ويبقى الحاكم المتصرف الى أن يزحزحه عن مكانه مقتصب آخر يأس من نفسه الصولة والنفوذ ، والناس بمعزل عن هذه الانقلابات يسلمون بها ولا يشتركون فيها^(١١) . ويرى العقاد كذلك أن حكومة الشرق لا تركز على الشعب فلا تتحول باختلاف مصالحه ، ولا الشعب يعتمد على اختلاف هيئاتها فقد انشئت نفسها بقوة ساعدها ، ولم ينشئها الشعب كما هو شأن الحكومات في المغرب وقد شدت أزرها في كثير من المواقف بالسلطة الدينية التي رأت من مصلحتها أن تبادل وأياها المعاضدة والتناصر ، فجمدت جمود عقائد الاديان في وهم الانسان^(١٢) .

على أن العقاد يعلل انعزال المصريين عن ميدان السياسة آنذاك ، بأن المصري منهم لا يربطه بالمجتمع النظام السياسي والمراسم الحكومية ، وقد

(١٠) راجع اخر ساعة الصادرة في ٢١ أغسطس ١٩٥٧ .

(١١ ، ١٢) راجع خلاصة اليومية ص ٦١ .

ما يربطه بذلك المجتمع انتظام العادات والعلاقات • فلم تكن الحكومة في تلك الأزمان الطويلة لتمتاز بنفسه فقط امتزاج الالفه والطواغية والمعاملة المشكورة ، بل ربما كان صدوده عن الحكومة مما ضاعف اعتماده علي والافتحام ، فالبقاء في الصفوف أيسر عنده من التفرد باعتساف الطريق (١٤) •
ومن هنا يحدد العقاد الباعث عن انقياد المصري للسياسة ، حيث يتمثل في أنه ينقاد لان الطاعة أشبه بنظام الاسرة من جهة ، ولان أزمة الركود الطويلة من جهة أخرى ليس من شأنها أن تبعث روح الابتداء والافتحام ، فالبقاء في الصفوف أيسر عنده من التفرد باعتساف الطريق (١٤) •

ومهما يكن من أمر تعليل العقاد لانعزال المصريين عن السياسة ، واستئثار الافراد بالحكم في مصر والشرق على سواء ، فان الحقيقة التي تبرز من وراء ذلك هي حب العقاد وتقديسه للديمقراطية التي تقوم على أن الامة مصدر السلطات وأن الحكم لا بد أن يرتكز على الشعب • ولا تقوم الديمقراطية الا على حرية الافراد والشعب على السواء في ابداء آرائهم • وهذه الحقيقة هي التي كافح العقاد من أجلها طوال حياته ، ووقف عليها جهاده وتفكيره السياسي •

ومن امارات ذلك وقوفه ضد مدير أسوان ابان الحرب العالمية الاولى ، وقد أحس الناس بوطأة الاحكام العرفية في هذا البلد النائي على طرف الصعيد الاعلى ، اذ كان المدير مطلق التصرف في الاوقاف التي تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون الادارية في الاقاليم (١٥) •
ومن ثم فان العقاد نظم قصيدة مثورة سماها « نادي العجول » لان النادي كان للسلطة الحاكمة ، وسراة القوم في المدينة ، وكانت تدبر فيه مؤامرات السلب عن طريق المساومات والالاباب • وكان الحضور فيه مفروضاً على بعض الناس في ساعات معدودة كي يخلو الجو لبعض الناس الآخرين في تلك الساعات •

(١٣ ، ١٤) راجع : سعد زغلول سيرة وتحية للعقاد ص ٢٥-٢٧ •

(١٥) راجع اخر ساعة الصادرة في ٢٣ أكتوبر ١٩٥٧ •

والسر في تسمية العقاد لهذا النادي « بنادي العجول » ، أن رؤسائه كانوا من أصحاب الوزن الثقيل ، ولأنه حظيرة من حظائر الدواب الأدمية لا تخلو من القرون .

وقد كتب العقاد مقالة وتناسخه الادباء وأرسله الى الصحف ، وقرأه النادي كله في جلسة حافلة من جلساته ، وتقرر في تلك الجلسة مصير الفضولي الجسور الذي يجترى على ذوات القناطير المقنطرة من الشحوم واللحوم^(١٦) .

ويتمثل ذلك المصير في نفي العقاد الى مالطة ، وقاموا بمراقبته تمهيدا لنفيه ، فلم يكثر العقاد لهذه الرقابة ، ولا لذلك التقييد ، لانه بطبيعته كثير العكوف في المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة في الخلاء أو في النيل .

ولم تقف حيل مدير أسوان وألعيه في التنكيل بالعقاد الى هذا الحد ، وانما أوقع بينه وبين مفتش الداخلية الانكليزي مدعيا أن العقاد يتهم المفتش بالرشوة وأنه يقاسم الموظفين أتاوات السلطة على وظائف العمد والمشايخ ، و « تبرعات » الاعيان وصفقات التموين . . ولم يكذب المفتش ما ادعاه المدير على العقاد ، لان العقاد كتب في هذا الموضوع ، وأخذ يقول ويعيد القول أن المفتش الانكليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرءوسيه . ومن هنا استدعى المفتش الانكليزي العقاد الى ديوان المديرية ، وقال له فيما قال في حديث طويل باللغة الانكليزية : « لا يوجد انكليزي مرتش في الحرب ولا في السلم » . فرد عليه العقاد بقوله : « ان الانكليز جديرون بالتهنئة بعد حرب الترنسفال ، وكانت هذه الاجابة كفيلا أن تجعل المفتش الانكليزي يقف بجانب المدير في طلب اعتقال العقاد لولا هروبه الى القاهرة كما سبق أن بينا ذلك^(١٧) .

على أن حبه للديمقراطية هو الذي جعله كذلك يصطدم بالرقب

(١٦) راجع ص من هذا الكتاب .

(١٧) اخر ساعة في ٢٣ أكتوبر ١٩٥٧ .

العام الانكليزي بوزارة الداخلية ، حينما عين العقاد رقيباً على الصحف ،
مؤامرات السلب عن طريق المساومات والالاب .
اذ أخذ عليه الرقيب « مستر هورنبور » بعد ثلاثة أيام من تعيينه أنه
ترك كثيراً من الاخبار التي أعدها له في رزمة من جزازات الصحف
اليومية والاسبوعية ، فقال له العقاد بعد ارجاء النظر فيها ، انني تركتها ،
لانها تباح فيما اطلع عليه من الصحف الانكليزية ، وبإباح لتلك الصحف
ما هو أخطر منها بكثير ، فصاح به الرقيب العمام المتهم . . الصحف
الانكليزية ؟ نم أردف قائلاً : هل أنت من الحزب الوطني ؟ فقال له
العقاد : أنا مصري وطني بطبيعة الحال . . وانهت المشادة بينهما بأن
ترك العقاد هذا العمل بناء على استقالته التي طلب من الرقيب العام قبولها (١٨) .
وهذا الحب للديمقراطية المؤسسة على الحرية هو الذي جعله
لا يلبي دعوة أحد المسؤولين الانكليز ومعه الشيخ الغنيمي التفتازاني ،
في مكتب الدكتور يعقوب صروف في دار المقتطف ، حينما طلبا منه أن
يكتب عن حالة الحدود الشرقية ابان الحرب العالمية الاولى للصحف
المصرية ليعيد الطمأنينة الى نفوس الناس . . فقال لهم العقاد : « أنني
لا أكره أن أثبت الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم
اذا كان المصريون هم الذين يقومون بأعباء هذا الدفاع ، أما وهو - كما
يحدث الان - من عمل دولة الحماية فليس من المعقول أن أرفض الحماية
وأقبل دفاعها ، (١٩) .

ولم يعقب أحد من الحاضرين في تلك الجلسة بكلام يخالف هذا
المعنى غير الشيخ التفتازاني ، فانه طفق يقول ويعيد يا سيدي فيها ايه ؟
وماذا في ذلك يا سيد عباس ؟ أليس المهم الان أن تطمئن النفوس على
الحدود ؟ فلم يجبه العقاد وانصرف (٢٠) .

كما أن تقديسه للديمقراطية والحرية هو الذي جعله يلقي بنفسه
في غمار ثورة ١٩١٩ ليحرر هو وزميله المازني منشورات جماعة « اليد

(١٨ ، ١٩ ، ٢٠) اخر ساعة في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٥٧ العدد ١٢٠١ .

السوداء» السرية ويكتبان في الصحف مقالات نارية ملتهبة ، حتى تقرر فيهما على يد وزير الداخلية « ثروت باشا » الذي استقال في هذه الفترة ، ولولا استقالته ، لحل بهما قضاء النفي والتشريد ، لان رصيدهما في الاتهامات كان وافرا بحمد الله ، اذ حامت حولهما الاتهامات في حوادث الاغتيالات التي وقعت حينذاك بدعوى ايفار الصدور واثارتها للشعور العام .

وقد وقف وقفة رائعة من لجنة « ملنر » التي جاءت الى مصر بعد ثورتها - ابان نفي سعد زغلول - لتقف على مطالب المصريين في ظاهر الامر ، ولتخدعهم عن استقلالهم وحريتهم في الحقيقة ، فاذا « باللورد ملنر » يرى أن الروح المصرية على غير ما كان يعدها في أيامه السالفة بمصر ترغب رغبة صادقة في أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر قائمة على اتفاق ودي يزيل أسباب الاحتكاك ، ويمكن الامة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقية شؤون البلاد في ظل أنظمة دستورية Self Governing Institutions وهذه الترجمة من وجهة نظر العقاد غير دقيقة ، ولذا فانه قام بترجمتها ترجمة صحيحة ونشرها في الاهرام آنذاك وهي أنظمة « حكم ذاتي » . وكان هذا الاختلاف في الترجمة هو محور الاختلاف بين خطة سعد وخطة عدلي حيال اللجنة (٢١) .

وفيما يتصل بتعديل دستور سنة ١٩٢٣ ، كانت للعقاد وقفة رائعة ، اذ أنها قضت على المؤامرة التي كانت تدبر في الخفاء للتوسعة في حقوق الملك في التبعية الوزارية وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ وحذف مادة « الامة مصدر السلطات » وذلك لان الملك والانكليز اتفقا على استرضاء من بقي من رجال الوفد بعد نفي سعد وأصحابه في المنفى ، وادخال البقية الباقية من أعضاء الوفد البارزين في السجون والمعتقلات ، لكي يرضخ هؤلاء

(٢١) راجع سعد زغلول صفحات ٢٨٠-٣٠٣ ، ٤١٩-٤٢٧ ، وانظر كذلك صفحة ٢٩٥-٢٩٧ من « العقاد دراسة وتحيية » تحت عنوان « العقاد محطم الاصنام » للاستاذ محمد خليفة التونسي .

الوفديون الباقون عن التعديل المرغوب ، ومن ثم لا يكون اعتراض على ما تم الاتفاق عليه بين الملك والحكومة النسيمية وممثلو الامة الباقون من رجال الوفد ، ولكن العقاد استطاع أن يحبط هذه المساعي الجارية بمقالتي نشرهما في جريدة البلاغ آنذاك ، وفحواهما الإبقاء على الدستور كما وضعته اللجنة دون أن يمس حرف فيه بتعديل ، وأنه إذا لزم تعديله فليكن ذلك من أعضاء أول مجلس نيابي تنتخبه الامة على وفق مانص عليه الدستور نفسه في أمر تعديله .

ومن هنا فات الامة الى ما يدبر ضدها في الخفاء بعد مقالتي العقاد اللتين كانتا دافعتين لاعداء الحكومة ليكيدوا لها مستنديين في ذلك الى الامة وسرت الحملة على التعديل من مصر الى بريطانيا فكسبت الصحف البريطانية وفي مقدمتها « التيمس » ، تهمة الملك فؤاد بتعطيل الدستور فاضطر الى اصداره بحروفه (٢٢) .

ولا يقبل من الدستور أن يكون تبعه على المصريين ، وألا يصيهم منه الا الاباطيل والاوهام ، اذ كتب ابان أزمة الجيش في جريدة «البلاغ» في عام ١٩٢٦ يقول يلوحون لنا بعهد «كرومر» والغاء الدستور ، وما عهد «كرومر» بشر من دستور كهذا لا ينال المصريون منه الا التبات الجسام ، ولا يجنون منه الا الاباطيل والاوهام . فاما أن نسلم للانكليز بكل زعم يزعمونه وكل مطلب يدعونه ، واما أن ينسخوا الدستور ويعبثوا بالعلاقات بين الشعب والعرش والبرلمان ، ثم ماذا نأخذ من هذا الدستور الذي يسوموننا فيه هذا السوم الغشوم ؟ لا شيء على الاطلاق . نعم لا شيء الا الضرر والمحال مشفوعا بالفرقة والانقسام ، (٢٣) .

ويرى الدارس أن العقاد كان في مقالاته السياسية جبارا في منطقته ساخرا في أسلوبه ، اذ أنه كتب يندد فيها بمنهج محمد محمود باشا

(٢٢) راجع سعد زغلول صفحات ٢٨٠-٣٠٣ ، ٤١٩-٤٢٧ ، وانظر كذلك صفحة ٢٩٥-٢٩٧ من « العقاد دراسة وتحية » تحت عنوان « العقاد محطم الاصنام » للاستاذ محمد خليفة التونسي .

(٢٣) عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ص ٤٩٧ .

رئيس الوزراء الذي أعلن أنه سيحكم البلاد بيد من حديد ، فنشر العقاد مقالة الساخر تحت عنوان « يد من حديد ولكن في ذراع من جريد » ، وقد تداولته الالسن في كل مكان ، فلم يعد صاحب اليد الحديدية يردد هذه الكلمة .

وبالإضافة الى ذلك نشر عدة مقالات يشبه فيها اسماعيل صدقي رئيس الوزراء في جبروته و سطوته « بشارلى شابلن » ، وقارن بينهما مقارنة طريفة في وقت كان الارهاب فيه على أشده ، وكذلك كانت تتابع مقالاته السياسية حاملة عناوين ساخرة من أمثال « طيب الكالوج لوزير المالية » و « علوبة يكره الاوباش » و « حلمي عيسى على الرابطة » و « الوزير الفرنسي » (٢٤) .

ومن ثم كان الجزء الرادع للصحف التي ينشر فيها العقاد هذه المقالات ، المصادرة والاعلاق كما حدث لجريدة « البلاغ » في عام ١٩٢٨ حين حمل العقاد على صاحب اليد الحديدية ، فأغلقت البلاغ ، وسبغ مجلات اسبوعية وراءها ، كانت تتداول الظهور أيام الاسبوع ، كل منها في يوم . فلما ترك العقاد التحرير في جريدة البلاغ لم تغلقها الحكومة حتى نهاية عهدها (٢٥) .

على أن العقاد قد ترك سخريته اللاذعة في مقالاته السياسية ، وراح يناقش الاستبداد فيما بعد مناقشة موضوعية من شأنها أن تبرز رأيه السياسي دون سخرية أو تهكم .

والمطلع على هذا النوع من المقالات السياسية يرى العقاد يذهب في مقاله تحت عنوان « ثورة الحرية في وجه الاستعباد » الى أن التاريخ لم يذكر أن شعبا من الشعوب قابل السلطان الاجنبي الطارىء على البلاد بالترحاب والتسليم الا أن يكون فيه انقاذ له من سلطان أجنبي آخر يسيء اليه ولا يستطيع التمرد عليه . . وذلك لان الحرية في جوهرها قديمة متأصلة في الطباع الانسانية ، وثورات الامم التي صودرت حريتها قديما

(٢٤ ، ٢٥) راجع : العقاد دراسة وتحية ص ٦٤ ، ٢٩٧ .

لا تقل عن ثورات الامم الحديثة في هذا السبيل ، وكل ما هنالك أن فهم الحرية يختلف بين عصر وعصر ، وبين قبيل وقبيل (٢٦) .

ويرى العقاد أن الجديد في العصر الحديث أن الاستبداد قد أفلس وفقد الثقة بحقه وبمصلحته ، وأن طلاب الحرية قد خلفوا الاستبداد على عروش الخاوية ، ولا يزالون يخلفونه على البقية التي تماسك بعض التماسك بقوة العادة والاستمرار . كما أن أحوال العالم لا زالت تتطور وتتحول حتى أصبح الاستبداد عملا كثير الكلفة قليل المنفعة ، وحتى أصبح استخدام الجيوش في اخضاع الامم المستعبدة يحتاج الى ضرائب وقوانين تجنيد ومصادرة حريات في بلاد المستبدين أنفسهم قبل مصادرة الحريات في بلاد المحكومين المسخرين (٢٧) .

ومعنى هذا في تصور العقاد أن أطوار التاريخ انتهت بنظام الحكم المطلق ونظام الاستعمار ، فبطل ايمان المستبد بحقه الالهي في سياسة شعبه على هواه ، وبطل ايمان المستعمر بأمانة « الجنس السيد » كما كانوا يسمون الاوربيين ، ومن هنا اجتمعت العوامل المتعددة على أفلاس الاستبداد والاستعمار ، ولم يبق ما بقي منها الا بحكم العادة والاستمرار أو بوصفه أثرا من الاثار التي لا بد أن تصير الى الزوال (٢٨) .

على ان شعوب هؤلاء المستبدين قد تعلمت - من وجهة نظر العقاد أن الغالب الظافر في العصر الحديث هو الذي يؤدي الثمن ويحمل الثمن ويحمل العبء ويتكفل بمعيشة المغلوب المستسلم للظافرين عليه ، وقد تعلمت كذلك أن الاجناس « المتأخرة » تقدم وتطلب حقها وأن اخضاعها يتطلب سلاحا لارهابها ، وسلاحا لدفع المنافسة بين الطامعين في بلادها ، وقد تربي النفقة على الكسب المرجو من تلك « العملية » المرهقة المحفوفة بالاختطار تارة من الثورات وتارة من الحروب ، وتارات شتى

(٢٦) راجع ، مجلة « الهلال » ، الصادرة في ١ يناير ١٩٥٢ .

(٢٧ ، ٢٨) المرجع السابق ونفس العدد .

من المقاتلة «السليية» التي لا تجدي الاسلحة في التغلب عليها (٢٩) .
وفي تصور العقاد كذلك أنه اذا كانت المشقة في اقناع المستعمرة
لابناء قومه كبيرة فلا جرم تكون المشقة أكبر جدا في اقناع المستعمر لمن
يستعمرهم ويعتدي على حريتهم وكرامتهم كما يعتدي على اقواتهم
وأرزاقهم ، وقد كانت الحرية عزيزة على المغلوبين يوم كانت الثورة على
النير الاجنبي مسألة كرامة ونخوة ، وانها لا عز عليهم جدا في هذا
الزمن بعد أن اصبحت مسألة كرامة ومصالحة وحكمة وهيهات أن يخضع
الانسان طويلا وهو لا يرى في خضوعه غير العار والخسارة وسوء
العقبى (٣٠) .

ويدفع العقاد شبهة ربما تدور بخلد بعض الناس حينما يتصور
أحدهم ان زوال الاستبداد قد يكون لان عصرنا خلا من جبايرة الرجال
القادرين على الطغيان والتعسف بالشعوب ، يدفع العقاد هذه الشبهة لان
زوال الاستبداد منوط بأن عصرنا خلا من الرعايا الذين يقبلونه ويجدون
العزة والمصلحة في قبالة ، وربما كان من جبايرة الثورات
المحدثون أقدر من جبايرة الطغيان الاقدمين ، فما خلت الدنيا
من الجبايرة وفيها أمثال غاندي ، وشيان كاي شك ، ومصطفى
كمال ، وسعد زغلول ، وجناح ، وسوكارنو وغيرهم من أصحاب
« الشخصيات » التي توصف بالجبروت من نوع غير نوع الجبروت
الذي وصف به قديما أمثال قيصر ، واسكندر ، وأتيلا ، وجنكيزخان ،
بل زال حق الاستبداد في نظر نفسه ونظر الخاضعين لسلطانه ، فكان
جبايرة اليوم جبايرة تحرير ودعوات وطنية أو عالمية ، من حيث كان
نظراؤهم بالامس جبايرة طغيان وتسخير (٣١) .

ويخلص العقاد من هذه المقالة الخطيرة التي قيلت ابان عسف
فاروق وجبروته وتعاونته مع المستعمرين قبيل قيام الثورة بشهور وقبل
حريق القاهرة بأسابيع ، يخلص العقاد من هذا كله الى أن الحرية في

(٢٩ ، ٣٠ ، ٣١) راجع : الهلال الصادرة في ١ يناير سنة ١٩٥٣ .

عصرنا هذا قد « أرسلت طابورها ، الخامس الى معسكر الاستبداد
فصرته بيده وسلاحه ، فاذا أراد الاستبداد أن يعيش فعليه أن يستبد
بمعسكره قبل أن يستبد بضحاياه من الغرباء ، فهل في طاقته أن ينقسم
وأن يضاعف أعباءه في وقت واحد .

« ان الحرية أيسر على طلابها اليوم ، وان الاستبداد أصعب على
طلابه وأعظم كلفة وخطر ، وكفى بذلك كسبا للانسانية نرجو ان
تعهده فيزداد ولا يخشى عليه انتكاس أو ارتداد (٣٢) .

ومهما يكن من أمر فان العقاد يعلل نشأة الاستبداد أو الدكتاتورية
ويحاول ان يعرف هل تنجح الدكتاتورية في مصر ، وذلك في مقال تحت
عنوان « هل تنجح الدكتاتورية عندنا ؟ » وفي هذه المقالة يرى العقاد
أن الاستبداد أو الدكتاتورية لم ينشأ على شكل من الاشكال في أمة
مستقيمة الامور موفورة الارزاق .

ذلك أن الحكومة المستبدة تنشأ في أمة مهزومة أو كالمهزومة ،
وتنشأ في هذه الامم بعد اضطرابات داخلية تهدد نظامها الاجتماعي
بالتداعي أو التقويض ، وتنشأ مع ذلك حين تكون القوة العسكرية هناك
راغبة في محو عارها واستئاف كرامتها ، مقرونة بالامثلة العليا والدعوات
القوية والعالمية ، ثم لا غنى لها في جميع هذه الحالات عن شخصية
موصولة بجهد قديم وعقيدة جديدة أو أمل جديد (٣٣) .

وتأسيسا على هذا الفهم يرى العقاد أن المانيا خرجت من الحرب
العظمى مهزومة ذليلة مثقلة بالمطالب عاجزة عن السداد ، ممزقة كذلك
بين الاشتراكية واحزاب المحافظين والعسكريين ، متحفزة للاخذ بالنار ،
مستعدة للفضب الوطني والنخوة القومية ، فلو نقصت الهزيمة أو نقص
هذا الدين الجديد المعوض لها من عار الهوان ومذلة الخضوع ، أو

(٣٢) راجع : الهلال الصادرة في ١ من يناير سنة ١٩٥٢ .
(٣٣) المرجع السابق بتاريخ ١ فبراير سنة ١٩٣٩ .

نقص « هتلر » وأصحابه ، لما تأتى قيام السيطرة النازية على النحو المعروف (٣٤) .

ومن ثم أخذ يعدد البلاد الغربية التي نشأت فيها دكتاتورية كذلك، وانتقل منها الى الشرق واستدل بتركيا وايران ، وكلتاها كانت تشكو من العسر والقلق والاختلاف بين القديم والحديث واختلال الامور بعد الحرب العظمى ما يهيء الطريق لقيام الحاكم الدكتاتور ، وكلتاها لم يكن على حالة من الحرية الصحيحة ، فانتقلت منها الى فقد الحرية وتوطيد الاستبداد ، بل قصارى الامر فيها أنهما انتقلتا من استبداد عقيم الى استبداد مشمر ، ومن طريق الرجعية الى طريق التقدم (٣٥) .

ويتساءل العقاد هل تقوم في بلاد الشرق الادنى دكتاتورية على مثال الحكومات التي من هذا القبيل في الامم الغربية الحاضرة ؟ والجواب السريع أن المقدمات اذا تشابهت فالنتائج تشابه لا محالة، وأن العوامل التي أقامت تلك الحكومات المستبدة يمكن أن تقيمها عندنا اذا تكررت على هذا المنوال في بلادنا الشرقية ، ولكن الامر المشكوك فيه ، هو تكرار هذه العوامل في بلادنا لاختلاف السوابق التاريخية والبواعث العصرية والآمال في المستقبل (٣٦) .

ومعنى هذا أنه اذا تقلبت الاطوار في بلادنا الشرقية تقلبا يلائم الدعوات الاجتماعية المتطرفة ، فالمرجح أن هذه الدعوات الاجتماعية المتطرفة تكون قد فشلت في ذلك الحين حيث ظهرت في البلاد الغربية فيؤدي فشلها هناك الى ضعفها وقلة الاصغاء اليها بيننا (٣٧) .

على أن الدكتاتورية لا تنشأ دون دكتاتوريين متصلين بدعوة وجهاد ، فاذا وجد الدكتاتوريون عندنا فما هي الدعوة التي يستندون اليها ، الرجعة الى القديم مستحيلة كل الاستحالة ، لاننا رأينا جميع الحاكمين بأمرهم في الغرب والشرق يهجرون القديم ، وقيمون

(٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧) راجع : الهلال الصادرة في ١ من فبراير سنة ١٩٣٩ .

شعائرهم على وجهة جديدة ، فهتلر وموسليني ، وستالين مغضوب عليهم جميعا من كهان العقائد القديمة ، ومصطفى كمال ، ورضا بهلوي لا يرجعان الى الوراثة ، بل ينطلقان في طريق يسميانه طريق التقدم والارتقاء ، وهو على كل حال ليس بطريق الشاهات والسلطين والخلفاء .

ويواصل العقاد حديثه ذاهبا الى أنه اذا كانت الدعوة التي يستند اليها الدكتاتور الشرقي عند وجوده بعيدة عن الحركات الاجتماعية المتطرفة وبعيدة عن الرجعة الى القديم فماذا عسى أن تكون ؟ (٣٨) .

أتراها تكون « عصبية وطنية ، عمياء وحماسة قومية هوجاء ؟

يرى العقاد أن هذه العصبية لا توجد الا في أمة مكظومة مهزومة مهددة في أرزاقها ، أما الامم التي لا تشعر بكظم الهزيمة والاهانة والجهاد المكبوت ، فهي كذلك لا تشعر بالمرارة التي تخلق العصبية العمياء والحماسة الهوجاء ، ولا سيما اذا تيسر لها الرزق ، وسلمت من الفوارق الاجتماعية التي تجعل ندرة الارزاق عند بعض الناس مسألة طائفية أو حربا كحرب الطبقات المعهودة عند جماعة الاشتراكيين (٣٩) .

ومن ناحية اخرى يرى العقاد أن الدكتاتورية اذا قامت في بلادنا الشرقية لم تقم على أساس وطيء ، وأوشك أن يبادر اليها التقويض قبل أن تفرغ من البناء . وأن كل تطور في أحوالنا يرجح أن يقربنا الى الديمقراطية ولا يخشى أن يقربنا من الدكتاتورية ، وتضاف الى عواملنا الداخلية في هذه المسألة عوامل السياسة الخارجية التي نحن مرتبطون بها ، اذ ان بلاد الشرق الادنى على صلة بالدول الديمقراطية ، وتقضى هذه الصلة بتشابه في النظم الحكومية لا تشذ عنه . ومن هنا فان الدكتاتورية لن تنجح في بلادنا الا اذا احتاجت بلادنا اليها ، ونحن حتى الساعة لا نرى لهذه البلاد حاجة ليست مكفولة التحقيق على أيدي

(٣٨) المرجع السابق ونفس العدد .

(٣٩) راجع : الهلال الصادرة في ١ من فبراير سنة ١٩٣٩ .

الحكومات الديمقراطية ، (٤٠) .

على أن العقاد لم يكتف في محاربة الاستبداد السياسي بالمقالات فحسب ، بل أنه أصدر كتابين في هذا الصدد هما « اليد القوية في مصر » و « الحكم المطلق في القرن العشرين » ، في عام ١٩٢٨ .

والذي يفهم من هذا أن العقاد وقف قلمه وفكره لمحاربة الاستبداد والسلطان والجيروت ، ومن هنا كان سجنه في ٣١ من سبتمبر سنة ١٩٣٠ بتهمة العيب في الذات الملكية ، على أثر مقاله في الاجتماع الخاص الذي عقد في البرلمان للنظر فيما يدبر للحياة النيابية .

وقد وقف العقاد في هذا الاجتماع خطيبا ، فأنحى باللائمة على أعداء الأمة وأعداء الدستور ، وجاء في هذه الخطبة الخالدة قوله : « ان الأمة على استعداد لان تسحق أكبر رأس يخون الدستور أو يعتدي عليه » (٤١) .

وعلى الرغم من معرفة الملك فؤاد الاكيدة أنه هو المقصود بهذا الكلام ، فانه لم يستطع أن يحاسب العقاد على هذا الكلام ، نظرا للحصانة البرلمانية التي كان العقاد متمتعاً بها آنذاك (٤٢) .

ولم يكتف العقاد بهذا الموقف في البرلمان ، بل أخذ يكتب سلسلة من المقالات النارية يحارب بها الرجعية والاستعمار ، وجعل الملك فؤاد على رأس الرجعية التي تتعاون مع الاستعمار ووصفه « بالحلوف » ، وقد نشر هذه المقالات في جريدة « المؤيد الجديد » (٤٣) .

ومن هنا وجدت السراي بغيتها في العقاد ، اذ لم تستطع محاكمته بالامس نظرا لحصانته البرلمانية ، أما اليوم فانها تستطيع أن تحاكمه على صفته الصحفية في مقالاته التي اتهم فيها فؤادا بأنه يعمل ضد مصلحة البلاد وقدّم للمحاكمة ، فحكّم عليه بالسجن تسعة أشهر ، وهو ثابت

(٤٠) المرجع السابق ونفس العدد .

(٤١) ، (٤٢) ، (٤٣) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٥٧ و ١٥٩ .

(٤٣) راجع : عباس العقاد ناقدا ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

الجنان ، رابط الجأش ، مبتسما إبتسامته الساخرة قائلا : « ولو ، ، ولم
يقبل العقاد مساومة الملك فؤاد له بأن يتنازل عن آرائه ، ويخرج من
الوفد لقاء العفو عنه ، وتنصيبه رئيسا للقسم العربي بالديوان الملكي^(٤٤) .

ويخرج العقاد من السجن بعد انتهاء المدة المحكوم بها عليه في ٨
من يولييه سنة ١٩٣١ على أعنف ما يكون صرامة وتمسكا بمبادئه التي
من أجلها سجن ، والتي حورب فيما بعد بسببها .

خرج العقاد من السجن في ذلك اليوم ليتوجه الى ضريح سعد
زغلول ويلقي عليه قصيدة منها^(٤٥) :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر
فهانذا في ساحة الخلد أولد
ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجى
وفي كل يوم ذو الجهالة يلحد
وما أقعدت بي ظلمة السجن عزمة
فما كل ليل حين يغشاك مرقد
ومما غيبتني ظلمة السجن عن سنى
من الرأي يتلو فرقا منه فرقد
عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما
سيعهدني كل كما كان يعهد

وفي تصورنا أن الباعث على وقوف العقاد مع الديمقراطية واتخاذها
مذهبا له في السياسة هو ايمانه بفرديته وحريته ، إذ أنه لا يرضى بهما
بديلا ، ومن هنا نراه يحارب بأقصى جهده كل المذاهب الجماعية في
السياسة كالشيوعية والفاشية والنازية ، ويرى أنها خرافة ومسخ للبشرية
لأنها تؤدي الى استبداد فرد أو أفراد بالناس وتسخيرهم لمصلحته أو

(٤٤) من حديث خاص مع العقاد .

(٤٥) وحي الاربعين ص ١٧٣ وما بعدها .

مصلحتهم ، ولذا فانه قال في توديع غليوم (٤٦) :

والناس لا يملككم واحد مهما علا في ملكه واستطال
وايمانه بالديمقراطية قديم قدم اصداره لكتاب « الحكم المطلق في
القرن العشرين » ، في عام ١٩٢٨ ، اذ عالج قضية الحرية والانسانية ، وما
نالها من طغيان المتجبرين المستبدين ، وصدر العقاد كتابه بفصل تسائل
فيه هل فشلت الديمقراطية ، وأجاب على تساؤله بفصل تال فحواه أنها
لم تفشل ، على الرغم من تسليمه بأن لها عيوبها ، ولكنه يرى أنها عيوب
الطبيعة الانسانية التي لا فكاك منها ، وقد يكون لهذه العيوب في مجموع
الحضارات فضل كفضل المحاسن المصطلح عليها ان لم يزد عليه .

« ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المثل الاعلى المنشودة في الخيال
والموصوفة في الاحلام ، اذ هذه الحكومة لا موضع لها في عالمنا ولن يكون
لها موضع ، ولكنها تقارن بالانظمة الاخرى في جملتها وينظر الى عيوبها
بصدق واخلاص وتقدير لجميع الظروف .. فلعل هذه العيوب بعض
لوازم الحسنات التي لا يستغنى عنها ، أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من
الديمقراطية ، اذ كان من المحقق أن محاربة الديمقراطية لم تزلها فيما
مضى ولا يرجى أن تزيلها فيما بعد ، (٤٧) .

وفي تصور العقاد أن المقياس السليم للديمقراطية هو أن قيامها في
الامة دليل على مزايا كثيرة في تلك الامة ، أو دليل على أن الامة في
معيشة طيبة ومعاملة حسنة ، وأنها ذات أخلاق لا ضرر من اطلاق الحرية
لاصحابها ، وأطوار لا تعدو طوقها ولا تستعصى عليها .

وليس أدل على وخامة الديكتاتورية في نظره من أن قيامها في الامة
دليل على شذوذ في معيشتها أو على خوف من بعض الاخطار المحدقة
بكيانها ، كما يعترف الحاكمون بأمرهم كلما أعوزهم أن يسوغوا قيامهم
في شعب من الشعوب .

(٤٦) هتلر في الميزان صفحات ١٥٧ ، ١٦١ وما بعدها .

(٤٧) هتلر في الميزان ص ١٦٩ .

« والبيئة الديمقراطية كالارض الآمنة القرير ، والبيئة الدكتاتورية كالمحجر الصحي أو كالمخفر الذي لا يعاش فيه بغير رقابة وتضييق » (٤٨)

ويذهب العقاد كذلك أن سلام الدنيا يتحقق اذا ما حكمتها الديمقراطية ، لانها تقوم على التفاهم ولا تحصر الرأي في يدي انسان واحد ، وذلك على عكس الدكتاتورية التي تقوم على تسلط طبقة على الحكم بعد طبقة ، وسيد بعد سيد ، لانها راجعة الى القفزات والنوادر ، منوطة بالآحاد المتفرقين ، معرضة للهدم والتخريب بعد كل بناء وتعمير (٤٩) .

كما أنه في حملته على الشيوعية في كتابه الشيوعية والانسانية ، عقد فصلا بعنوان « المصير » ، وفيه لم يخرج العقاد عن آرائه السابقة في الديمقراطية ، اذ يدلل فيه على أن دور الديمقراطية لم ينته كما ذهب الى ذلك بعض علماء الاجتماع والسياسة المشائمون الذين يرون وجوب التدخل في حرية الفرد وحرية المعاملات على اختلافها لتنظيم الثروة العامة وتحقيق البرامج التي توضع للحاضر والمستقبل في وقت واحد ، ولا يتأتى تنفيذها بغير تقييد المعاملات بين الافراد ، وبغير اتباع نظم التأميم في بعض المرافق والمشروعات (٥٠) .

يرى العقاد أن هذه الملاحظات جميعا لا تستلزم الجزم بانتهاء عصر الديمقراطية وعصر الحرية الفردية ، لانها قد تكون من عوارض العصر الحاضر في طريق طويل ، تتجدد عوارضه فترة بعد فترة ، ثم تنتهي هذه العوارض ويخلفها طور جديد من أطوار الديمقراطية يدل على النمو والامتداد ولا يسوغ التشاؤم من الحاضر أو المصير (٥١) .

ويرجع هذا الاعتقاد لدى العقاد أمران : أحدهما أن الحرية الانسانية تراث التاريخ كله ، كما يتجلى لنا من جملة أدواره وأطواره ،

(٤٨ ، ٤٩) المرجع السابق ص ١٩١-١٩٣ .
(٥٠ ، ٥١ ، ٥٢) الشيوعية والانسانية ص ٣١٢ ط أولى يونيه

وليست عرضاً منقطعاً تبديه لنا صفحة من التاريخ هنا وهناك ثم تطويه
صفحة تليها الى غير رجعة^(٥٢) .

والامر الاخر أن التنظيم لا ينفي الحرية ما دام حكمه سارياً بين
الناس على سنة المساواة ، وما دام سلطان الحاكم فيه مستمداً من ارادة
الجميع منصرفاً الى تدبير شؤون الجميع ، فان تنظيم مواعيد القطارات
والبواخر - مثلاً - لا يؤدي الى تقييد حرية السفر أو تقييد حرية
المسافرين ، وقد يؤدي الى تمكينهم من السفر الذي يحول دونه ترك
« المواصلات » فوضى على غير نظام^(٥٣) .

والذي يفهم من هذا أن العقاد مغرم أيما اغرام بالحرية الانسانية
التي يرى أنها منتصرة في النهاية رغم ما يعترضها من هزات استعمارية ،
أو من المذاهب السياسية التي توجب التدخل في حرية الفرد .
ويتضح هذا من اجابته على « أميل لودفيج » حين سأله بعد لقائه
للملك فؤاد ، ابان زيارته لمصر : ما رأيك فيمن يغلب غداً على مسرح
السياسة المصرية ؟ فقال له العقاد : المستقبل للحرية بعد عراقك طويل^(٥٤)
وفهم الدارس مما سبق أن حملة العقاد على الشيوعية تكمن في
كبت الحريات في البلاد التي تتخذها مبدأً سياسياً تعتقه ، لان تشريعاتها
الاقتصادية تنفق - من وجهة نظرنا - مع تفكير العقاد الى حد ما في
المسائل الاقتصادية كما سنيين ذلك فيما بعد .

وفي اعتقادنا أن خصومة العقاد للمذاهب الجماعية أو الدكتاتوريين
الذين يفضون من حرية الفرد ولا يسمحون بها ليست جديدة على
منهجه في التفكير السياسي ، ومن هنا كانت خصومته لهتلر ليست أول
خصومة اختصم فيها العقاد دكتاتوراً مثله ، إذ أنه نشر مقالة في ٧ من
يوليه عام ١٩١٢ وعمره ثلاثة وعشرون عاماً يهون فيها من شأن « نابليون
بونابرت » وتزييف عظمته ، واحتقاره لهذا الطراز من الواجهة أو

(٥٣) المصدر السابق ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٥٤) عباس العقاد : سعد زغلول ص ٤٧١ .

العظيمة المدعاة الزائفة ، لان نابليون ومثله هتلر يطلبون الشهرة من طريق الغزوات والفتوح ، وقاس عظمتها بقدر احتقارهما للانسان^(٥٥) .

ومن ثم يرى العقاد أن كل قوة تنشأ عن الاستبداد مصيرها الى الزوال ، لانها قائمة على غير أساس ، قائمة على سياسة البطش والارهاب . ومن هنا قامت حملته العاتية على هتلر ودكتاتوريته وتنبأ بسقوطه ، ورأى أن نجاحه أول الامر هو أول خطوة في سقوطه ، وذلك في كتابه « هتلر في الميزان » الذي صدر في عام ١٩٤٠ ، والذي كان سببا في هجرته الى السودان حينما هاجر الى السودان في يولييه عام ١٩٤٢ ابان الحرب العالمية الثانية ، بعد ما وصلت الجيوش النازية الى « العلمين » على مقربة من الاسكندرية ، وكان العقاد - بسبب كتابه عن هتلر ، ومقالاته التي كان يندد فيها بهتلر والنازيين على سواء - في رأس القائمة السوداء التي سيحل عليها غضب النازيين فور وصولهم الى القاهرة ، ولن يترتب على غضبهم عليه سوى اعدامه والتشهير به ، كما يتفق وفلسفتهم ومقوماتهم الفكرية .

ومن ثم لم يكن عجبيا أن يهاجر العقاد الى السودان ، لان في هذه الهجرة حياته ، ولكنه مع ذلك لم يقبل مطلقا أن يقال أنه هرب الى السودان ونظرا لفرط اعتداده بنفسه وشجاعته ، واني يتأني لشجاعة رجل فرد مهما تكن أن تقاوم جيوشا غازية دوخت الحلفاء في كثير من المعارك الحربية . . . ولكن العقاد المفكر مع معرفته بذلك لم يقبل أن توجه اليه تهمة الهرب من مصر الى السودان .

ولم تكن هجرته الى السودان ، الا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، اذ أرقه في السودان نفر ممن لا خلاق لهم ، بدعوى أنه خرج على حزب الوفد الذي يمثل - من وجهة نظرهم - كفاح شعب مصر ، ولانه كان يناصر الانكليز وحلفاءهم في تلك الحرب ، حتى أن بعضهم ، وهو الاديب صلاح العتباني لم يتورع أن يقول في الحفلة التي أقامها المثقفون

(٥٥) راجع : عباس العقاد ناقدنا ص ١٦٢ وما بعدها .

في السودان تكريماً للعقاد في نادي الخريجين : « انه عندما زار مصر
كان يدخر للعقاد قبلة اعجاب بوصفه من رواد الفكر وأساتذة الجيل ،
وخنجرًا يغمده في صدر العقاد السياسي الجائر على حزب الوفد
المصري ، (٥٦) .

وهنا اكفهر وجه العقاد من الغضب الذي جعله يتململ في جلسته
بحركة عصبية ، لان العتباتي لم يكن موفقاً في اختيار الالفاظ التي
يستخدمها في مخالفته لرأي العقاد في خروجه من حزب الوفد ، ولا سيما
أن الخناجر والمدى ليست مما يستخدم في عالم الادب والادباء قدر
ما تستخدم في « المذابح والسلخانات » وفي أيدي القصابين مع الحيوانات
لا المفكرين الرواد كما يقول العتباتي نفسه حينما أعجب بالعقاد .
وأراد المشرفون على الحفلة أن يلففوا الجو من الغبار الذي أنساره
العتباتي عن طريق الغناء ، واختاروا لذلك مقطوعة من شعر العقاد يقول
فيها :

يا نديم الصبوات أقبل الليل فهات
واقبل الهم بكأس سميت كأس الحياة

وغناها الفنان اسماعيل عبدالمعين ، ولكن الله لم يشأ لهذا الحفل أن
يمر على هذا ، اذ أغضب العقاد شاعر آخر يسمى علي نور المهندس ،
الذي نعى على العقاد بدوره خروجه من حزب الوفد (٥٧) :

لم أنس موقفه و (الوفد) مؤتلف صلب ويأمر بالحسنى ويأتمر

ولكنه لم يكتف بهذا ، حتى أورد اتهام الناس له بالجبين في فراره
من مصر الى السودان :

قالوا جبنت من الجلى وما علموا

مكان من خطبوا الجلى ومن مهروا

(٥٦ ، ٥٧) راجع : الاستاذ حسين نجيلة في كتابه « ملامح من

المجتمع السوداني » ص ٢٥٤-٢٥٧ ط ثانية سنة ١٩٦٠ .

أيجب العلم ؟ ان العلم مزدهر
أم يجبن الحق ؟ ان الحق منتصر
أم يجبن العقل في ابان سطوته
الله يعلم لا جبن ولا خور
ما جئت ترجو قرابا تستقر به
من الطغاة وأنت الصارم الذكر !

وكان هذا سببا في ثورة العقاد العارمة التي كظمها في نفسه ، وصبها
على رؤوسهم حينما جاء دوره للتعقيب على ما قيل في هذا الحفل ، فمشى
العقاد تجاه المنصة وثيد الخطي عملاق القامة ، وأخذ يرد على المتكلمين
من الشعراء والخطباء والدارسين - وما أكثرهم - واحدا بعد الآخر .
« وكان يلمس أفكار المتحدث أولا في رفق ، ثم يأخذ في كشف أخطائه
الفكرية أو اللغوية - وقد حفظها عن ظهر قلب . وما يزال به حتى
يتركه أثرا بعد عين - ولعل صلاح الدين العتباتي وعلي نور لن ينسيا
قط ما صبه عليهما تلك الليلة » (٥٨) .

وقد زاره بعض العقلاء الراشدين من السودانين في المنزل الذي
نزل فيه فوجدوه لا زال غاضبا ، واندفع كالسيل الهادر يتحدث عن
أصحاب الرسائل في التاريخ الذين هربوا أو ابتعدوا عن مواطن الخطر
حفاظا على القيم والرسالات التي يحملونها ، وذلك ليقر في أذهانهم أنه
لم يسلك في هذا السبيل سوى ما صنعه محمد عليه السلام (٥٩) .
وحينما وجد العقاد ما يسوءه في السودان من أمثال صلاح الدين
العتباتي وعلي نور المهندس ، وذلك بالاضافة الى الحشرة المعروفة عندهم
والتي تظهر في الخريف قد لسعته في رجله فأحدثت فيها تورما فجزع من
لسع الحشرة وتردد على المستشفى هناك ، كما جزع من لسع كل من
العتباتي ونور المهندس لنفسه .

(٥٨ ، ٥٩) راجع : الاستاذ حسين نجيلة في كتابه « ملامح من

المجتمع السوداني » ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ومن ثم لم يكن عجباً كذلك أن يفارق السودان بعد أربعين يوماً
فجأة بعد لسع الجسم والنفس معا ، ولكنه كان انسانا كبيرا ومفكرا كبيرا
حينما كتب عن أبناء السودان ، في سبتمبر من عام ١٩٤٨ بعد أن رجس
الى مصر بعدة سنوات كتب في مجلة الهلال تحت عنوان « أبناء السودان
ليسوا زنجوا » وأشاد بهم في تلك المقالة ، ونسى ما حدث له من بعضهم
ولم تؤثر اساءتهم له في القضية التي عالجهها . .

على أن العقاد قد حارب الاستعمار في كتبه كذلك ، فذهب الى أنه
يجور ، بل يفقد الناس الحرية الانسانية ، إذ أن اباحة الحقوق العامة
لكافة الافراد في كافة الاوطان مرهونة على زوال الاستعمار . « ومنى
يزول الاستعمار . . متى عولت الدول على جودة البضاعة لا على قوة
الاساطيل ، وأخذ كل أهل اقليم في استغلال اقليمهم واستخراج ذخائره
فتسقط حجة المستعمرين ، ويومئذ يبطل الاستعمار وترشد الامم من
ضلال الوطنية ، فلا يطلب الوطن من الفرد الا عضوا عاملا ، ولا يطلب
الفرد من الوطن الا محلا للعمل ، يومئذ تتحد وجهة الانسانية فتكاشف
وتتآزر بعد أن كانت تتقاطع وتتدابر » .

وفي موضع آخر نراه يقرر أن الاستعمار حركة من حركات التاريخ
الدولى بلغت نهايتها ، وأصبحت اليوم بغير قوام تستند اليه غير الواقع
الذي يتراجع أمام واقع أعظم منه وأجدر بالثبات في مجرى الحوادث ،
فليس للمستعمر اليوم مبدأ يسوغ به مطامعه ، وليس لهذا المبدأ قيمة
السند المرعي عند من ينتفع به فضلا عن المنكوبين بدعواه (٦٠) .

ويخلص العقاد في كتابه « لا شيوعية ولا استعمار » الى أننا اذا
عرفنا مساوىء الشيوعية والاستعمار فلا محل عندنا للشيوعية والاستعمار
فانهما شران لا تبقى منهما بقية ، ويبقى معها خير لامة شرقية ، وكل من
بين الشر والشر من فارق فهو الفارق في الجهود التي تلزمننا للتيقظ له
والحيطة منه والسعي الناجح للخلاص من فعله ومن دعواه (٦١) .

(٦٠ ، ٦١) عباس العقاد : « لا شيوعية ولا استعمار » ص ٢٠١

وما بعدها ط أولى سنة ١٩٥٧ .

وقد كان هذا المنهج السياسي الذي اتخذته العقاد دستوره في كل ما يأخذ وما يدع من الامور السياسية سببا في أن يرفض جميع المذاهب السياسية الوافدة ، ولا سيما المذاهب التي تكبت الحريات على مذبح الدكتاتورية الجماعية كالشيوعية والفاشية والنازية . وراح يقوم بعملية تأصيل للمتومات العربية الاسلامية ، فابتعث من تاريخنا عظماء في عبقرياته، ومن تقاليدنا مايساير التطور . فكتب «الديمقراطية في الاسلام» و « مستقبل الاسلام في القرن العشرين » كما تابع أثر العرب في الحضارة الاوربية في كتابه « أثر العرب في الحضارة الاوربية » . وغير ذلك من الكتب التي تثبت اصالة العربي المسلم والاسلام معا في قيادة حركة تاريخية تلائم التطور وتحفظ علينا في الوقت نفسه تقاليدنا الاسلامية والشرقية على سواء .

وقد كان هذا المنهج السياسي أيضا سببا في سجنه تسعة أشهر في غياب السجون من أجل وقوفه في جانب الشعب العربي المسلم في مصر عام ١٩٣٠ ، وسببا في أن يقيم غيره عليه النكير والدعاوى الزائفة المختلفة التي تضر بسمعته وتشي به لدى الحكام آنذاك .

وعلى الرغم من هذا كله لم يدعن العقاد لرغبات السياسة الجائرة على حقوق الشعب ، أو بالاحرى على حقوق الانسانية في ذلك الوقت ، ولم يسنده في هذا الموقف سوى المبدأ الذي كان يعتنقه ويتعبد به وهو الكرامة الانسانية له ككاتب برز من الصفوف الشعبية ، وللشعب كطاقات انسانية خلاقة تجير عليها أهواء ورغبات خسيصة من قبل محترفي السياسة آنذاك، ومن هنا أحس العقاد بغربة وامتياز في ميدان السياسة كما يعرفها محترفوها من دعاة الاحزاب ، وكان هذا سببا في خروجه من حزب الوفد بعد انحرافه عن القصد والمحجة البيضاء . وقد سجل العقاد هذا الاحساس في قوله شعرا (٦٢) :

دعوني أسر في ساحة العيش مفرد

مغنى فلا أدري مصيري وأولي

(٦٢) عباس العقاد : ديوان العقاد ج٢ ص ١٥٩ .

ولا تعذلوني ان يثت ، فاني
أرى اليأس أعلى من رجاء المذل
أروني رجاء فوق يأس ، فأنبري
إليه ، وعدوا عن رجاء التسفل
إذا لم يكن للنجح فضل لناجح
على مخفق ، فالنجح بغية أخطل
ذعاني أبي «العباس» يا صدق ما دعا
أكان نذيرا لي بما سوف أتلي ؟
ولو شاء لم يجعل الهي قضاءه
على فم هذا الوالد المتفضل

وهذا المنهج السياسي هو الذي أوقعه في حرب مع الاضداد الاقوياء،
وهذا أوعر مسالك الحروب الشعواء في جميع الميادين •
وفي هذا الصدد يقول أستاذنا العقاد : « لقد حاربت الشيوعية
والصهيونية والاستعمار والتبشير والمتجرين بالدين والمستغلين لدعوى
الاسلام ، كما حاربت طغيان أصحاب الاموال ، وطغيان السياسة من جانب
القصر ، ومن جانب الاحزاب ، ومن كل جانب في بلادنا وفي البلاد
الخارجية ، (٦٣) » •

• وان كاتبنا يحارب الشيوعية لجدير بثناء المستعمرين
والمبشرين ، ولكن كيف يثني هؤلاء على من حارب الاستعمار والتبشير ؟
ومن حارب الالحاد فهو ذو حق في التهليل والتكبير من أصحاب الدعايات
باسم الدين ، ولكن كيف يثني هؤلاء على من يبغض المفترين على الاسلام
بغضاء الملحدين ؟ • ومن حارب هتلر وموسليني فهو ذو حق كبير في
المحابة من أبناء صهيون ، ولكن كيف يثني هؤلاء على من يعلم أن طغيان
النازيين والفاشيين أسلم وأكرم من لؤم صهيون وأبناء صهيون ؟ ، (٦٤) •

(٦٣ ، ٦٤) راجع : جريدة الاخبار الصادرة في ٢١ من ديسمبر
سنة ١٩٦٠ تحت عنوان « يوميات الاخبار » •

٢ - في السياسة المصرية :

تحدثنا فيما مضى عن منهج العقاد السياسى بصفة عامة من خلال آرائه في النظم السياسية العالمية •

وبقى أن نتحدث عن آرائه في السياسة المصرية من واقع ما كتبه في هذا الصدد •

وعلى الرغم من أن الذي كتبه العقاد في السياسة المصرية كثير ، وكثير جدا ، وتشهد بذلك مقالاته السياسية التي نشرها في الصحف اليومية والاسبوعية ، الا أننا سنحاول جاهدين أن نتلمس الخطوط العريضة في آرائه التي يعتقدونها في اصلاح السياسة في مصر •

وطبيعي أننا لا نبحث عما كتبه العقاد في تاريخ السياسة المصرية ، وان كان في هذا النوع من التاريخ للسياسة المصرية يعد فارس الميدان بكتابه « سعد زغلول سيرة وتحية » الذي أرخ فيه للسياسة المصرية في العصر الحديث بأمانة ودقة بارعتين ، لانه استطاع أن يؤرخ للشعب المصري والدور الذي لعبه في ميدان السياسة ونضاله من أجل الاستقلال وبهذا يرى الدارس أن هذا الكتاب هو أول كتاب في السياسة والتاريخ يعني بالشعب في تاريخ مصر على اطلاقه بطريقة علمية صحيحة •

أقول نحن لا نبحث عن عباس العقاد المؤرخ للسياسة ، ولكننا نبحث عن عباس العقاد في ميدان التطبيق لمبادئه السياسية ، وتحليله للمشكلات السياسية المعاصرة • فمسؤولية الشعب مثلا في تصور العقاد كثيرة كمسؤوليات كل درجة من درجات الرشد والاستقلال يصل اليها الفرد أو تصل اليها الامة ، ولكن المسؤولية الاولى منها عسكرية ، لان الجلاء مسألة عسكرية قبل كل شيء ، فمن الواجب بعد الجلاء أن يكون لمصر جيش كاف للدفاع عنها في جميع الاوقات •• ولا سيما أوقات

• الحروب (٦٥) •

ولا يعول العقاد في كفاية الجيش لضرورات على الضمانات الدولية التي تمخض عنها ميثاق الأمم المتحدة ، ولا يعلق عليها الرجاء الكبير ، ولا يعتمد عليها كل الاعتماد في ضمان سلامة مصر والدفاع عن كيانها (٦٦) •

كما أنه لا يعتمد على محالفات ومعاهدات تبرم قبل الاستقلال ، لا لان المحالفات والمعاهدات غير جائزة ، بل هي واجبة ، ولكن بعد تحقيق معالم الاستقلال جميعا ، وقيام الاتفاق - حيثذ - بين أنداد متساوين في حرية الرأي والتصرف ، لا يكون منهم تابع ولا متبوع (٦٧) •
على أن هناك مسؤولية أخرى تمثل في الحكومة الوطنية أمام الشعب وأمام الدول الأجنبية ، لانه لن يقبل مصري من حكومته أن تعتذر بحجة من الحجج ، « لان الوزير الذي يقبل الافتئات على استقلال بلاده يجرم في حق الاستقلال ، ولا يتخذ من ذلك وسيلة للاعتذار » (٦٨) •

ومن ناحية أخرى اذا سأل الشعب حكومته وحدها كانت العاقبة وخيمة على البلاد اذا قصرت تلك الحكومات في واجباتها المنتظرة منها ، وليست هي بالواجبات القليلة بعد الجلاء فقد تضاعفت مسؤولية الحكومة المصرية اذن في عهد الاستقلال ، ووجب عليها أن تضاعف جهودها في الاصلاح ، وجهودها في الحيطة الاجتماعية والحيطة السياسية كيلا ينقلب الحساب الى انتفاض ، وتنتهي المسؤولية الحكومية الى خروج من جميع المسؤوليات (٦٩) •

ويرى العقاد « ان اساءة الحكومة قبل الجلاء تثيرنا على الاستعباد فنستفيد من قوة الخلق وكرامة الحرية عوضا حسنا عن كل خسارة في

(٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩) راجع : مجلة « الكتاب » اصداره

في ١ من مايو سنة ١٩٤٧ •

المصالح والاموال ، أما بعد الاجلاء فان اساءة الحكومة تثيرنا على أنفسنا ،
وتقدح في كفاءتنا وكرامتنا ، فنجمع علينا بين خسارة المصالح والاموال
وخسارة الثقة والاخلاق (٧٠) .

و « أخشى ما أخشاه على الاداة الحكومية بعد الجلاء أن تسري
محنة الاحزاب الى موازين الجزاء والعقاب في مراقبة أعمال الموظفين ،
فيخطئ المخطئ من الموظفين وهو آمن على نفسه من أن يجزى بخطئه
لانه يتشفع الى الرؤساء بشفاعة الاحزاب ، ويبحث الرئيس حوله عمن
يحسن العمل فلا يجده لان المحسن لا يرجو جزاء المحسنين ، ويحاول
اصلاح العيوب في ديوانه فلا يستطيع الاصلاح ، لان الموظف المهمل
أو المسيء قد وثق من البقاء ووثق من الاعفاء والاعضاء ، ان لم يثق فوق
ذلك من الترقية وحسن الجزاء » (٧١) .

وفي تصور العقاد أن أضخم المسؤوليات بعد الجلاء هي مسؤولية
الشعب ، لانها هي المرجع الاول والاخير في كل مسؤولية تلقى على
الحكومات . ذلك أننا تعودنا أن نرجع الى الحكومات بجميع الذنوب ،
فعلينا أن نتعود قليلا قليلا أن نرجع باللوم الى أنفسنا قبل أن نرجع به
على الرؤساء الذين نرفعهم الى مناصب الحكم بأيدينا . فنحن نلوم
المستوزرين على عبادة المناصب الحكومية ، ونحن نحن الذين نوحى اليهم
تلك العبادة ، لاننا نعبدهم ونتخذهم أربابا تحف بهم هالات المجد والعظمة
كلما تسنموا غارب الوزارة ، على استحقاق أو على غير استحقاق .
ونبغض الرجل الذي يستقيم في حكمه ويفلق باب الشفاعة في وجوه
المتطفلين على العدل والحق والقانون . ونحن نلوم الزعماء على التدجيل
والتضليل ونحن نحن الذين نغريهم بالكذب علينا والعبث بعقولنا ، لاننا
نصدق الدجال المضلل ونعرض عن الامين الصريح (٧٢) .

(٧٠ ، ٧١ ، ٧٢) راجع : مجلة « الكتاب » الصادرة في ١ من مايو

سنة ١٩٤٧ .

ثم يختم كلامه في هذا الصدد بقوله : « فاذا أردنا أن نجمع مسؤوليات الجلاء كلها في مسؤولية واحدة ، يرجع اليها كل حساب وتنطوي فيها كل تبعه ، فذلك هي مسؤوليتنا نحن أمام أنفسنا . . . تلك هي مسؤولية الأمة كلها قبل كل حاكم وكل حكومة . . . وهكذا ينبغي أن تكون تبعات الاحرار المستقلين في عهد الحرية والاستقلال ، » (٧٣) .

وتأسيسا على هذا الفهم نراه يرى أن العيب في نظام الحكم وحده سهل العلاج مستدرك الاخطاء ، وانما العيب الذي يحسب له كل حساب هو عيب المحكومين أو عيب الرعية على اختلاف الرعايا (٧٤) .

فالمملكة الدستورية المقيدة اذا قيل انها معيبة ، لان الملك يتخطى حدوده ، فلنذكر دائما أن الشعب الذي لا يكبح الملك حين يتخطى حدوده لن يكبح جماح رئيس الجمهورية الذي يطغى عليه ويمهد لاستقرار حكمه ، وتجديد انتخابه ، وقمع كل معارضة تقف له في طريقة . . . و « اذا قبل أن نظاما من الانظمة يعطي الشعب حرية لم تكن له فهذا القول أقرب الى المزاج منه الى الجذ الصراح ، لان الحرية والنظام كليهما من الشعب واليه ، فان لم يكن للشعب حرية من طبيعته فالنظام لا يخلق للطبيعة الخاضعة حرية ترفض الخضوع والخنوع ، » (٧٥) .

ويؤكد العقاد هذا القول بما كتبه في ختام كتابه « فلاسفة الحكم في العصر الحديث » حيث ذهب الى أن نوع الحكومة لا يهم ما دام المحكومون على قسط وافر من الحاسة السياسية عارفين بحقوقهم مقتدرين على أخذ الولاية باحترامها ، غير أن المبدأ القائل بأن الحكم من الأمة للامة هو أصلح المبادئ لمجاراة هذه الحاسة السياسية في وجهتها ، وهو المبدأ الذي يعطي المحكومين فرصة بعد فرصة لاختيار الافضل من الساسة الاكفاء من القادة والولاة ورؤساء الدواوين ، وكما جاء في الاثر (كما تكونوا يول عليكم) .

(٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥) راجع : الهلال الصادرة في ١ من فبراير سنة ١٩٥٣ تحت عنوان « مصر والجمهورية » ص ٥ وما بعدها .

ومن ثم يرى العقاد أنه ليكن عنوان رئيس الدولة كيف كان
- رئيس جمهورية أو امبراطورا أو ملكا أو ما شاء من الاسماء
والانقلاب - فانما المعول في جميع الحالات على تربية الحاسة السياسية عند
المحكومين وعلى صلاحهم لتمثيل دور الرعية قبل صلاح الحاكمين لتمثيل
دور الرعاة^(٧٦) .

ويرى العقاد أن الشعب الصالح لن تستقر فيه حكومة فاسدة ، وأن
الشعب الفاسد لن تستقر فيه حكومة صالحة ، وكل بحث في غير هذا
هو بحث في غير الجوهر الضميم . إذ أن العيب الأكبر في النظام الملكي
هو اطلاق حق الوراثة ، فاذا كان هذا الحق مقيدا بقيود المصلحة القومية
فالمرجع فيه الى اختيار الشعب ولا فرق اذن بين الملكية والجمهورية في
آخر المطاف^(٧٧) .

ومعنى هذا أن أنظمة الحكم اذن - في تصور العقاد - ليست سلما
يرتقي مع الجمهورية ويهبط مع الملكية ، وليس المهم هو احصاء
العيوب على كل نظام ، فما من نظام قط الا وهو عرضة للعيوب ، وليس
العيب في النظام شيئا اذا كان مقصورا على النصوص والاوضاع ولم يكن
متغلغلا في الاخلاق والعادات^(٧٨) .

ويرى الدارس أن القاء العقاد التبعة في الحكم على عاتق الشعب
ليس معناه دفاعا عن نظام معين من الحكم ، لانه دافع في الوقت نفسه عن
الشعب أمام الزعم القائل بأن الشعب المصري مستكين لا يثور ، وسكن الى
النظام الملكي ، لانه لا يستطيع الثورة عليه^(٧٩) .

وفي دفاع العقاد ذهب الى أن هذه فرية لا تستند الى دليل من الواقع
اذ أن الواقع يكذب هذه الدعوى التي لم يعتمد دعائها في اثباتها الا على
الاكاذيب الشائعة التي ينفخها تاريخ مصر في جميع العصور ، فقد كانت
الفترة قبل الاسرة الخامسة الى ما بعد الاسرة العاشرة بقليل سلسلة من

(٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩) راجع : الهلال الصادرة في ١ من فبراير سنة

١٩٥٣ .

الثورات التي لا تنقطع في الوجهين البحري والقبلي • وقد نار المصريون على قياصرة الروم قبل الميلاد وبعده • وثاروا كذلك على « نابليون بونابرت » مدوخ الامم في أواخر القرن الثامن عشر • وثاروا على الدولة البريطانية وهي ظافرة بالنصر في الحرب العالمية الاولى (٨٠) •

ثم يعلل العقاد نشأة الحكم الملكي في مصر واستقراره فيها « بأن مصر لا تستغني عن سياسة واحدة لنهر النيل ، ولان الرؤساء المحليين في الوجهين البحري والقبلي لا يملكون أعنة هذه السياسة ولا غنى لهم عن ادارة واحدة تشرف على الري أثناء الفيضان على الخصوص ، كان هذا قبل الميلاد بأكثر من عشرين قرنا • وها نحن أولاء بعد عشرين قرنا من الميلاد نحاول أن نحل القضية بغير الوحدة بين أجزاء وادي النيل فلا ننتهي الى وجهة نظر أخرى تكفل لابناء الوادي حلا أوفق وأجدى على الجميع ، (٨١) •

ويرى العقاد في هذا الصدد أن الحكومة الصالحة لوادي النيل في العصر الحاضر هي الحكومة التي تمثل فيها مصالح المنتفعين بالنيل من أقصاه الى أقصاه ، « ولتكن ملكية اتحادية ، أو جمهورية اتحادية ، أو ما شاءت لها الاوضاع والمصطلحات أن تكون ، فلا مشاحة في الاصطلاح من وجهة نظره ، (٨٢) •

على أنه يذهب كذلك الى أن مصر ليست ملكية من قديم الزمن لانها أقل حرية أو أقل اقتدارا على الثورة من الامم التي اختارت الحكومة الجمهورية ، فلو كانت شعوب الجمهوريات في مصر ، لكانت ملكية مثل مصر ، ولو كانت مصر في أوطان تلك الشعوب لكانت مثلها من شعوب الجمهوريات (٨٣) •

وبالاضافة الى ما سبق يصل العقاد من طريق النفي والسلب الى طريق الايجاب والتقرير ، اذ أن مصر ستختار لنفسها أصلح الحكومات

(٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣) راجع : الهلال الصادرة في ١ نوفمبر سنة

١٩٥٣ •

يوم تختار الحكومة التي تكفل الوحدة والرضى لابناء النيل ، « وقد كان فاروق يتنبأ عن زمن لا يبقى فيه من أصحاب التيجان غير ملوك (الكوشية) الاربعة ، فان كان الملوك كلهم مثله فلتصدق نبوءته في مصر وفي غيرها ، فلعلم ملوك (الكوشية) الذين يربحون ويخسرون خير من صاحب تاج يجر وراءه الخسارة حيث كان ، (٨٤) .

وتأسيسها على هذا الفهم نراه يعد الاستقلال خطورة في طريق أهدافنا القومية ، ولكنه مع هذا اول الطريق ، وليس بنهاية الطريق ، وليس معنى هذا اننا نطمح الى السيادة على اناس اخرين ، « لانني انقبض انقباضا طاحنا اذا نظرت الى انسان ذليل ، ولو جاءني احد يعرض على ان استعبده طائعا مختارا لما قبلت استعباده ، وذلك لانه ليس همنبا وراء الاستقلال ان نجور على استقلال احد ، وانما همنبا ان نكون في العالم منتجين ولا نكون فيه على الدوام مستهلكين ، وأن نشترك بسهمنا الراجح في أمانة الحضارة العالمية ، فلا نقصر في الميدان عن أمة ولا نقنع بما دون الطليعة في ترقية الحضارة ، واول من هذا الهدف غير جدير بامة تعيش في مجتمع الامم المتقدمة وتفهم معنى الحياة (٨٥) .

وفيما يختص بالعروبة فانه يفخر بثقافتها ولغتها وحصتها الكبرى في ترقية الحضارة ومن ثم يرى ان على مصر امانة لا ينهض بها غير شعبها ، وذلك لان موقعها واسطة العقدة بين العروبة في القارة الآسيوية والعروبة في القارة الافريقية . ومن ناحية اخرى يضاعف هذه الامانة على عاتق الشعب المصري كثرة العدد وزيادة المادة من المال والتعليم (٨٦) .

وخلاصة الخلاصات في هذه الامانة كما يراها العقاد تتمثل في توحيد مجال الثقافة العربية ورفع الحواجز الثقافية بين ابناء العروبة ، اذ ان تقطيع جهات الثقافة العربية فيما مضى قد حال بينها وبين القوة التي تستحقها ، ولا حاجة الى التفصيل في هذا المقام ، لاننا حين نجعل مجال

• (٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦) راجع : الهلال الصادرة في اول نوفمبر ١٩٥٣ .

العروبة مجالا تشترك فيه الامة العربية جمعا تتقدم الى الطبيعة بين اللغات العالمية^(٨٧) .

ويرى العقاد ان ميزان السلامة والاستقرار في الشرقين الادنى والاوسط ، اذ نحن ابناء البلد الذي يتوسط القارات الثلاث ، ونحن في بقعة من الارض لا يستقر العالم اذا اضطرت ، ولا يضطرب العالم اذا استقرت ، ولم يحدث في الزمن الاخير حدث عالمي قط الا كان رده وصداه على هذه القطعة من الارض ، فاذا ملكنا ارادتنا فهي حجاز الامان بين المشرق والمغرب وبين المتنازعين من كل وجهة^(٨٨) .

وبجانب ذلك عندنا مصفاة الثقافات والدعوات ، فاذا استخلصنا شيئا من الغرب وشيئا من الشرق ، فليس اقدر منا على تصفية الخلاصة لبني الانسان جميعا في ثمرة لا شرقية ولا غربية تضيء ولم تمسها نار^(٨٩) .

أما افريقيا فانه يرى ان مزيتنا هي مقامنا الاول في القارة الافريقية ، اذ لا يتقدم علينا متقدم من ابنائها ، وسيأتي اليوم الذي يخرج فيه المستعمرون من جنوب القارة ، ولا يطرق خيال احد ان يأتي اليوم الذي تنجلي فيه الامة المصرية من القارة الافريقية^(٩٠) .

ويطالب العقاد المسؤولين بأن يكون مقامنا مقام رحمة بهذه القارة ، ولا نكون ذريعة لاستعبادها بتسليمنا نحن في حريتنا ، فالقارة السوداء كلها مستعبدة ان لم تبلغ مصر حقها من حريتها واستقلالها . « ومصر اولا واخيرا هي الامة « الدمة » من أثر التربة والحضارة ، وهذه المائة تعد ذات محاسن وذات عيوب . ومن الرجاء الصادق ، المستقبل ان هذه العيوب قابلة للزوال ، لان النيل الذي اكسبنا هذه المائة على طول العهد بالزراعة والمحراث كفيلا « بتصنيع » هذه البلاد فلا تغلب عليها صبغة الزرع ولا صبغة الصناعة^(٩١) .

(٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١) راجع : الهلال الصادرة في أول

نوفمبر ١٩٥٣ .

وفي ضوء ما سبق رأيناه ينقد كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبدالناصر ، اذ تناولها بالنقد في كتيب مستقل تحت عنوان « فلسفة الثورة في الميزان » ، وقد ذهب في نقده الى أن شعار الثورة (الاتحاد • النظام • العمل) هو شعار المصريين اجمعين بغير فارق في وجهته ولا في دواعيه ، وليست العقبة في طريق الاصلاح مبدأ من المبادئ الاصلية يدين به فرد او طائفة من الامة المصرية ، ويجسر على المجاهرة به بغير مواربة ولا نفاق ، ولكن العقبة في طريق الاصلاح هي العوامل المصطنعة التي لا تجرى مع الحق والواقع في مجراه (٩٢) .

ويرى العقاد ان هذه العوامل المصطنعة هي آفة الآفات ، وهي العقبة الكؤود في كل طريق ، ومن أمثلتها اسرة مالكة يقضي وضعها الصحيح أن تكون « سلطة شرعية » تحارب السلطة الفعلية بقوة الامة ، ولكنها في الواقع انما كانت تعمل على الغاصب الذي يحتمى في ثورة الامة بقوة الاحتلال ، وتحسب انها في أمان من الثورة عليها ما دام الاحتلال في البلاد (٩٣) .

ومن الامثلة الكبرى على العوامل المصطنعة ايضا ، وزارات الكثرة المزعومة التي عرفتها مصر بعد مفاوضات المعاهدة ، فان الوضع الصحيح لوزارات الكثرة ان تقوم بتأييد الامة المعارضة المحتلين ، ولكنها في الواقع انما كانت تأتى على الدوام بطلب المحتلين لتسليم البضاعة ، وكانت في موقفها المتناقض تعجز عن ارضاء الاحتلال ، وعن ارضاء الامة في وقت واحد (٩٤) .

وهناك الدفاع الكاذب عن الاقطاع باسم التاريخ او باسم الدين ، فما كانت في مصر ملكية زراعية ترجع في العصر الحديث الى ابعد من القرن التاسع عشر ، والاسلام يرحب بتعميم الملكية . وينكر كل الانكار ان

(٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤) عباس العقاد : فلسفة الثورة في الميزان ، الطبعة

الاولى ، دار المعارف سنة ١٩٥٥ .

• تنحصر في ايد معدودات •

على ان العقاد يرى ان فلسفة الثورة لا تنحصر بالقارىء في حدود الافق المصري ، وان كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية في اوسع حدودها ، فالمصري في عصرنا هذا لا يهتم بوطنه حقا ، ان لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق ، او عوالم لا انفصال لها من وطنه ، وهي العالم العربي ، والعالم الافريقي ، والعالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه (٩٥) •

وبالاضافة الى ما سبق يؤكد العقاد في نقده ان مصيبة الاستعمار ، انه اوقع في النفوس ان السياسي لا يهتم بامة اخرى الا ليطمع فيها أو يبسط سيادته عليها ، ولكننا حريون أن نذكر على الدوام اننا (غير مستعمرين) واننا لا نحتاج الى جهد كبير او صغير لتنفني هذه الشبهة عنا ، فليس في وسع احد ان يتهمنا بها ويجد من ذوى العقل السليم من يستمع اليه (٩٦) •

وفي تعقيبه على كلام الرئيس فيما يختص بعلاقتنا بهذه العوالم : أين نحن من العالم العربي ؟ أين نحن من العالم الافريقي ؟ أين نحن من العالم الاسلامي ؟ نحن في قلب كل عالم من هذه العوالم ، فليس في وسعنا ان نجعل علاقتنا به ومستقبلنا فيه (٩٧) ؟

في تعقيبه نراه يصف كلام الرئيس بانه كله صحيح في الجملة والتفصيل ، « وليس الاهتمام به من طموح الشباب كما يتخيل المتخيل الوداع في عقر داره ، بل أخشى أن أقول انه من أعباء الشيخوخة قبل أوانها بل من همومها في ابانها ان كان حمل الهموم البعيدة وفقا على الشيوخ ، ماذا نصنع ان جنى البترول على العالم العربي فضيعة بدلا من تزويده باسباب القوة والمناعة ؟ وماذا نصنع ان اصبحت افريقيا للمستعمرين الاوربيين ولم تصبح في الغد القريب افريقيا للافريقيين ؟ • وماذا نصنع ان

(٩٥ ، ٩٦) راجع : فلسفة الثورة في الميزان •

(٩٧) جمال عبدالناصر : فلسفة الثورة •

تهدم معنى الحياة كما تمثله المادية الحيوانية او كما تمثله الحضارة
الحسية ، ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين
وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة ، أو غمار القنوط والحيرة^(٩٨) .
ويرى العقاد انه يجب الانهده ولا ننام ، والا نعفي من ياتى بعدنا
من العمل ، فاننا ان اعفيناه من العمل أسأنا اليه ، ولكننا نترك له واجبه ،
وتنهض بواجبنا ، وواجب كل جيل من اجيال الامم ان يبقى لمن بعده
أمانة ، ولا يبقى له قيودا من عمله او اثقالا من جرائم اهماله وتفريطه ،
واذا استطعنا ان نقول للاجيال المقبلة : ان دينكم لنا اعظم من ديننا لاسلافنا
فنحن الاوفياء وهم الرابحون^(٩٩) .

٣ - في رحاب الثورة :

على ان العقاد كان اول من استقبل الثورة المصرية استقبالا رائعا ،
وتمنى لمصر على يد الثوار عهدا جديدا تصان فيه الكرامة وتكثر فيه
الاعمال والجهود ، ويختفي الذل والضميم ، ولا يسام فيه المصريون سوم
العبيد على هوى الحكام ، وذلك في قصيدته « عيد النيروز » التي نشرها
في صحيفة الاخبار^(١٠٠) :

اهلا بنيروز وليد اهلا بميلاد سعيد
يوم جديد ، قلت بل عهد على مصر جديد
عهد تصان كرامة فيه ، وتبعها جهود
لا تستذل ولا تسام م على الهوى سوم العبيد
وغدا ستنشع الغيوم فلا بروق ولا رعود
ما كان غير الصالحين لهم قرار في الوجود

ويمضى في قصيدته مؤكدا ان الثورة حصن وطيد لمصر ، تنهاوى على

(٩٨ ، ٩٩) فلسفة الثورة في الميزان .

(١٠٠) جريدة الاخبار الصادرة في ١١ من سبتمبر ١٩٥٢ العدد ٧٣ .

صخرته الاصنام ، ويرد كيد الباغي لمصر والحسود لها بفضل الله (١٠١) .

مصر الكنانة كعبة قرت على حسن وطيد
لا تلبث الاصنام فيه ان تكس او تميد
كم اذا اراد بها الاذى باغ ، وكاد لها حسود
يمضى يعدد ما يريد والله يفعل ما يريد
وتراه ضاع وظنه الا يضيع ، ولا يبيد

ثم يتساءل العقاد عن الذين خانوا مصر من كل مسخ هازل تزيب
بزي الجبار العنيد ، وحاكي الاسود في التجبر ، والقروود في العريضة ،
معتمدا في طغيانه على مصر على صولجانه وبنوده ، ولا يجدى في هدايته
النصح ، ولا يفيد العتب ، ثم ذهب وولى مع صحبه ، لان الله اقوى من كل
شيطان مرید (١٠٢) :

يا مصر يا بنت الخلود يا معقل المجد التليد
أين الذين جزوك جا زية الخيانة والكنود
من كل مسخ هازل في زي جبار عنيد
يحكى الاسود تجبرا وكذلك عريضة القروود
طاغ عليك ، ومنك لا منه الصوالج والبنود
وكأنما في جوفه نار تطفى بالوقود
ابدا تادى كلما اطعمتها هل من مزيد
لا نصح يجدي في هدا يته ولا عتب يفيد
أين القرار به ؟ وأين اليوم مركبه المجيد ؟
ولى وولى صحبه لا غائبين ولا شهود
من كل مغلوب على كمد ومنبوذ شريد
الله اقوى قوة من كل شيطان مرید

(١٠١ ، ١٠٢) جريدة الاخبار الصادرة في ١١ من سبتمبر

١٩٥٢ العدد ٧٣ .

كم ذا استعز بأأسه فأذله البأس الشديد
بأس الجنود الماملين يقودهم رب الجنود
ثم يخاطب القند الثورة واخوانه من خلفه ، بأنهم قد وفقوا الى النهج
السديد وانهم بشورتهم قد حيوا النيل المبارك واحتفوا بالصعيد (١٠٣) :

يا صحبة التوفيق وفقم الى النهج السديد
حيتم النيل المبارك ، واحتفتيم بالصعيد

ويرى الدارس انه ليس بغريب ان يتقبل العقاد الثورة بقبول حسن
لانه طالما صرح اصدقاءه بانه اذا خلع فاروق فلن يتم خلعه بمعزل عن
الجيش او الازهر ، وقد يخلعانه متفقين (١٠٤) .

ويجرد العقاد الادباء بانهم لم يقوموا بكل ما يجب ازاء الثورة ،
واقصر دورهم على التهيء لها وطلب التغيير ، وذلك لانهم يعيشون في
جو المطالب المثالية ولا يقيسون الامور بمقاييسها العملية الواقعية ، ولا
يمنع هذا من ان الاديب الثائر قد يكون شعلة الثورة بجميع الاهيها دون
ان يقضى حياته في تصريف فعل الثورة من نار يشور ثورانها (١٠٥) .

على انه يصف الثورة التي تنبأ بها قبل شهرين من وقوعها في مجلس
حافل بالادباء والشعراء والاساتذة في الجامعة والصحفيين - ولم يخش
شيئا من وصول حديثه الى السراي واذنابها - ، والتي دعا اليها في مجلس
النواب في عام ١٩٣٠ وسجن من اجلها ، يصفها « بانها جاءت سليمة لم
يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها جبل الامور ، وقد كان الخلاص من
عهد فاروق ضرورة لا تستكثر عليها ان تقدم الامة في سبيلها على خسارة
في الارواح والاموال ، واضطراب الامور شهورا او اكثر من شهور ،
فلما تكفل الجيش للامة بالثورة التي كانت مطلوبة منها ، عوفيت من

(١٠٣) راجع الاخبار الصادرة في ١١ من سبتمبر ١٩٥٢ العدد

٧٣ .

٠ (١٠٤) راجع : الهلال الصادرة في ١ من ديسمبر ١٩٥٢ .

٠ (١٠٥) راجع : الهلال الصادرة في ١ من يولية سنة ١٩٥٣ .

جرائرها واهوالها وانتظمت الامور في سياقها وانجلي ملك مكروه من
عرشه بايسر من جلاء عمدة في قرية صغيرة ينصره اناس ويخذله
آخرون (١٠٦) .

ويرى العقاد انه من التوفيقات الالهية ان يتولى قيادة الجيش في هذه
الحركة رجل من اصلح القادة لحرب الاقطاع ، رجل لو قيل فيه انه
محسن الضمير « بمصل نفسياني » مضاد لآفات الاقطاع لما اختلف تعبير
المجاز وتعبير الحقيقة في وصفه ، فان آفات الاقطاع جميعا تلخص في
الولع بالمظاهر والاستكثار من جمع المال بغير حاجة اليه (١٠٧) .

على انه لم يكن كافيا - في تصور العقاد - لتمام العمل التاريخي الذي
لا يتكرر كل يوم او كل جيل ان يزول فاروق ويبقى بعده الف فاروق
او اكثر من الف فاروق ، فليست نهاية فاروق هي نهاية الحركة ، ولكنها
فاتحت عهد لا بد ان تستقر على اساس وطيد (١٠٨) .

وفي تصور العقاد انه لا بد ان نعلم المحذور الذي اتقينا ولا نزال
نتقيه ، وهو شعور الموظف الفاسد بحماية الفساد الاكبر له ، انه يخالف
الشرع والعرف والحياء ولا يبالي بالعاقبة ، لانه يخدم بالمخالفة سيدا
يفريه بها ويكافئه عليها ، فاذا زال هذا السيد وزالت هذه الحماية فقد
زال المحذور (١٠٩) .

ويطالب العقاد قيادة الثورة بأن تعمل على تأمين كل عامل بزوال
حماية الفساد وقيام حماية في مكانها ، تؤيد الصالح المصلح وتملأ سريره
بالطمأنينة الى النجاح والتوفيق فيما يتوفر عليه ويصمد له من الخدمة
العامة والجهد الشريف .

ويخلص العقاد من هذا كله الى قوله : « كانت حماية المفسدين
رأس الفساد ، فاذا زالت هذه الحماية المفسدة وقامت في مقامها الثقة

(١٠٦، ١٠٧، ١٠٨) اراجع : الهلال الصادرة في ١ من ديسمبر سنة

١٩٥٢ .

(١٠٩) المرجع السابق نفس العدد .

بحماية العمل النافع والعامين ، النافعين ، فذلك هو رأس الصلاح
والاصلاح (١١٠) .

* *

والمطلع على ما كتبه العقاد في الثورة المصرية يرى انه كان يعتقد
ان فاروقا كان له من الفضل في قيام الثورة ما لم يكن لادباء مصر مجتمعين
من خمسين سنة ، فلو انهم صمدوا خمسين سنة يكتبون في وجوب الثورة
لما اقموا الناس بتحقيقها ، كما اقمهم فاروق بعمله وقوله وجده وهزله ،
وذلك هو فضله الاول الذي يرفعه الى اسفل (١١١) .

ويرى العقاد في هذا الصدد ان من توفيق الله للادب الثائر في مصر
انه وضع النظريات وجاءه التطبيق في شخص ملك واحد بما يعيى عشرات
الملوك (١١٢) .

وفي تصور العقاد ان فاروقا لم يضع لنفسه سياسة يحمي بها عرشه ،
ويوطد عليها دعائم حكمه ، ويرجع العقاد أن فاروقا تلقى وصية من أبيه
يطالبه فيها بالاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الازهر (١١٣) .

وهذه السياسة - من وجهة نظر العقاد - أصح سياسة ، ولاشك ،
لانه ليس أتقى للعروش من ولاء القوة والعقيدة ، وهما متمثلتان في رجال
الجيش ورجال الدين ، ولكنهما منفعة لا تتأني الا للملك النافع ، فمن
كان ملكا غير نافع كفاروق ، فأخطر الخطر عليه من حيث يقدر الحماية
والامان (١١٤) .

وينعى العقاد على فاروق فهمه للاحتفاظ بولاء الجيش وولاء
الازهر ، اذ فهم - خطأ - أن يفرض على كل منهما أعوانا وأذنانا
يخدمونه ويخدمون مصالحهم في وقت واحد ، ووقع في خلد أنهم
يخشونه الا محالة ما دامت مصالحهم مقرونة بمصلحته وما دامت مناصبهم

(١١٠) راجع : الهلال الصادرة في ١ من ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

(١١١، ١١٢) راجع الهلال الصادرة في ١ من يولية سنة ١٩٥٣ .

(١١٣ ، ١١٤) نفس المرجع بتاريخ ١ من ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

موقوفة على مشيئته ، فما زال على هذا الجهل حتى انتهى الامر الى موقف لا لبس فيه بينه وبين جيشه^(١١٥) .

« وصل فاروق الى هذا الموقف قبل حرب فلسطين ، فلما تكشفت تلك الحرب عن فصائح السلاح لم يبق في الجيش المصري ضابط ولا جندي يضمير الولاء للملك المجرم الذي بلغت به الضعة ، والعياذ بالله ، أن يتجر بأرواح جنده وهم في ساحة القتال ، وشملت الريبة كل عامل في القوى العسكرية من المقربين اليه والمقربين عنه على السواء »^(١١٦) .
ومن ثم أعلن الجيش بحق أنه يحارب فساد فاروق ، ولا يقصر حربه على شخص فاروق ، وبحق أعلن كذلك أنه فساد في نظام الاقطاع كله ، فلا يتأتى القضاء عليه اذا انقضى فاروق وترك وراءه ألوفا من الفواريق الصغار^(١١٧) .

ثم يدفع العقاد شبهة ربما تعرض لسائل يسأل عن علاقة الجيوش بهذه الشؤون ، يدفعها العقاد حينما يذهب الى أنه على هذا السائل أن يسأل كيف كان الخلاص لو لم تخلصنا حركة الجيش من فاروق . ان فاروقا قد نزل عن العرش وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، استجابة لرغبات الامة التي أعرب عنها الجيش في بيانه^(١١٨) ، فلو أنه بقي على العرش الى نهاية أجله فلا يعلم الا الله كم سنة تعاقب على مصر وهي تنحدر من هاوية الى هاوية ، وتقهقر من نكسة الى نكسة ، وتتهافت من خراب الى خراب ، وتتلطخ بوصمة بعد وصمة من وصمات ذلك الفساد الذي جعلها مضغة في أفواه العالمين ، وأسقط الثقة بها في حساب العروض والاعراض^(١١٩) .

أما اذا قدر له أن يخلع قبل نهاية أجله ، فمن المستبعد جدا أن يتفق ملوك الاقطاع الصغار على خلع ملك الاقطاع الكبير ، وانما يجيء

(١١٥) ، ١١٦ ، ١١٧) راجع : الهلال الصادرة بتاريخ ١ ديسمبر

سنة ١٩٥٢ .

(١١٨) راجع : مجلة الكتاب الصادرة في ١ من أكتوبر سنة ١٩٥٣ .

(١١٩) راجع : الهلال الصادرة في ١ من ديسمبر سنة ١٩٥٢ .

خلعه بقوة أجنبية ، تعصف باستقلال البلاد (١٢٠) .

على أن العقاد يرى أنه إذا كانت حركة الجيش قد عصمت مصر من هذه العاقبة ، وكلها شر لا خير فيه ، فمن حقه ، بل من واجبه أن يدفع غائلة النكسة عن هذا الوطن فلا يرجع الى الهاوية التي لم يكذب يخرج منها ، ولن تؤمن هذه النكسة مع بقاء نظام الاقطاع على شره الذي عهدنا ، « ولو عقل الاقطاعيون لسبقوا غيرهم الى حمد الله على هذه النتيجة ، فانها حماية لهم في آخر المطاف » (١٢١) .

ولم يكتف العقاد بأن يبين خطل فاروق وفساده ، بل رأيناه يحاول أن يحلل نفسيته ، وأن يرجع بواعت فساده الى مصدرها من تلك العلة التي تصاحبه فتخرجه عن سوائه (١٢٢) .

وفي هذا الصدد يذهب الى أن فاروقا في رأي الاكثرين لم يسلم من مرض نفسى ، وقد ازداد الظن باختلاله وثوقا على أثر الاخبار التي علمت عن أطواره المجهولة مما كان يطلع عليه خاصته ويكتمونه أو ينشرون ما يناقضه (١٢٣) .

ومن ناحية أخرى لحظ بعض الاطباء الاجانب أعراض الاختلال على تكوينه بعد الكشف عن اصاباته في حادث القصاصين ، وقيل أن عشراه كانوا يشهدون منه على الدوام نزوات عنيفة لا تصدر عن العقلاء (١٢٤) .

ويطبق العقاد النظريات النفسية على أخبار فاروق وأطواره ، فيجد أنها تنطبق تارة على جنون القسوة Sadism وتنطبق تارة أخرى على جنون السرقة Kleptomania وتنطبق تارات على جنون الشهوة Satyriasis

(١٢٠ ، ١٢١) راجع : مجلة الهلال الصادرة في ١ ديسمبر سنة

١٩٥٢ .

(١٢٢، ١٢٣، ١٢٤) راجع مجلة الكتاب الصادرة في ١ من اكتوبر

سنة ١٩٥٢ .

ثم يتحدث عن أعراض من الجنون التي اعترت فاروقا
ويضيف إليها نوعا آخر من المرض هو توقف النمو الذي يسمى
Arrested development وتتفرع عليه حالة التثبيت Fixation
وقد كانت ظاهرة الاعراض على فاروق^(١٢٥) .

وفي مقام التوضيح يذهب العقاد الى أنه قد يكون الرجل مستويا
نموه الجسدي وهو مع ذلك طفل في نموه الاجتماعي أو العقلي ، ويشعر
نحو أبيه شعور الطفل نحو الأب الذي يعوله ولا يقوى على فراقه ، كما
يشعر صاحب هذه الآفة بقصوره وتلعج نفسه « بمركب النقص » الذي
يدفعه الى اظهار القوة واظهار القسوة والشك في كل أحد غير « محور
التثبيت »^(١٢٦) .

وتأسيسا على هذا الفهم يفسر العقاد قسوة فاروق ، كما يفسر ولعه
بالاستيلاء على كل ما يراه ، ويفسر كذلك مظاهراته وتمثلياته التي
حسبها بعضهم من جنون الشهوة ، اذ هي في حقيقتها « مركب نقص »
في طبيعة لا تشعر باستيفاء كيانها ، ومن هنا تتخلص من ألم النقص بتلك
المظاهر والتمثيلات^(١٢٧) .

ثم يثني على فاروق أنه كان يصنع ما يروقه ويأبى أن يحاسب
نفسه ، ويتغالى أن يحاسبه غيره ويستمتع الى ثناء المتملقين ، وينفر من
نصيحة المخلصين ، ومن هنا أطبقت عليه البلية وامتنعت عليه سبل
النجاة^(١٢٨) .

* *

(١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨) راجع : مجلة الكتاب الصادرة في ١ من

أكتوبر سنة ١٩٥٢ .

الفصل السادس

مع الاشتراكية

١ - الاشتراكية الفابية :

يرى الدارس لموقف العقاد من الاشتراكية ، أنه لم يكن اشتراكيا فحسب ، بل كان شديد التشجيع للاشتراكية منذ شبابه الباكر ، وذلك حينما طالب الحكومة في كتابه « خلاصة اليومية » بأن تستولي على ثروة الغني الذي يموت ، لتحسن بها حال المجموع وليس لابنائهم في ثروة أبيهم حق أي حق سوى أن تتولى الحكومة تربيتهم ، وفي ذلك يقول العقاد : « اذا مات رجل عن مائة ألف جنيه ، وخلف وراءه ابنا ، فكيف يحق لهذا الابن الاستيلاء على جميع هذا المبلغ ؟ وبأي مسوغ يستحل ذلك الولد هذا المقدار من ثروة الامة » .

« نعم ان على الوالد أن يربي ولده ، وله أيضا أن يعينه على انشاء مستقبل له في الحياة ، فليكن الامر كذلك ، فليس في هذا نزاع ، فاذا مات ذلك الاب فلتقم الحكومة مقامه ، فتتولى تربية ولده ، وتمده متى حان له أن يعمل لنفسه بما يبدأ به عملا من الاعمال ، ولتتركه بعد ذلك يلاقى ما يستحقه بجدارته من نجاح أو فشل وتنفق الباقي في تحسين حال المجموع بما لا يمكن أن يأتي على يد فرد من الافراد » (١) .
وفي موضع آخر نراه يصدر عن هذا المتجه الفكري مؤكدا سوء توزيع الملكية في القرن التاسع عشر ذاهبا الى أنه خلل لا يستقيم حال الجمعية البشرية الا بتلافيه حينما يقرر أنه ليس للانسان حق في أن

(١) عباس العقاد : خلاصة اليومية ص ٧٦ .

يحتجز من الثروة العامة الا بقدر ما يقدم ما يقدم لها من العمل فالرجل يسقط حقه في التصرف بثروته متى انقطعت أعماله بموته ، وعلى الهيئة الاجتماعية الانفاق من ريعه على من يهيمه أمرهم من بعده ، « يترك الرجل لابنه ضيعة ، والضيعة قبل عشرة أعوام لا تكلف صاحبها الا سعيًا طفيفا ، ولكنها لا تنال بعد عشرة أعوام الا بتكبد المشاق والصعاب ، فيتمتع ذلك الابن الكسول بجزء من الثروة العامة من غير أن يقدم لها عملا في نظيره ، وهو خلل متشعب في تقسيم ثروة الامة لا يستقيم حال الجمعية البشرية الا بتلافيه ، (٢) .

ولنا أن تساءل الان : هل ظل العقاد على هذا الفهم أم أنه رجس عنه ؟ لانه ربما يكون قد صدر فيما سبق عن فورة شباب يطمح الى المثل الاعلى ، ثم انطفأت فيما بعد .

وللاجابة على هذا التساؤل نقرر أنه دافع عن الاشتراكية دفاعا مجيدا، حينما نقد كتاب «سر تطور الامم» للدكتور جوستاف لوبون، العالم الفرنسي ، الذي عربه فتحى زغلول الوزير المصري في عام ١٩١١ تقريبا .

وفي هذا الصدد لم يرتض العقاد من المؤلف حملته المنكرة على المساواة والاشتراكية ، وتشاؤمه من الاشتراكية ، كما يتشائم الناس من نعيب اليوم لا يعلمون لذلك التشاؤم سببا ، لان دعاة المساواة لم يقولوا : ان الناس طبعوا على غرار واحد في العقل والفضل ، وهل ترى أن دعوتهم الى تساوي الناس في الحقوق أو القانون تعطل تنازع البقاء بينهم . وتذهب بمزايا التفاوت بين قادرهم وعاجزهم ، ومن هنا ترى أن دعوة المساواة حرية أن تفسح المجال لهذا التنازع ، وترفع العوائق التي يضعها في طريق المنافسة استئثار بعض الناس ببعض المنافع بلا موجب للاستئثار (٣) .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .

(٣) (٤،٣) عباس العقاد : الفصول ص ١٥٨-١٦٠ .

ويرى العقاد أن دعاة المساواة لم يعن واحد منهم العامل الجاهز بأن يتبوأ منصّة افيلسوف في الجامعة ، أو يسول له أن يطالب بوظيفة الطبيب أو المهندس ، ان مثل هذا الداعي لم يقم ولن يقوم ، لان مديري اليمارستانات لا يفرطون في مثله اذا ظهر ، بل كل ما يعني به الداعي الى المساواة ذلك العامل الفقير أنه يكون متساويا مع سائر الناس في الامن على حياته ، وهل في ذلك خير ؟ ومتى كان مبدأ المساواة لا يمنع انسانا حق التمتع بشمرة تفوقه في المعارف أو المواهب العقلية على سواء ، فأبي خير فيه ؟ (٤) .

ويذهب العقاد الى أن المساواة لا تتمثل في الامن على حياة العامل فقط ، بل تتعدى ذلك الى الانتخاب ، حيث انها في هذه الحالة توجب الديمقراطية ، وعدمها تنديد بروحها ، لان لكل انسان من الاصوات في الواقع بقدر ما له من العقل والقدرة على اقتناع سواء باختيار من هو أفضل من غيره للنيابة ، وكذلك يصبح أكثر الناس عقلا واستعداد للاقتناع أكبرهم قسما في سياسة بلاده ، فان كان بعض الموسرين يستعين بالمال على شراء الاصوات ، ويستخدم تلك الاصوات المتعددة في غرض واحد ، فذلك ما ينقم عليه الاشتراكيون أشد النقمة (٥) .

وفي هذا الصدد يقول العقاد : « وهبنا أبطلنا اليوم مذهب المساواة ، فمن يا ترى يحكم بين الناس ، ويقدر لكل منهم ما هو أهل له من الحقوق السياسية والادبية ؟ أترانا نلجأ في ذلك الى الحكومة ؟ ذلك ما ياباه الباحثون ، لانهم يريدون أن يقصروا عمل الحكومة على الضروري الذي لا يسع الافراد القيام به ، فأولى بالباحثين وهذه ارادتهم ألا يدعوا الحكومة تتدخل بين الناس حتى في ترتيب أقدارهم ، وتميز درجاتهم ، كأنما هم كلهم موظفون في دواوينها - فلم يبق اذن الا أن تترك الناس يدعي كل منهم من الحقوق ما يقدر على تحصيله بذراعه ، وبمثل هذا النظام تثوب الى الصواب ، ولا نكون قد تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة تعشي بصائرنا ، (٦) .

(٥ ، ٦) عباس العقاد : الفصول ص ١٦٠-١٦١ .

وفي تصورنا أن العقاد يؤمن بالاشتراكية إيمانا شديدا ، لأنه يعني على صاحب كتاب « سر تطور الأمم » أنه شديد الطيرة من الاشتراكية وتمثيلها تمثيلا مشوها ، لأنه يعتمد إلى شر مذاهبها فيعرضه على القارئ في حالة مشنوعة ، ثم يعمم حكمه على مذاهب الاشتراكية بحذفها ، فتارة يحكم بأنها ستؤدي بالأمم إلى أزدل درك الانحطاط ، وتارة يعرضها لك كما تتصورها أذهان الجهلاء الواهمين ، فيسبق إلى ظنك أن هذه الاشتراكية صنف من الأفيون استورده أئمة الاشتراكية من بكين^(٧) .

يعني العقاد على الدكتور لوبون هذا ، ولا يسلم له بهذا الفهم للاشتراكية ، لأنه لا يوجد مذهب من مذاهب الاجتماع ، أو دين من أديان الأمم سلم مما تعرضت له الاشتراكية من التحريف والتشويه ؟ وأي فكرة كبيرة أمكن أن تصل إلى أذهان العامة على حقيقتها دون أن يمزجوها بأحلامهم ويضيفوا إليها من تفسيراتهم وخطرات أوهامهم ما هي بريئة منه ؟ فمن الظلم إذن أن تعتبر هذه الأحلام أكثر من ظل للاشتراكية يقترن بها ويحاكيها ، ولكنه شيء آخر منفصل عنها^(٨) .

ويضيف العقاد إلى ذلك بأن هذه الأحلام لازمة لها كما تلزم الأحلام كل نحلة ورأي ، ولكنه يجب ألا يخلط في الحكم بينها وبين مبادئ الاشتراكية وقواعدها العلمية ، وهذه القواعد والمبادئ لا تدحض بالفسفسطة ولا تنقض بالتعوز والحوقلة ، لأنها نشأت من حاجة ضرورية شعر بها الناس وتكلموا فيها قبل أن يعلنها الفلاسفة وأهل النظر ، وكيف تدفع الحاجة إلى الاشتراكية بالفسفسطة والمغالطة أو بالمنطق والبينة ، وهي - كما يقول الدكتور لوبون - سر لا يعرفه إلا علماء النفس الواقفون على أسرار الحياة ، ولا تأتي الأدلة التي تقنع به من طريق العقل^(٩) .

ويتساءل الدارس عن موقف العقاد من القائلين بأن الاشتراكية نذير

(٨،٧) المرجع السابق ص ١٦١-١٦٢ .

(٩) عباس العقاد : الفصول ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

الانحلال والضعف ، وأنها لا تفسو في الامم الا على وشك من اديار
مجدها واختلال نظامها ونفاذ ما فيها من قوة حيوية ؟

يدفع العقاد هذا الزعم الذي قال به عدو الاشتراكية جوستاف
لوبون في كتابه ، كما قال بما يقاربه الباحث الاثري المشهور « فلندرس
بيري » اذ ذهب الى أن الدول تنشأ في مبدأ ظهورها على يد فرد مستبد ،
ثم تنحدر منه الى فئة من العلية والمقربين ثم تنحدر الى الحكم الديمقراطي
أو حكم الطبقات الوضيعة فيعترىها من هنا الضعف فالسقوط في قبضة
مستبد جديد (١٠) .

يدفع العقاد هذا الزعم بقوله : كأنما هذا الترتيب استنبطه «بيري»
من أطوار التاريخ المصري - على فرض صحته - قاطع في الدلالة على أن
الاشتراكية أو الديمقراطية هي علة السقوط الذي يعترى الدول ، وانها
لا يجوز أن تكون عرضا من أعراضه ، ونتيجة من نتائجه ، وكأنما
يكفي مداواة ذلك السقوط أن تمحي الاشتراكية ويمحق الاشتراكيون ،
ولا يجوز أن يكون الدواء الناجع مرتبطا ببدء العلة الدفينة التي اطلعت
الاشتراكية وأطلعت أعراض السقوط معا ، واذا كانت الاشتراكية على
هذا التقدير عرضا للعلة وليست هي العلة نفسها ، فماذا يجدينا أن
نمحوها ونكم أفواه الداعين اليها ، وماذا في محوها من الدواء للانحلال
والتهور الذي لا مفر منه ؟ ألا يكون ذلك كعلاج الجذري بنزع قشور
طفحه من ظاهرة البشرة ، وترك جرثومته تسري في الدم وترتع في
باطن الجسم ؟ فان كان ثم دواء فليكن الدواء للعلة الاصيلية ، والا فلا
معنى للقدح في الاشتراكية ، ولا فائدة من اضطهاد دعائها (١١) .

وهنا يبرز سؤال هو ألزم سؤال في هذا المقام : هل معنى هذا أن
العقاد لا يرى علاج ما في المجتمع من نقص ومثالب الا في الاشتراكية ؟
وللاجابة على هذا السؤال تقرر ان العقاد يعترف بأن نظام مجتمعنا
مشمتم على نقائص ومثالب ، ومن هنا يطالب بتبديلها .

(١٠ ، ١١) المرجع السابق ١٦٣ ، ١٦٤ .

وتكمن مطالبته تلك في أن تهتم الحكومة بشخصية الحائزين للمال ،
كما تهتم بشخصية الحائزين على السلاح ، لان المال ربما كان أخطر في يد
الشريير من السلاح في يد القاتل (١٢) .

وفي تصورنا ان هذا القول من العقاد يدفع كل ما نسب اليه من
بعض الكتاب بانه رجعي يعاند مطالب الشعب ويقف في طريقها .

ومهما يكن من امر ، فان العقاد يوافق في هذا التحذير من اصحاب
الاموال السير « اوليفر لودج » ، حينما ذهب الى ان الثروات العظيمة خطر
على المجتمع ، وان هذه الثروات تكثر من جراء انظمة مصطنعة يمكن
تبديلها ، وليست هي مما تقضى به طبيعة سير الامور ، وانه يجب ان يعاد
النظر في قانون التوريث وأن ينقح ، وان كثيرا من المصاعب التي تواجه
المجتمعات الحديثة ناجمة من السماح للأفراد بحق الملك المطلق على
الارض بدلا من المجاميع (١٣) .

ويطالب العقاد ولاية الامور في كل امة على نحو أصرح مما سبق ، ان
يعترفوا بنقائص المجتمع ولا تفتنهم عن اصلاحها عصبية الطبقات ، لان
الكثير من هذه النقائص قابل للاصلاح والتخفيف ، لولا تعنت من بعض
الطبقات القوية يجبر الى تعنت الطبقات الاخرى ، وتفاقم النزاع بينها على
غير جدوى . ومن حق جميع الطبقات ان تنال كل حظها من المعيشة
الصحية ، وان يسوى بينها في فرص العمل التي تؤهلهم الى كفاءتهم
الطبيعية مع الاعتراف بالفوارق الطبيعية بين اخلاق الناس ومداركهم
ومواهبهم المختلفة لان عدم الاعتراف بالفوارق الطبيعية بين اخلاق الناس
ومداركهم ومواهبهم المختلفة ، لان عدد الاعتراف بها لا يكون عدلا
ورحمة ، بل ظلما واجحافا معكوسا مناقضا لسنن الطبيعة (١٤) .

وبالاضافة الى ما سبق يرى العقاد ان الاشتراكية الصحيحة ليست
اسطورة من الاساطير ولا هي وعد خيالي يبشر الناس بالتعادل في الاقدار

(١٢) عباس العقاد : الفصول ص ١٦٣، ١٦٤ .

(١٣، ١٤) المرجع السابق ص ١٦٤، ١٦٥ .

والتساكل في المنازل والارزاق .. كلا .. فليست المساواة بين الناس من
همها ان تكون مطلقة تلغى الفوارق الطبيعية ، ولكنها تدعو اى المساواة بين
الاجر والعمل ، وتطلب ان يعطي كل عامل ما يستحقه بعمله ، وان ينتفع
المجموع بأكبر ما يمكن الانتفاع به من قوى الافراد^(١٥)

وفي هذا الصدد يقول : « فان كانت الدنيا قد حم اجلها ، وقارب
يومها ، لان جائعا يريد ان يشبع ، ومنهوكا يتمنى ان يستريح ، ومظلوما
يود لو ينتصف ، فليشد ما هزلت هذه الدنيا وضعف مزاجها وتبدل حالها
بعد ان احتملت في ماضى العصور طغيان الجبابرة وبطر النبلاء ، وبعد ان
صبرت على دسائس الدعاة واكاذيب الدجالين^(١٦) ، »

والاشتراكية في تصوره قامت لترقى مدارك العامل وترفع عنه حيف
صاحب العمل وتجعله انسانا ذا رغبة في عمله وغيره عليه ، وليس كما
هو الان آلة تدير آلة ، ومن هنا لابد ان يسود الاعتقاد بتضامن الانسانية
وايقان كل فرد ان على حقوقه حارسا من امته ، وانه موضع عناية الانسانية
اجمع ، وبذلك تثوب الخواطر ويرعى الناس حرمة الواجب ، والا فلو
ظن الانسان انه ليس ثمة ضمير عام يؤنب الناس كافة على ما يحل به من
الغبن والاذى ، وانه لا حق له في الرحمة اينما يعم وجهه فقد مات ضميره ،
وغلبه الحرص فتعلق بالجنس ونبت المبادئ والفضائل ، الا ما وافق منها
هواه ، وفشت فوضى الاخلاق فارتفعت الحدود ، واندثرت معالم الشرائع
الا في الدفاتر والاوراق^(١٧) .

على ان العقاد يعرض لما يتطلبه تحقيق الاشتراكية حينما يرى انها
تتطلب قبل تحقيقها معتقدا جديدا يمثل في وحدة الاخاء أو التضامن
الانساني ، لانك اذا زرعت في قلب الانسان ثقته بعطف الانسانية أكبرته
في عين نفسه ، ومسحت عن قلبه ذلة المخلوق الذى نبذته السماء ، ولم
تعبأ به الطبيعة الا كما تعبأ باحقر المخلوقات .

ومن ثم ينبغي ان يعتقد الانسان انه يعمل للانسانية لا ابتغاء المثوبة ، او خوفا من العقوبة ، ولكن مسوقا بمحرض من غرائزه التي لا طاقة له بالخروج عنها ، فاذا عمت هذه العقيدة رضى كل انسان بحظه ، ولم يطلب الجزاء على عاطفته النوعية في غير ارضاء تلك العاطفة ومطاوعتها فيما توحى به (١٨) .

ويرى العقاد ان الاشتراكية ليست من مصطنعات هذا الجيل ، ولكنها قديمة ظهرت في كل مكان يحرم فيه العامل ويغتم العاقل ، وتطور هذا العصر في فهمها ، وتوسع في تطبيقها تبعا للتطور الشامل لكل مرافق الحياة ، ومن بينها علاقات الافراد والامم (١٩) .

ويضيف العقاد الى ذلك اننا لسنا في عصر يتحكم فيه سادة على عبيد ، او يستبد فيه شرفاء على سرقة ، ولكن المسألة ظهرت في طورها الجديد ، وكان ظهورها في هذه المرة بين اصحاب الاموال وطوائف العمال . ومنذ أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة أصبح كل صاحب معمل يتمتع بتعب الالوف من الصناع الذين يستخدمهم في معمله ، فكان التعب والحرمات من نصيب فريق ، والراحة والربح من نصيب الفريق الاقل ، فتجددت ، الشكوى القديمة ، وعادت الاشتراكية ، ولكن هل تراها عادت اليهم لتشهد خاتمة هذه المدنية ؟ وهل لا مفر من هذه الخاتمة بعد عودة هذه الاشتراكية الجديدة (٢٠) ؟

لا يظن العقاد ذلك ، لاننا اليوم في مأمن من غارات القرون الاولى ، ولان العلم والنظام قد اصبحا في هذه العصور ملكا للانسانية عامة ، وليس من خواص أمة يذهبان بذهابها (٢١) .

ويرى الدارس أن العقاد لم يخرج عن هذه الآراء حينما قابل الكاتب الالماني «أميل لودفيج» وسأله لودفيج عن رأيه في مسائل المجتمع والسياسة وموقفه من الاشتراكية بالذات .

وكانت اجابة العقاد انه يوافق الاشتراكيين في كل ما يؤدي الى

(١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١) عباس العقاد : الفصول ص ١٦٦ ، ١٦٧ ،

تحسين أحوال الفقراء والاجراء ، ويخالفهم في كل ما يؤدي الى حرمان الفرد حريته الفكرية والشخصية . وبعد ذلك عاد « لودفيج » يسأل العقاد : عندكم في مصر قوة تقدم ، وقوة محافظة وجمود ، وقوة بريطانيا ، فايهما يكون له التغلب فيما تظن (٢٢) ؟؟

فأجابه العقاد بقوله : أتسأل عن المدى الطويل ، ام المدى القصير ، فقال « لودفيج » بل عن المدى الطويل ، فقال العقاد : سيكون الغلب لا محالة لقوة التقدم . . للحرية بعد عراك طويل ، فأعجب « لودفيج » ، باجابة العقاد وقال له يسرني ان اسمع منك ذلك (٢٣) . .

وبعد ذلك ببضع سنوات وجدنا العقاد يذكرها في كتابه « سعد زغلول سيرة وتحية » (٢٤) ليوضح رأيه في الاشتراكية وقوى التقدم ، ثم تحدث عن هذه المناقشة التي جرت بينه وبين « أميل لودفيج » في مقام الحديث عن رأيه في قوى التقدم والاشتراكية في مجلة الهلال (٢٥) .

على ان العقاد ذهب فيما بعد الى ان تذويب الطبقات يمنع نشأة الدكتاتورية في مصر ، ولا سيما اذا تيسر للامة الرزق ، وسلمت من الفوارق الاجتماعية التي تجعل ندرة الارزاق عند بعض الناس مسألة طائفية ، أو حربا كحرب الطبقات المعهودة (٢٦) .

٢ - الاشتراكية الديمقراطية :

ويرى الدارس ان موقف العقاد من الاشتراكية فيما بعد قد تغير نوعا ما من التغير ، واخذت مطالبته بحقوق الشعب تأخذ صورة اخرى تختلف عن الصورة السابقة .

• (٢٢، ٢٣) عباس العقاد : حياة قلم ص ٢٠٤، ٢٠٥ .

• (٢٤) عباس العقاد : سعد زغلول سيرة وتحية ص ٤٧١ .

(٢٥) راجع : الهلال الصادرة في ١ من يناير ١٩٤٩ تحت عنوان

« هؤلاء حادثتهم ، للعقاد .

وفي مقام التدليل على ذلك يسوق الدارس ما كتبه العقاد تحت
« هل تصبح مصر اشتراكية » في كتابه « يسألونك » الذي صدر في عام
١٩٤٦ ، اذ ذهب في ذلك الحين الى ان الاشتراكية ليست نوعا واحدا ،
ولكنها اشتراكيات ، وان الاشتراكيين اكثر الناس اختلافا على تفاصيل
مذهبهم واكثرهم اتهاما لمن يخالفونهم ، لكثرت على كثرة المذاهب
الاشتراكية وكثرة التهم التي يتقاذفها المختلفون عليها تستطيع ان تقسمها
الى معسكرين اثنين يدور بينهما اكبر الخلاف ، وهما المعسكر الذي يوافق
الديمقراطية ، والمعسكر الذي يحاربها ولا يوافقها بحال من
الاحوال (٢٧) .

« فلاشترائية التي تحارب الديمقراطية وتسمى الى هدمها هي
مذهب « كارل ماركس » ومن والاه ، ولا بد فيها من عناصر ثلاثة لاتقوم
بغيرها ، وهي الايمان بالتفسير المادي للتاريخ ، وتغليب طبقة واحدة على
المجتمع كله ، واستخدام العنف لا محالة لتعجيل الانقلاب المطلوب . .
فمن لم يؤمن بالمادية المطلقة في جميع مظاهر الحياة وبالغاء جميع الطبقات
ما عدا طبقة الاجراء ، وضرورة الثورة الدموية لتحقيق المذهب ، فليس
هو من الماركسيين ، وقد يتم التفاهم بينه وبين الديمقراطية على نحو من
الانحاء (٢٨) ، .

ويذهب العقاد الى ان مصر بعيدة جدا عن الاشتراكية الماركسية ،
وبعيدة على درجات من البعد عن الاشتراكية الديموقراطية . .
وفي مقام اتعليل لذلك البعد يرى العقاد ان الاشتراكية - حتى
الديموقراطية منها - تستلزم خطوة سابقة لظهورها ، وهذه الخطوة تتمثل
في الوعي الاجتماعي ، أو وعي الطبقات (٢٩) .

ومعنى هذا الوعي ان تشعر طبقة الاجراء والصناع خاصة بوجودها
غير منعزل عن سائر الطبقات الاجتماعية الاخرى ، ولا يتفق ظهور هذا

(٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩) عباس العقاد : يسألونك ص ١٥٥ ، ١٥٦ ط

أولى القاهرة ١٩٤٦ .

الوعي الا بعد شيوع الصناعات وازدحام المدن بجامعات الصناعات وتعاقب
بينهم وبين اصحاب الاموال (٣٠) .

على ان مصر - في تصور العقاد - لم تعرف وعي الطبقات على هذا
المعنى ، ولم يبد من بوادره فيها الا اثر ضعيف لا يعتمد عليه في توجيه
الحركات الاجتماعية . ذلك لان العاملين في الزراعة لا تتألف منهم وحدة
كالوحدة التي تتألف من الوف العمال الذين يشتغلون في مصنع واحد
ومدينة واحدة ، ولا يندر في الريف المصرى ان يكون العامل في الارض
من ابناء عمومة المالك الكبير او من ذوى قرابه ، ومعظمهم يعترفون بنسبهم
هذا اكثر من اعتزازهم بعصية الطبقة الفقيرة التي لا يحسبون انفسهم منها
وان كانوا فقراء (٣١) .

كما ان العاملين في المدن لا تتألف منهم تلك الوحدة القوية التي
توجد مع الصناعات الكبرى واتصال تلك الصناعات بمرافق الامة باسرها ،
وقد ظهرت بينهم تلك البوادر التي لم تظهر بعد بين عمال الزراعة ، فهم
يشعرون بطبقتهم ويبحثون عن حقوقهم ، ولكنهم لم ينتظموا في حركتهم
على النحو الذي يهيم لهم ولاية الحكم او المشاركة فيه (٣٢) .

من هذا وذاك يرى العقاد ان المصريين في مصر بعيدون عن
الاشتراكية الماركسية ، وبعيدون شيئاً ما من البعد عن الاشتراكية
الديموقراطية . ولكنه مع هذا يرى ان الاشتراكية ستجىء الى مصر مع
ادخال عنصر الزمن في ذلك المجرى ، او على حد تعبيره ، « اذا جلسنا في
أماكننا وانتظرناها ، ولا نعرف طريقها اذا نحن سبقناها الى منتصف
الطريق (٣٣) » .

ويقرر العقاد آنذاك أنه لن تبقى امة واحدة على وجه الارض بغير
تسوية مشروعة بين العمال واصحاب الاموال ، وستفرض هذه التسوية
فرضا بالنظم الدولية التي تقرها كبار الامم وتتفق على تنفيذها ، وربما كان

(٣١، ٣٠) عباس العقاد : يسألونك ص ١٥٥ .

(٣٢ ، ٣٣) المرجع السابق ص ١٥٦ .

انصاف العمال شرطا من شروط الانتقام في جماعات امم الحضارة ، كما
كان الاعتراف بالنقابات شرطا من شروط الدستور الذي قامت عليه عصبه
الامم بعد الحرب العالمية^(٣٤) .

وبالاضافة الى ذلك يطالب العقاد المشرعين آنذاك بأن يفرضوا هذا
الانصاف للعمال قبل ان تفرضه النظم الدولية ، وذلك حينما يقول :

« وخير لنا ان ن فرض هذا الانصاف على انفسنا قبل ان تفرضه النظم
الدولية علينا ، فان لم يكن كذلك ، فان تعميمه بالنظم الدولية انفع لنا من
التفرد بين الامم بتجاهل مطالب العمال ، واغضاء عن حقوق العمل في
صوره المختلفة ، لان هبوط مستوى المعيشة بين الطبقة العاملة في بلادها
يسوق اليها الاموال الاجنبية التي يطمع اصحابها في استغلال مرافقنا ،
لرخص الاجور عندنا . فعلينا اذن ان نسبق الاشتراكية الى منتصف
الطريق ، والا جاءتنا الاشتراكية وفتحت ابوابنا على الرغم منا^(٣٥) » .

ومنتصف الطريق في تصور العقاد هو ايماننا بتعاون الطبقات ، فنقضى
به على حرب الطبقات قبل احتدامها .

ويذهب العقاد الى انه لا بد من تعقل الاغنياء في هذا الوقت لمواجهة
الحقيقة ، بل لا بد من فرض هذا التعقل على جهلائهم بهداية الزعماء
الذين يعرفون الخطر قبل وقوعه ، ويعطون الحق قبل ان يفصبوا
عليه^(٣٦) .

ويتمثل هذا التعقل في ان يقبل اصحاب الاموال زيادة الضرائب على
ثرواتهم الكبيرة لنشر التعليم وتحسين الصحة العامة ، وضمان العيش
للمشيوخ والعجزة ، وضمان التربية وسلامة البنية للاطفال الصغار
المحرومين من العائلين^(٣٧) .

كما يتمثل هذا التعقل ايضا في ان يتبرع الاغنياء بالاموال لبناء
المستشفيات والملاجئ والمدارس الشعبية ، واقامة المصانع واصلاح الاراضي

(٣٤) المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٣٥) (٣٧، ٣٦، ٣٥) عباس العقاد : يسألونك ص ١٥٧ .

البور تيسيرا لوسائل العمل وتوفيرا للسلع والخيرات ، فلا يكون قصاراهم
من خدمة المجتمع ان يرضخوا من الضرائب طابعين أو كارهين (٣٨) .
ويرى العقاد آنذاك انه من الممكن ان تقف عند منتصف الطريق ،
لان التجربة الانجليزية والامريكية والدانمرك والسكندناف ، تدل على
امكان التعاون بين الطبقات وتوفيق بين طبائع الافراد وطبائع الامم ومبادئ
الحرية العامة في نظام معقول ضحاياه أقل كثيرا من ضحايا الانقلاب
الشيوعي حيث كان وكيفما كان (٣٩) .

ويعلل العقاد ذلك بأن التنافس لازم لاستنهاض همم الافراد الى طلب
الكمال ، والتعاون لازم لتحقيق المصلحة العامة ، ومبادئ الحرية هي
الفارق بين الانسان والحيوان الذي يقنع بالمعيشة المادية ، كما يعيش
القطعان في الحظيرة ، او على أحسن الاحوال كما يعيش المذنبون في
السجون (٤٠) .

وفي تصور العقاد ان نظام الديمقراطية يسمح للافراد بالتنافس ويعطى
المجتمع حقوقه النافعة ولا يجوز على مبادئ الحرية العريضة على بني
الانسان ، وذلك لان المرافق الكبرى في النظام الديمقراطي - كما هو
مطبق في البلاد الاوربية - ملك للامة بأسرها ، وان الافراد فيها اجراء لا
يملكون شيئا منها ، لان صاحب المصنع الذي يعطى الامة سبعين او ثمانين
- او تسعين في المائة من ارباحه - لا يتقاضى اكثر من مدير موظف
يستأجر لادارة دفعة المصنع على حساب الدولة ، ولكنه في ظل النظام القائم
يملك همة المنافسة ، ونشاط الرغبة الفردية ، ويشعر بالحرية ويعمل
للجماعة وهو يحسب انه يعمل لنفسه ويفار عليها . وذلك بعكس المدير
الذي يعمل كالموظف في غير ملكه ، فلا يحقق حرية الفرد ولا مصلحة
الامة ، ولا يلبث التنافس المعطل فيه وفي غيره ان يبدي عواقبه الوخيمة
على مصالح المجتمع ومصالح الافراد (٤١) .

• (٣٨، ٣٩، ٤٠) المرجع السابق ص ١٥٧-١٥٩ .

• (٤١) عباس العقاد : يسألونك ص ١٥٩ .

ويخلص العقاد من هذا كله الى ان الاشتراكية الديمقراطية هي التي يتمناها لمصر ولا يخاف عليها منها ، ويعتقد اننا « سائرون اليها بالقدوة الدولية ، وان لم نمر باطوارها الصناعية ، كما مرت بها الامم من قبلنا ، ولكن القدوة الدولية لن تغنينا عن ولاية الامر بايدينا كما يوافق مصالحنا وآدابنا وتقاليدنا ، ولن تغنينا من السبق الان الى لقاء الاشتراكية الديمقراطية دون ان ننتظرها لنبتلى بتجاربها ونمتحن بمغامراتها^(٤٢) .

وفي موضع آخر يرى العقاد هذه المعاني من حيث ايجاب الضرائب التصاعدية على اصحاب رؤوس الاموال والمطالبة بالاشتراكية الديمقراطية أو على حد تعبيره الاشتراكية الوسطى ، أو الاشتراكية المعتدلة بين الطرفين ، طرف السيطرة الحكومية الشاملة ، وطرف الفوضى التي تبيح لكل فرد ان يفعل ما يشاء في امور لها مساس بسلامة المجتمع ووسائل المعيشة فيه^(٤٣) .

وعلى الرغم من انه يذهب الى ان الاشتراكية ليست بالنظام الغريب عن بلادنا ، الا أنه يخص بحديثه الاشتراكية الديمقراطية أو الاشتراكية الوسطى ، ويسوق في التدليل على رأيه ما سبق أن عرفناه ، إذ أنه يقول : « ان تجارب مصر وتجارب غيرها قد أثبتت لنا على التحقيق أن المرفق الذي تديره الحكومات تتضاعف تكاليفه وتزيد فيه المغارم على المغانم ، ويؤول شأنه الى الاهمال وقلة الاكتراث .. وبداهة العقل تأبى أن يقال أن عمل الانسان لغيره كعمله لنفسه ، فان الطبيعة برمتها لا تحمل الحي على ابقاء نوعه ما لم يكن في تكوينه دافع المتعة الشخصية ، ومن الحنان الابوي ، ومن الامل الذي تدور عليه عواطف الاحياء^(٤٤) .

ومن ثم يرى أنه من الخطر تسليم المرافق جميعاً الى الدولة ، والغاء البواعث الفردية التي تشحذ الهمم وتقعن المرء بأنه يعمل لنفسه ولذريته

(٤٢) عباس العقاد : يسألونك ص ١٥٩ .

(٤٣) راجع : مجلة الهلال الصادرة في ١ من اكتوبر سنة ١٩٥١ .

(٤٤) راجع : مجلة الهلال الصادرة في ١ من اكتوبر سنة ١٩٥١ .

مع خدمته للمجموع • وقوام الامرين بالنسبة الينا نحن المصريين على الخصوص أن نبقي للفرد حق الملك وحق التصرف فيما يقدر عليه ، وندع للحكومات أن تستأثر بالاعمال العامة التي لا قبل بها للأفراد ولا للشركات (٤٥) •

وتبدو قيمة هذه الآراء وصواب وجهة نظر العقاد ، اذا عرفنا أنه قد أعلن في الاتحاد السوفيتي أن حافز الربح سيكون حجر الاساس في الصناعة الاستهلاكية ، وسيعمم المسؤولون في روسيا التجربة في جمهورية روسيا الاتحادية - وهي أكبر وأهم الجمهوريات السوفيتية - وتقوم هذه التجربة على أساس الاستجابة مباشرة لاحتياجات المستهلكين بدلا من الالتزام بنظام الحصص التي تفرضها الحكومة • وذلك بأن تحول سلطة التخطيط من الدولة الى من يرى المصانع ، وسيكون هؤلاء المديرون مسؤولين عن ربح مصانعهم ، وسوف يسمح لهم باعادة استثمار جزء من أرباح المصانع على النحو الذي يرونه (٤٦) •

ويلح العقاد في تأكيد هذه المعاني وفي المطالبة بالتوسط بين الاشتراكيين ، ويرى أنه اذا أصبحت مصر اشتراكية فأصلح الاشتراكيات لها أن تتوسط ولا تندفع مع الشطط في جانب من الجانبين ، فليس من مصلحة مصر أن تستولي الحكومات على مرافقها وأن تدار فيها الاعمال العامة ، كما تدار أعمال المكاتب والدواوين ، وليس من مصلحة مصر كذلك « أن تغفل عن مجرى الامور في العصر كله وفي العالم بأسره ، وأن تبقي هذا التفاوت الشاسع بين أغنيائها وفقرائها الزراعيين ، وبين أصحاب رؤوس الاموال وأصحاب الايدي العاملة ، وفي وسعها أن تحقق المصلحة لابنائها جميعا ، وبذلك لا ينهدم مجتمع ، ولا تسع الفجوة بين أغنيائها وفقرائها أو تفتح أبواب الاستغلال والشكوى » (٤٧) •

(٤٥) راجع الاهرام والابخار الصادرتين في ٩-٧-١٩٦٥ تحت عنوان « نائب رئيس جمهورية روسيا السوفيتية يعلن : مزايا تجربة الحافز الفردي ظهرت عمليا •

(٤٦،٤٧) راجع : مجلة الهلال الصادرة في ١ من اكتوبر سنة ١٩٥١

ومهما بكر من أمر ، فإن الدارس على الرغم من تسليمه بأن في آراء العقاد بعض الحق فيما يختص بإدارة أعمال المرافق العامة ، فإنه ليفتقد تلك الجرأة الفكرية الطموحة إلى تحقيق مجتمع أفضل ، كما عهدناها فيما كتبه وهو في شبابه .. ولكن الدارس يسلم في الوقت نفسه أنه لم يكن ينتظر من العقاد أكثر من هذا وذلك لأمرين :

أحدهما : البلاد كانت تسودها طبقة الاقطاعيين الذين كانوا يملكون كل مقدرات البلاد ، ويوجهون الحكم في الوطن - بزعامة فاروق ذلكم الاقطاعي الأكبر - إلى حيث يحقق مطامعهم ومصالحهم الذاتية .. ومن هنا لم يبالوا في تحقيق تلك المطامع أن يزجوا بكل تقدمي يطالب بالعدل والاحياء الانسانيين في غياهب السجون ، وبالنفى والتشريد في بقاع العالم المتأخر أو المتقدم على سواء^(٤٨) .

والامر الآخر يتمثل في أن العقاد وقف من الاشتراكية هذا الموقف بعد أن ذرفت سنه على الستين ، واصطلحت عليه الآفات والعلل الجسمية والنفسية على سواء .

فمن ناحية الجسم - كما يعلم تلاميذه والمقربون منه - كان مريضا بالصدر حيث تحجر جزء من الرئة ، و « القولون » ولم تعد صحته على ما كانت عليه في عام ١٩٣٠ حينما سجن وخرج من السجن ليقول :

عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما سيعهدني كل كما كان يعهد
معنى هذا انا أمام رجل لا طاقة له بالسجن والتعذيب الذي كان
الحكام آنذاك يمنحوه للتقدميين لكي يتم وأد أفكارهم التقدمية على مذبح
مطامع أولئك الحكام من الاقطاعيين .

ومن ناحية النفس فإن عهدا قد بُليَ بأولئك الحكام لعهد تسوده
القتامة ويتشع بالسواد ، ويراق دم المثل الاعلى فيه في معبد الانانية
والذاتية التي كان الحكام يسمون بها .

(٤٨) نفس المرجع السابق .

ولهذا وذاك عقد العقاد مع الحياة صلحا وقبلها على ما هي عليه
وراح يطالب للشعب بحقوقه ولكن في صورة قد تكون مخالفة لاشتراكيتنا
اليوم ، ولكنها يومذاك كانت تعد مقدمة من كاتب أعزل لا يتمتع بقيادة
جيش ولا فورة الشباب *

ويتساءل الدارس هل ظل العقاد على هذا الموقف لا يريم عنه
حتى بعد قيام الثورة ؟

وهنا لا بد أن نسطح العقاد لنقف على ماهية تفكيره ازاء الاشتراكية
ونظام الاقطاع الذي كانت تلتفح به مصر منذ القرن التاسع عشر ، ومن
هنا أيضا لا بد أن نرجع الى الوراء فنجتاز حقبة من الزمن ، حيث تقف
وجها لوجه أمام مجلة الكتاب في عام ١٩٥٢ ، نقف أمامها لنرى العقاد
يتحدث عن الاقطاع فيذهب الى أن عهد الاقطاع يلفظ أنفاسه الاخيرة في
بلد بعد بلد من بلاد الحضارة ، فان لم يمت عبطة يمت هرما كما قال
الشاعر ، أو كما قال الشاعر الاخر (٤٩) :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الاسباب والموت واحد
ففي البلاد التي تقدمت فيها الصناعات الكبرى يموت بالشيخوخة ،
ومن بقي من أصحابه فانما يبقى منقسم السلطان منهدم الاركان ، أما في
البلاد التي تخلفت فيها الصناعات فلا استقرار له بين أهلها ولا قدرة له على
التماسك والثبات في وجه القوى التي تنوشه من جميع حياته وتعمل على
التعجيل بذهابه ، وتقوضت أركانه في بلاد زراعية لم تقدم فيها الصناعة
الكبرى ، وتقوضت أركانه في بلاد يتوسط فيها الامر بين الزراعة
والصناعة (٥٠) .

وأخذ العقاد يعدد هذه البلاد وتلك الى أن قال : ان ظروفنا في
مصر أصلح - من ظروف البلاد التي قضت على الاقطاع - لنجاح التجربة
مع توافر أسباب الحيلة والتدبير القويم . ذلك أن ظروفنا في مصر تؤكد
لنا أن الاصلاح الزراعي عندنا ألزم وأيسر من وجوه شتى (٥١) .

(٤٩ ، ٥٠ ، ٥١) راجع : الكتاب الصادرة في ١ من نوفمبر سنة ١٩٥٢ .

ثم يعترف العقاد بأن الاصلاح الزراعي لا يمكن أن يخلو من العقبات والمصاعب ، ولكن هذه المصاعب وتلك العقبات لا يمكن حصرها - في تصوره - قبل الشروع في التطبيق والتقدم به خطوة بعد خطوة^(٥٢) ويرى العقاد أن البوادر التي ظهرت من العقبات والمصاعب آنذاك تلخص في ارتفاع أجور العمل الزراعي وهبوط أثمان المحاصيل مع تحديد أجرة الفدان •

وعلى الرغم من هذه المصاعب فإنه يرى أنه لا بد أن يرتفع مستوى المعيشة بين عمال الزراعة فلا محل للحد من أجرة العامل الزراعي كلما أمكنه الحصول عليها^(٥٣) •

وفي تصوره أن اشراف الدولة على تصدير الحاصلات المطلوبة في الخارج ييسر لها أن تشتري حاصلات الارض بالثمن الذي يجزي المالك والعامل • وان الاصلاح يحتاج الى مؤسسة مالية تكفل بتمويل الحركة كلها ، وقد يؤدي جمع المال لهذه المؤسسة الى تخفيف التضخم النقدي وتمكين الحكومة من سداد أثمان الارض المستغنى عنها ومعونة الفقير الذي يزرع أرضا ولا يملك أدوات زرعها وكل صعوبة تعترض هذه الحلول وما شاكلها هي أهون على كل حال من دوام عهد الاقطاع الذي لا مصلحة لاحد في دوامه ، حتى الاقطاعيين لو أنهم يتبصرون^(٥٤) •

على أنه يرى في موضع آخر أن السبيل الوحيد لضمان تقدم الثورة في عملها ، هو أن تدفع غائلة النكسة عن هذا الوطن ، فلا يرجع الى الهاوية التي لم يكد يخرج منها ، ولن تؤمن هذه النكسة مع بقاء النظام الاقطاعي على شره الذي عهدناه ، ولو عقل الاقطاعيون لسبقوا غيرهم الى حمد الله على هذه النتيجة ، فانها حماية لهم في آخر المطاف^(٥٥) •

(٥٢،٥٣) المرجع السابق نفس العدد •

(٥٤) راجع : الكتاب الصادرة في ١ من نوفمبر ١٩٥٢

(٥٥) راجع : الهلال الصادرة في ١ من ديسمبر ١٩٥٢ •

وحيثما يتحدث في ذلك الوقت عن النهضة الجديدة يرى أنها
تمشى مع مبدأ المساواة قبل كل شيء ، والمساواة في تصوره تتمثل في
التقريب بين الطبقات ، والغاء الرتب والالقباب ، وأخيرا المساواة في
الحقوق الوطنية^(٥٦) .

ولم يقف العقاد من قرارات يوليه الاشتراكية في عام ١٩٦١ جامدا ،
بل انه كتب عن الاشتراكية يقول :

« الذي نعلمه من مراقبة الاشتراكية خمسين سنة أنها تختار لها
أحد طريقين لا معدى عن واحد منهما :

« طريق الهدم والعداء ، وشعار أصحابه أن الإصلاح الاجتماعي
قبل هدم المجتمع عبث عقيم . وطريق التعاون والتقدم ، وشعاره أن
المجتمعات كالبنية الحية تعالج وتصلح على العلاج ، ولا يلزم أن يموت
أولا لتبعث ثانيا^(٥٧) .

« وهذه هي « اشتراكية التعاون » التي تحراها ولاية الامور في وطننا
لاصلاح المجتمع بتحسين معيشة العامل والفلاح وتحديد الثروة على
أنواعها ، وتقريب المسافة بين طبقات الامة .

« وهي اشتراكية تؤتي ثمراتها على التحقيق كلما تابعت بها التجربة
بعد التجربة على أساس التوفيق بين تقييد الاحتكار والاستغلال واطلاق
النشاط الحر والكفاية الفردية في ميادين العمل كافة .

« وحدها الواسع أن تنطلق جهود الفرد الى حيث تذهب به كفايته
ورجاؤه ، ثم لا مذهب له وراء المصلحة التي تلتقي فيها سلامة الفرد
وسلامة المجموع ،^(٥٨) .

٣ - تلويب الطبقات :

وان يعجب الدارس فلن يجد ما يستثير عجبه ودهشته أكثر مما

(٥٧) راجع : مجلة الهلال في عددها الصادر في أول أكتوبر سنة

١٩٦١ تحت عنوان « اشتراكية التعاون هي اشتراكيتنا » .

(٥٨) راجع : مجلة الهلال في عددها الصادر في أول أكتوبر سنة

١٩٦١ تحت عنوان « اشتراكية التعاون هي اشتراكيتنا » .

كتبه العقاد في الكتاب الثالث من سلسلة « الناقوس » التي كان يشرف على نشرها ، والتي كانت في الوقت نفسه مشارا لشبهات كثير من الكتاب التقدميمين ازاء وطنية العقاد .

وفي هذه المقدمة يتحدث العقاد عن أسباب التفاوت الرأسي بين الطبقات^(٥٩) الاجتماعية ، ويفرق بينه وبين التفاوت الأفقي ، اذ أن التفاوت الرأسي تفاوت من الاعلى الى الادنى ، وذلك بخلاف التفاوت الأفقي ، لانه تفاوت لا يلزم فيه الاختلاف بين الدرجات العليا والدنيا سواء نظرنا الى ارتفاع الجاه والمظهر أو ارتفاع المركز والوظيفة ، أو ارتفاع المراتب في الثروات والارزاق^(٦٠) .

وفيما يختص بأسباب التفاوت بين الطبقات الاجتماعية نراه لا يذهب فيها مذهب الماديين الذين يحصرون الاسباب في التأثيرات المادية ، لانه على الرغم من أن التأثيرات المادية عامل فعال ، فانه لا ينفي وجود العوامل الاخرى ، وغاية ما هناك فان العامل الاقتصادي في مقدمة العوامل التي تعجز الانفراد بالتأثير في شؤون المجتمع الانساني ، لما في هذا المجتمع من العناصر النفسية والحيوية التي لا يستغرقها جانب الاقتصاد مهما يكن شأنه في بعض معاملاتها ووشائجها . ومن هنا استبدل العقاد التأثيرات الكونية بالتأثيرات المالية ، واعتبرها سببا في التفاوت بين الطبقات^(٦١) .

(٥٩) يرى العقاد ان كلمة الطبقة الاجتماعية مصطلح حديث يقابل في اللغات الاوروبية كلمة « الكلاس » ، Class بمعنى الصنف من الناس أو من أى شيء ، وتأتي كثيرا بمعنى الفئة والطائفة عند تقسيم الناس الى اصناف مختلفين ، ويرى العقاد كذلك ان الكلمة العربية في اصطلاحها هذا اصدق دلالة على معناها المقصود في المباحث الاجتماعية من الكلمة الاوروبية ، لان الطبقة توحي الى السامع معنى التفاوت في الدرجات من أعلى الى أدنى . راجع للعقاد مقدمة الطبقات في المجتمع الحديث ص ١ .

(٦٠) راجع : الطبقات في المجتمع الحديث تأليف ت.ب. بوتومور ، وترجمة وهيب مسيحة صفحات ١٠٠،٦٤،٤١ .

(٦١) راجع : الطبقات في المجتمع الحديث تأليف ت.ب. بوتومور ، وترجمة وهيب مسيحة صفحات ١٠٠،٦٤،٤١ .

وفي تصور العقاد أن أسباب الصعود والهبوط بين طبقة وأخرى في
الاعلمب الاعم أسباب نفسية أو خلقية ترتفع بالوضع الى مكان الرفص
وتهبط بالرفيع الى مكان الضعة حسب نصيب هذا أو ذاك من الذكاء
والنشاط واقتنام الفرص والانتفاع بالظروف •

ويورد العقاد تعقيب الماديين على هذه الملاحظة قائلاً : « انهم يعترفون
بالكفايات الشخصية والمزايا التي تتفاوت بين أبناء الطبقة الواحدة ، الا
أنهم يسقطون هذه المزايا من حساب الطبقات لادعائهم أن مزية الفرد
لا تنفعه بشيء ان لم تقترن بموافقة الاحوال العامة ومساعدة البيئة على
ابرار تلك المزية » (٦٢) •

ويرى العقاد أن من تحصيل الحاصل أن يقال أن الفرد لا يفلح
في الانتفاع بمزىة من المزايا النفسية ان لم تساعده الظروف الجوية أو
الظروف البيئية أو الظروف الطبيعية ، فان سيطرة الظروف على من تحيط
بهم من الجماعات والافراد أمر مفروغ منه لا يسمح للقاتل به أن يبني
عليه حكماً قاطعاً على مجرى التاريخ ومصير بني الانسان الى آخر
الزمان (٦٣) •

ومن ثم يرى أن الظروف الاقتصادية تحول بين الفرد وبين غايته
اذا لم توافقه في مساعيه ، « ولنا أن نرفع كلمة الظروف الاقتصادية ونضع
مكانها ما شئنا من الظروف لنقول أن جميع الظروف تحول بين الفرد
وكل سعي يسعاه ان لم توافقه على ما يريد • وقصارى ما يثبت لنا من
ذلك أن الظروف موجودة معهودة ، ولكنها لا تجيز لأحد أن يبني عليها
وحدها أقدار الامم ومصير الطبقات » (٦٤) •

وفي تصور العقاد أن النظام الاقتصادي الذي خلا من نفوذ أسباب
الاموال قد فسح الطريق لبروز طبقة حاكمة من الرؤساء ومديري
المصانع وخبراء الصناعات والفنون ، لا تقل في تحكها واستئثارها بالامر
عن كل طبقة حاكمة في بلاد رأس ال أو بلاد الاستعمار (٦٥) •

(٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥) المرجع السابق المقدمة ص ١٢، ١٣، ١٤ •

ويرى العقاد أن غاية ما يطرأ على نظام الطبقات من التعديل والتحسين ، فانما هو في سبيل تقارب الحقوق وتبادل المعونة ، بعد أن شاعت بين أبناء الطبقات جميعا معرفتهم بحقوقهم واعترافهم طوعا أو كرها بحقوق غيرهم وقدرتهم يوما بعد يوم على حماية تلك الحقوق^(٦٦) .

والخطوات الاولى للتقارب بين الطبقات تترد اليوم متوالية موفقة في أمم الطبيعة الديمقراطية التي توطدت فيها أسس الحرية الاجتماعية ، وتطورت فيها موارد الثورة وتقسيم الاعمال والارزاق ، ولا سيما الاعمال القائمة على الصناعة الكبرى^(٦٧) .

وتتمثل هذه الخطوات في اسهام طبقة الفقراء من الصناع والزراع وغيرهم بحصص كبيرة في رؤوس أموال الشركات التي كانت حكرا للاغنياء وأصحاب الملايين^(٦٨) .

كما تتمثل في أن أصحاب الثروات الضخام يقلون شيئا فشيئا ، أما بتعميم قوانين تحديد الملكية الزراعية ، أو بالحد من الارباح فوق مقدار ينتهي اليه كل ربح مستفاد من استغلال الاموال .

وأخيرا تتمثل في شيوع التأمين في المرافق القومية التي يخشى من سيطرة الافراد عليها وتعم المصلحة فيها سائر أبناء الامة من مالكين أو مستفيدين .

ويرى العقاد أن هذه الخطوات وأمثالها مما تكشف عنه تجارب الحاضر والمستقبل كفيلة بتحقيق غايتها الجلى : وهي التقارب بين الطبقات والتعاون بينها بما يحقق لها المصلحة في جملتها ولا يتيح لواحدة منها أن تفرد بتسخير سواها^(٦٩) .

على أن هذه الخطوات وما يستجد بعدها في تصور العقاد ، لن تجدي جدواها الا اذا اقترنت بخطوات أخرى تسيرها وتمنعها أن ترتد بالامم على عقبيها . ومن هنا لا بد في خطوات التقارب بين الطبقات من خطوات

(٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠) راجع : الطبقات الاجتماعية في المجتمع الحديث ، المقدمة ، ص ١٣، ١٤، ١٥ .

مسايرة لها في سبيل التوازن بين حقوق كل طبقة وقدرتها على حماية تلك الحقوق ، هذا التوازن مختل في هذه الايام ، وقد كان مختلا من مطلع فجر التاريخ ، فيتفق أحيانا أن تزيد قوة الطبقة على حقوقها ، فتغريها هذه الزيادة في القوة بالطغيان على حقوق غيرها^(٧٠) .

وفي توضيح ذلك يذهب الى أنه كانت قوة العلية من الاغنياء وأصحاب الجاه فيما مضى أكبر جدا من حقوقهم على المجتمع ، فابتليت الامم من جراء ذلك بآفات الظلم والتسخير وآفات الترف والفساد . ولم تكد تخلص من بعض هذه الآفات الا بالثورة بعد الثورة ، والحرب بعد الحرب ، الى عهد لا تزال نلمس بقاياها ونعاني الكثير من آفات تلك البقايا^(٧١) .

ثم تنبته الطبقات الدنيا الى حقوقها ، واستجمعت بعض القوة التي تستخلص بها شيئا فشيئا من تلك الحقوق ، ولكن تلك القوة توشك أيضا أن تزيد على الحقوق المطلوبة أو الحقوق العادلة منذ أصبح في مقدور الالوف من ذوي الاعمال اليدوية أن يشلوا حركة الصناعة ويعطلوا سير المعاملات التجارية ، مهددين بالاضراب أو مضرين وقادرين على المقاومة الى أجل طويل مع استمرار الاضراب والتعطيل^(٧٢) .

أما الطبقة الوسطى فيرى العقاد « انها تظل دون الطبقتين الاخرين كبيرة الحقوق صغيرة القوة التي تمكنها من حماية تلك الحقوق ونهبيها لها أن تدفع عنها ضغط من فوقها ومن دونها ، كأنما هي الطحين المسحوق بين شقي الرحى . وهذه الطبقة أجدر الطبقات جميعا أن تعتصم بقوة تناسب حقوقها وتناسب عملها في المجتمع ، وهو عمل تتلاقى لديه كفايات من فوقها ومن دونها ، وتتنز به علاقات الاطراف المتباعدة ذلك الاتزان الذي لا غنى عنه لصد الطغيان من كلا طرفي المجتمع ، وانها لعل حسد قول النابغة :

(٧١ ، ٧٢) الطبقات الاجتماعية في المجتمع الحديث : المقدمة ص

١٧٠١٦٠١٥ .

فانك جانب القسطاس منها فتمنع جانبيها أن يميلا
وسيقول لنا المستقبل كلمته الفاصلة في مصير هذه الطبقة ، وفيما
ينفتح لها من أبواب التماسك والتعاون بين أجزائها المبعثرة ضمانا لحقوقها
وحقوق كلتا الطبقتين العليا والدنيا ، (٧٣) .

ويرى الدارس أن الطبقة الوسطى قد فقدت مقوماتها بتفتيت ماليتها
بين ذويها من الاهل والابناء حتى غدا نصيب الواحد منهم من الارض
الزراعية يقل عن نصيب أحد المنتفعين بالاصلاح الزراعي ، ولكي يحصل
الواحد من هذه الطبقة على حقه في الحياة ، فلا بد له من الكفاح المستمر
والميت ، والاضاع في الزحام .

ومعنى هذا أننا نختلف مع العقاد فيما يطلق عليه اسم الطبقة
الوسطى بمعنى أن لها وجودا في المجتمع ، ويرى الدارس انها قد ذابت
في الطبقة العاملة وليس لها وجود في المجتمع مستقل بذاته . ومن هنا
لا داعي لان يتخوف عليها العقاد من ناحية وأن ينيط بها توزان الطبقات
الاخري من ناحية أخرى .

على أن تذويب الطبقات سينزل بالطبقة العليا الى مصاف الطبقة
العاملة ، وهنا سيتساوى الناس في الحقوق وسينال كل منهم من هذه
الحقوق بمقدار ما يبذل من جهد ، وتذويب الطبقات ماض في سبيله
لا يعوقه عائق ، ولا تعترضه عقبة كأداء تمنع تحقيقه في مصر والعالم
بأسره ان شاء الله .

على أن تحقيق التقريب بين الطبقات في عالمنا استطاع أن يجذب
استاذنا العقاد اليه فيسمي عالمنا التقريب بين الطبقات لا عالم الذرة ،
فاعتبر أن التقريب بين الطبقات حدث تاريخي عظيم في تاريخ الانسانية
يفوق حدث اكتشاف الذرة ، وفي ذلك يقول :

« أما العالم الجديد في المجتمع الانساني وفي النفس الانسانية ،
فهو عالم التقريب بين الطبقات ، بعد التقريب بين القارات ، وقد بدأنا في

(٧٣) نفس المصدر السابق .

هذه السنين نشاهد الظواهر الاجتماعية والنفسية التي تتوارد على عجل مع فترات الزمن ، بل مع السنين والايام ، وستأتي هذه الظواهر تباعا على عجل كما قدمنا ، فلا ينقضى القرن العشرون الا وهي ظاهرة متكررة في المغرب والمشرق وان تفاوتت قليلا مع كل تكرار ، (٧٤) .

٤ - الاشتراكية والاسلام :

بقي جانب لا تتم الاحاطة الا به في موقف العقاد من الاشتراكية ، ويتمثل هذا الجانب في نظريته للاشتراكية من خلال الدين ، وهنا لابد أن نتعرف على رأيه في هذا الصدد من خلال ما كتبه عن المساواة في الدين وفي الفلسفة المالية ، اذ ذهب الى أن المساواة خير ومصلحة اذا أريد بها انها تعطي كل ذي حق حقه ، وأنها تحول بين كل انسان وبين العدوان على حق غيره ، وتسوي بين جميع الناس في حدود المعاملة ، ولكنها شر ومضرة اذا أريد بها أن تمنع المزايا والكفايات ، وتجعل الناس جميعا كأنهم فرد متكرر لا فرق بينهم في الصفات ، ولا اختلاف بينهم في الاعمال والاخلاق ولا تمييز بينهم في التبعية والغاية ، لان المساواة بهذا المعنى الاخير على كونها شرا ومضرة هي استحالة تامة ، لان أسباب التنوع غير معدومة بين أجرام الكواكب وأوراق الاشجار ، بل أن التنوع فيها عميق لا يُسبر غوره ولا يحصره سبب واحد ، ولا جملة من الاسباب المحدودة ، ومن ثم فإن العقاد يعتبر انه من المسخ المشوه لتكوين الاحياء الانسانية على الخصوص ان تقصرها على شبه واحد وهي على تركيبها المتشعب أحق بالاختلاف من أجرام الكواكب وأوراق الاشجار (٧٥) .

وفي أعتقدنا أن كل ما يستهدفه العقاد من المساواة هو منع الاختلاف الظالم بين الناس ، واطلاق عوامل الحياة الحرة التي تؤدي الى تنويع مزايا الحياة وتوفير نصيبها من الكفايات والصفات وتوسيع مداها من

(٧٤) راجع : الهلال الصادرة في ١ يناير ١٩٦٢ .

(٧٥) راجع : مجلة الازهر الصادرة في نوفمبر سنة ١٩٥٩ .

الحقوق والواجبات (٧٦) *

وتأسيسا على هذا يرى العقاد أن الاسلام يسوي بين الناس جميعا ، فلا تمييز بينهم في حقوق الانصاف وحقوق المعاملة ، ولا فضل لأحد على الآخرين بغير أعماله وأخلاقه التي تجمعها كلمة التقوى ، وهي كلمة تجمع فيها كل ما ينطوي في أداء الواجب ورعاية الحدود واجتباب المحظورات (٧٧) *

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » *

وينشأ عن هذا التفاوت - في تصور العقاد - ما لا بد ان ينشأ عنه من التفاوت في الارزاق ، ولكنه لا يبيح لصاحب المال ان يحسبه حكرا له ، ولا يأذن لطائفة من الناس ان تحصر الاموال بين يديها * كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم (٧٨) *

ويرى العقاد ان هذه هي المساواة الحققة ، لانه ليس من مصلحة الانسانية جمعاء ان يتساوى فيها العلم والجهل ، والسعي والكسل ، والطيبة والخبث ، والفظنة والغباء ، وفي الوقت نفسه ينعى على المساواة التي يدعيها اصحاب التفسير الاقتصادي للتاريخ ، بانها لا تتم - من وجهة نظر العقاد - في مجتمع من المجتمعات الانسانية ، يقبض على زمامه أصحاب هذا التفسير عشرات السنين - لانهم يضطرون في نهاية الامر على الرغم منهم الى التسليم بالعوامل الحيوية والعوامل الكونية ، التي لا تسمح لحظة واحدة بالغاء الفوارق والمزايا بين الاحياء (٧٩) *

وفي مقام التدليل على ذلك يذهب العقاد الى انه لم يمض جيل واحد على مجتمع من المجتمعات التي يفرضون عليها مبادئهم المادية الا ظهرت

(٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩) راجع : مجلة الازهر الصادرة في نوفمبر ١٩٥٩

• وانظر كذلك حياة قلم للعقاد ص ٢٨٦

فيه طبقات من الرؤساء والخبراء والمديرين يتأوتون قبل كل شيء في احوال المعيشة الاقتصادية من مسكن وملبس وطعام ووريادة ونفوذ وحفظ من المال والمتاع^(٨٠) .

على انه يرمي تلك المساواة الموهومة - في اعتقاده - بانها سلبت عشرات الملايين قدرتهم على التقدم ، لانها قتلت فيهم عوامل الامل والحذر التي تستحث الخاملين والكسالى الى السعي والطموح اذ كان الباعث الاكبر على نفص الكسل والخمول ان يشعر الخامل الكسلان بالخوف من عاقبة الضعة ، وبالحافز الى التقدم واستثارة ما فيه من حسن الاستعداد للعمل وطلب المزيد ، وان الملايين من الخلق ليفقدون هذا الحافز الطبيعي اذا ايقنوا انهم مطمئنون الى مصيرهم ، عاملين او غير عاملين^(٨١) .

ويخلص العقاد من هذا كله الى ان تلك المساواة تنتهي الى ظلم محيط لا تفلت الامم ولا الاحاد من سوء عقابه ، ويتمثل هذا الظلم في انه يأبى للنازل ان يصعد باختياره ، وانه يسوى الاعلى بالادنى حينما استطاع فاذا نظر المتساوون الى حضيضهم الذي يسمونه المساواة لم يجدوا دونه منزلة يهبطون اليها ، فهي مساواة ليس دونها مكان يتسع للمزيد من الهبوط ، وهم يتجنبون فيها الاعلى الدوام ولا يتجنبون ما هو ادنى^(٨٢) . وعلى الرغم من انه يعترف فيما سبق بأن الاشتراكية تدعو الى المساواة ، الا اننا نراه يلح دائما على ان هذه المساواة ليست مطلقة وذلك لكيلا تسلبه المساواة تميزه وتفردة اللذين حصل عليهما بكفاحه ونضاله عشرات السنين ، ولانه من ناحية أخرى يقدر الديمقراطية التي تكفل له الحرية السياسية والاجتماعية على سواء ، وهاتان الحريتان لا تمكنه منهما الاشتراكية العلمية التي دعا اليها كارل ماركس .

وتأسيسا على فهمه هذا نراه يفض من اشتراكية « كارل ماركس » ، حينما يذهب الى ان الاشتراكية قد وجدت قبل ان يوجد اسم الاشتراكية ، وقد وجد اسم الاشتراكية قبل ان يوجد اسم الاشتراكية العلمية ، وان

(٨١ ، ٨٢) راجع : مجلة الازهر الصادرة في نوفمبر ١٩٥٩ .

اول من سعى مذهبه باسم الاشتراكية العلمية هو كارل ماركس على الرغم من انه ليس من العلماء بمعنى العلم المصطلح عليه في عصرنا ، لان الموضوع الذي نال به شهادة الدكتوراه بالمراسلة انما كان بحثا من بحوث الادب اليوناني ، ولم يكن بحثا في الاقتصاد أو الاجتماع على نهج قديم أو حديث (٨٣) ، *

ومن ثم فانه يرى أن الاشتراكية العلمية هي الاشتراكية العملية التي يمكن تطبيقها بتنظيم رأس المال وانصاف العمال وتحريم احتكار الثروة العامة (٨٤) . *

ثم يصرح العقاد بعد ان بين ان الاشتراكية أنواع ، بالنوع الذي يؤمن به منها ، وهو الاشتراكية الفابية التي كانت نصب عينيه وهو يكتب في تعزيز الفلسفة الاشتراكية والرد على خصومها قبل أكثر من خمسين سنة ، « ولا تزال الفابية كما بقيت اليوم أقرب الى اعتقادي من سائر الجماعات ، ومبادئها تقوم على الاسس الاخلاقية قبل قيامها على الاسس المادية الاقتصادية ، ووجهتها الكبرى هي بناء المجتمع على ارفع المثل العليا في الاداب الانسانية والفابيون تطوريون وليسوا بانقلابيين ، وعندهم ان نشر المعرفة والتوسل بالوسائل الديمقراطية الى ولاية الحكومة للمرافق العامة اصلح لتحقيق الغرض المقصود من الاشتراكية وهو منع الاستغلال والاحتكار والتسوية بين الناس في فرص الاعمال والمشاركة في ادارة الاداة الحكومية (٨٥) ، *

(٨٣ ، ٨٤) راجع : صحيفة الاخبار الصادرة في ٣ من اكتوبر

١٩٦٢ تحت عنوان « يوميات الاخبار » . *

(٨٥) راجع صحيفة الاخبار بتاريخ ٣ من مارس سنة ١٩٦٣

تحت عنوان « الفابية بين المذاهب الاشتراكية » . *

الفصل السابع

معالم الشخصية

١ - شخصيته (*) :

له قامة باسقة مديدة كالعملاق ، ووجه ابيض وضىء ملبح
القسمات ، معبر عن كل ما يجيش به وجدانه من انفعالات •

•• وتوج وجهه المستطيل هامة سامقة يزيد قطر جمعيتها طولا
على قطرها عرضا بنسبة ظاهرة ، وعينه شديدا السواد مع سعة في المقلة ،
ناقبتان ، فيهما سعة •

تحس وانت تأمل في عينيه كأن بهما عضلتين تحاولان ان
تستشف ما تراه في استغراق عجيب ، وفيهما حيلة وزكاته ، وتراءى
فيهما أعماق حزن وتفكير •• تحفهما أهداف مائلة الى الطول تحت
حاجبين أميل الى الغزارة •• ورأسه ادنى الى الكبر مستدير الى حد ما ،
ويحتفظ بكل شعره المنسدر المرسل المنسرح الى الخلف دائما ، يستوعبه
الشيب الذي هاجمه قبل الثلاثين •• وخدان خفيفان من اللحم والشحم ،
يتوسطهما أنف أشم جميل ، يتسم بارتفاع قصبته مع استواء في اعلاه
عند اتصاله بالجبهة ، فيه عزة وحدة ، منفرج المنخرين ، وصدغان
مستقران ، واذنان تنبسط كلتاها من أعلى وتضيق من أسفل مع خفة في
اطارها الاعلى واطمئنانه •• عارضان بسيطان ، وذقن بارز معقوف

(*) نتحدث في هذا الصدد عن مقومات شخصيته ، كما بدت لي
من خلال مصاحبتي الطويلة له ودراستي لآثاره وعلاقاته بأصفيائه
واعدائه •

واستقامة ، وفم معتدل من حيث الضيق والسعة ، وشفتان رقيقتان ،
سفلاهما مقوسة تنم عن استخفاف وسرعة انفعال ، وشدقان واسعان ،
يحمل ذلك الوجه عنق راسخ على منكبين عريضين يخرج منهما يدان
قويتان متدفعتان تنتهي كلتاها بكف عريضة الاصابع صلبة العضلات ،
وتحت المنكبين صدر فسيح •

وهو يسير بخطوات واسعة ، ويقتلع خطاه في سيره اقتلاعا، ويحرك
ذراعيه في سمت وعزم ، ولكنه يحس جميع ما حواليه ويشعر معه •
يتحدث وهو ساكن الاوصال بكل وجهه ، ويستعين في الحديث بحركة
يده واصابعه ، وحينما يكون متحمسا في حديثه فانه يقبض اصابعه داخل
راحتة بعزم ، فتبدو كأنها صبت من فولاذ او صخر ، فاذا مابسطها بعزم
بدت كأنها سيف بتار ••

- - -

قوة نفس وقوة بدن ، تعاورته الاسقام وهاجمته العلل ، واصطلحت
عليه الهموم منذ بواكير شبابه ، اذ تعرض في عنفوانه لامراض الصدر ،
وتحجر جزء من الرئة والكبد والامعاء • فنجأ منها بمعجزة الجسد
المكين ، وان ظلت عقابله تعاوده فيما يعتريه من آلام الامعاء والكبد ،
ولكنها لم تسلبه ما ركب فيه من الجلد وصلابة العزم وشدة المراس ،
ومكافحة الاسقام كما يكافح الخطوب الجسام • وعلى الرغم من الاسقام
التي اعترت العقاد ، فان نبضه لم يختل ميزانه ابان تلك الامراض ، وهاته
العلل ، بل انه لا يستخدم المسكنات بجميع صنوفها حتى ولو أدى المرض
الى اجراء عملية جراحية ، فانه يجريها دون استخدام للمسكن الذي
يستخدمه كل انسان وهو « البنج » •

كما انه لا يخضع لاي مؤثر خارجي في التغلب عليه ، وليس
ادل على ذلك ما حدث له مع احد النومين المغناطيسيين الذي استطاع ان
ينوم كثيرا من الشخصيات الكبيرة ، ولكنه باء بالفشل في تنويم العقاد^(١) ،

(١) من حديث شخصي مع العقاد ، وقد رجعنا الى احد
الحاضرين اثناء عملية التنويم وهو محمد توفيق دياب •

فاذا كان ذلك علامة على الطبع ، كما فيه علامة البنية فلا شك انها علامة على طبع من اقوى الطباع • ومما يدل على ذلك انه بالرغم من تلك الامراض التي اعترته بقى الرجل قادراً على اداء عمله ماضياً فيه نشيطاً اليه في انبساط نفس ، وتجدد اقبال •

* * *

وأول ما يطالعك من رؤية العقاد مهابة بالغة تملأ ما حوله من فضاء ، فلا يخطر لك وأنت تفشى مجلسه الذى يضم خليطاً عجيباً من الناس الاقوياء والضعفاء والكبار والصغار وأصحاب النياشين والالقب والمجردين منها ، لا يخطر لك أن في المجلس أحداً غير العقاد ، يحس ذلك أعداؤه ، كما يحسه اصداقؤه ، ويذهل لذلك من يدخل للتحدي والمناوشة ، كما يذهل له من يدخل للتحدي والولاء •

ومعنى هذا ان مهابة ظاهرة لا تخفى على ناظر ، ولا يحاول العقاد اخفاءها ، ولا يستطيع - ان أراد - أن يخفيها ، لان جذورها متمسكة في بنيتة مع تركيبه ثم قوة نفسه وثقته بها ، وتمويله عليها وحدها •• فهى مهابة طبيعية ولدت معه ، وليست مصنوعة غرستها فيه النياشين أو الالقب ، أو المنصب الحكومى الكبير ، أو الثروة العريقة أو الأسرة التليدة ، لان المهابة المصنوعة زيف كطلاء المساحيق والاصباغ التي نراها في وجوه الديميمات وعرائس الحلوى والدمى •

ومن ثم فإن مهابة العقاد لا تفارقه راضياً أو غاضباً ، فرحاً أو حزيناً ، جاداً أو متفكهاً •• مهابة كتب لها الدوام أينما حل وأينما ارتحل ، ومع الناس جميعاً في أطوار أعمارهم المختلفة • مهابة تفري باحترامه والثقة به ، والتمويل عليه •• وذلك كما يراها خلطاء العقاد الأولياء •

على اننا نعتقد ان من يلتقي بالعقاد يشعر لا محالة بعد برهة قصيرة ان فيه عالماً مبهماً مجهولاً ينطوي على أسرار روحية ومطامح دنيوية ، تتلاشى احدهما في الاخرى وتقمصها فلا يبين منه الا الروح القوية

العالية (٢) •

والذي لا شك فيه ان هذه النفس العميقة العامرة بالاسرار
الروحية والمطامح الدنيوية في التباس وغموض ، وذلك القلب الكبير
الذي حفظ ما أودعته الفطرة من ذخيرة العطف الزاخر ، هما اللذان
حييا الى تلاميذه بالمدرسة الاعدادية الى تلقيه بالكاهن « حرحور »
وهاتيك النفس وهذا القلب هما اللذان حييا اليه الانسانية بحيث جعلاه
يبئس لويلاتها ويستبشر لسطعات نورها ، وغلبة روحها ويناضل في كل
فرصة كالجندي الشجاع لنصرة قضيتها •

نحن على هذا أمام رجل قوي لا مرأى ، والقوة في تصورنا تعنى
العظمة ، لأن كل عظيم قوي بمعنى من معاني القوة ، تلك القوة التي
تستفاد من جملة مناقب الانسان أو تدل عليها صفاته وأخلاقه •
وخلائق العقاد الكبرى بارزة جداً لا يسترها حجاب ، لأنه نمط
لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس الى أمثاله الكثيرين •

فإن يعتقد ان الحياة عمل فني تحكمه الاصول التي تحكم بيت
الشعر ولحن الموسيقى وصورة المصور ، وتخرج في جملتها وتفصيلها
من يد الفن الالهى كما تخرج الدمية من يد الصانع القدير في فكرتها
الباطنة وتمثيلها الظاهر ، فالكون كله والحياة - وهي أعم من الكون في نظره -
والفن ومناظر الأرض والسماء ، كل اولئك مظهر للتآلف أو للتنازع
بين الحرية والضرورة ، أو بين الجمال والمنفعة ، أو بين الروح والمادة
أو بين أفراح الفن وأحزانه •• قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى
المطلقة ، وكلما اثلقت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام
الجميل الذي يبين بالمادة صفاء الروح ويسبر بالقيود أغوار الحرية
وهذا الائتلاف في نظر العقاد هو دستور الفن الالهى المحيط بكل شيء
وهو فلسفة الفلسفات في هذا الوجود (٣) •

(٢) راجع فصول من النقد عند العقاد لمحمد خليفة التونسي

ولذا فإنه ليهتز في مهاب نسائمها وعواصفها ، ولا يجد في الحياة
شاغلا لا يشغله ، أو فتنة لا تجذبه أو خالجة لا تطرقه ، فهو يهتم
بشؤون العالم العامة كأنها شؤنه الشخصية الخاصة^(٤) .

وهو حيي والحياء أقوى صفاته ، لأنه ينبع من الاحساس العارم
في النفس بالقوة ، وهو غير الخجل الذي يرفده احساس النفس بالقصور
والحياء لدى العقاد دليل على يقظة الضمير وتوفره ..

وهو شجاع يجاهر بالصدق والعدل ، ويمقت الكذب والظلم
ومن هنا فإنه قد وقف نفسه لنصرتها حتى لتحس بأن نصرته هاتين
الصفتين هي رسالته في الحياة ، وذلك لانه يدافع عنهما دفاع المستميت
ويجاهد في سبيلها جهاد الأبطال .

ومن أدلة ذلك كراهيته لكل مستبد في التاريخ القديم والحديث ،
اذ أنه لم يكتب في تراجمه الا على من هم شرف الانسانية وضميرها ،
مثل محمد ، والمسيح ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلي ، والحسين ، وخالد
وعثمان ، وسعد زغلول ، ومحمد علي جناح ، وغاندي ، وسن ياتسن
فقد كان لكل منهم رسالة عادت على امته والانسانية بالخير ، ولم ينل
هو منها الا الكروب ، وكتابته عن هؤلاء دفع للظلم الذي ألحقه التاريخ
بهم ، فمن عادات التاريخ في الظلم افتراء التهم على الأبرياء . أو اخفاء
كل الفضل ، أو اخفاء أشرفه واظهار أدناه ، ولذلك تصدى العقاد لدحض
التهم التي ألصقتها التاريخ ببعض هؤلاء الكبار^(٥) .

واذكر اننى ما رأيته مرة - على طول مصاحبتى له وتلمذتى عليه -
سكت على ضيم لحق انساناً ، فانه ليهوله ان يهضم صاحب الحق هزيمة
بين سمع القانون وبصره ، ومن هنا فانك لتجده يتوجه الى موطن الظلم

(٤) عبدالرحمن صدقي : العقاد كما عرفته : في العقاد دراسة
وتحية ص ١٠٥

(٥) محمد خليفة التونسى : فصول من النقد عند العقاد ص ١٧
« العقاد كما اعرفه » .

فيدرأه بعزم مصمم على النهاية الحاسمة ، بل انه يغلي الدم في عروقه
حتى يؤدي الى الاحتقان في رأسه حينما تكرر عليه قصة مظلوم .

وفي اعتقادنا ان اية شجاعته انه عندما آمن برسائله الادبية وهو شاب
يافع جهر بأعلى صوته ووجه ضرباته بعنف في كل هدف حيث لزم الامر .

ومن ذلك حملته على شوقي وعلى أنصار الأدب القديم ، اذ وقف
لهم وحده ، ثم أيده مريده الأكبر المازني ، ولقيت دعوته كثيراً من
الاولياء والاعداء في كل مكان ، ولكنه لم يبال وهو يوجه ضرباته الى
أنصار الأدب القديم بكل ما فيه من عزم وقوة وجسارة على المخاطر
مهما تكن العواقب في سبيل الحق ، لم يبال ان يجاب على ضرباته تلك
بأقوى الضربات وأقنلها ، حينما توجه الى شخصه كأنما يلذ له كفاحها
ونضالها فيقول متحدياً لها ، واثقا من عزيمته امامها^(٦) .

ايه يا دهر هات ما شئت ، وأنظر

عزومات الرجال كيف تكون

ما تعسفت في ثلاثك الا

هان بالصبر منك ما لا يهون

ومن خلائقه كذلك ان احكامه على الاشياء ليست مؤسسة على هوى
او غرض . وليس أدل على ذلك من مبادرته بنصرة سعد زغلول بما
استطاع يوم تجرد لقيادة الامة في القضية القومية ، بالرغم من انه كان
يقضى الشتاء بأسوان اذ ذاك الوقت مستشفياً لا يقوى على الكتابة في
الصحف ولا على الاشتراك في الحركة . . . بادر العقاد الى نصرة سعد ،
ولو استشار هواه ومصالحته الشخصية لرفض نصرة سعد ، لان سعدا
قد رفض طلب العقاد حينما اراد ان ينتظم في بعثات الجامعة المصرية ،
وأراد ان يكون الامتحان مباحاً لجميع الطالبين . . . ولكن سعدا ابي عليه
ذلك بدعوى انه لا يمكن ادخال أي انسان الامتحان الا اذا كانت لديه

(٦) ديوان العقاد ص ١٧٩ .

الشهادة المشروطة قبل الامتحان ، فوقف سعد زغلول عند الشهادة المشروطة غاضا النظر عن الكفاءة الشخصية ، وقد كان العقاد يعتقد ان رفض سعد لطلبه لم يكن حتما لزاما ، لان العقاد لم يطلب الا ان يدخل الامتحان مع المتحسين ، ثم ينتظم في البعثات الجامعية اذا كان من الناجحين^(٧) .

ولم يفض العقاد لذلك الرفض من قبل سعد ، لايمانه بان تضحية الفرد اولى من تضحيه الشعب ، وان القانون الذى يوضع لفرد يغير القانون الذى يوضع لشعب ، ذلك انه لو فتح سعد الباب على مصراعيه لذلك الاستثناء لعمت البلوى ، بحيث لا يمكن درءها ، لان طلاب الاستثناء بحمد الله كثيرون ، وامامهم سابقة اخذت شكل القانون مع عباس العقاد .

ومن خلائقه الكبرى قوته وصلابته وتقديسه للحرية واعتزازه بالكرامة ، فلا لين ولا هوادة في حربه للباطل ، ولا رضوخ ولا استسلام امام طغيانه وجبروته ، ولا أدل على ذلك من قوله عقب خروجه من السجن في قضية العيب في الذات الملكية المشهورة^(٨) :

وأعظم بها حرية زيد قدرها
لذن فقدت او قيل فى السجن تفقد
عرفت لها الحيين فى النفس والحمى
وكان لها حب - وان جل - مفرد
وكنت جنين السجن تسعة أشهر
فهانذا فى ساحة الخلد اولد

(٧) سعد زغلول ص ٦٠٤ .

(٨) وحى الاربعين ص ١٧٣ وما بعدها انظر ص ١٥٤ من

هذا البحث .

ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجى
وفى كل يوم ذو الجهالة يلحد
وما اعدت لي ظلمة السجن عزمة
فما كان ليل حين يغشاك مرقد
وما غيبتى ظلمة السجن عن سنى
من الرأى يتلو فرقدا منه فرقد
عدائى وصحبى لا اختلاف عليهما
سيعهدنى كل كما كان يعهد

فالآيات السابقة تكشف لنا مدى تقديسه للحرية وتمجيدها ،
وتضحيتها في سبيلها بحياته وأمنه وراحته ، وانه لا يرضى بها بديلا ،
وان السجن لم يمنح حبه للحرية ، أو يقلل من شأنها في نظره ، بل
ان حبه قد زاد اعتزازه بها قد نما ، وقد تمكن هذا الحب في نفسه حتى
غدا حين : حب لحرية الخاصة ، وحب لحرية وطنه ، وان ظلام
السجن لم يطفىء وهج عزمته ، بل زادها ضراما واشتعالا ،
وانه لن يغير ولاءه لاصحابه واخوانه في الجهاد والوطنية ،
كما انه لن ينسى من حاربوه ووقفوا في سبيل حريته وحرية بلاده ،
وسيعهد الجميع كما كانوا يعهدونه قبل دخوله السجن سيعهدونه
مدافعا عن الحق مناضلا عن الحرية كما كانوا يعهدونه قبل دخوله
السجن ، سيعهدونه مدافعا عن الحق مناضلا عن الحرية كما قال فى
موقف آخر (٩) :

هو الحق ما دام قلبى معي
وما دام في اليد هذا القلم
على أنه قد لاقى كثيرا من الصعاب والمشقات ، وضحي براحته
وامنه ، ولم ينبج من الاضطهاد والظلم والعسف والحيث ، ولكن ذلك
كله لم يزده الا عنادا وتحديا واصراراً في التمسك بما يراه الحق غير

(٩) عابر سبيل ص ٧٥ .

هيا بولا وجل مما يصيبه من اضرار ، لانه قد اختار لنفسه هذا الطريق
الوعر الشائك ، على طريق الامن والسلامة . (١٠)

هماسييلان من يبع السلامة لا
يأسف على الحق او يحلم برؤياه
ومن بغي الحق في الدنيا فلا أسف
على السلامة أن خاتمه دنياه
قد يهجر الامن من ذلوا ومن وهنوا
وما تفرق قط الهول والجياه
فاختر لنفسك : اما المجد في خطر
او الهوان وقد تشقى بلسواه
وما اختيارك الا ما خلقت له
ان الطبائع ما ترضاه نرضاه

وقد صور العقاد شقاه من البلاء الواصب الذي اطبق عليه من كل
جانب ، لاختياره ذلك الطريق الوعر الشائك ، ولكن شقاه في نفسه
هو الشقاء الذي تهون الى جانبه كل عداوات الاعداء . . صورته في
مقطوعة عنوانها السعادة قال فيها (١١) :

ان الشقى الذى لا صنو يشبهه
وللاصاغر أشباه وأمثال
من شابه الناس سرته مودتهم
ومن علا عنهم ساءت به الحال
فاهناً بمجدك ، اذ تشقى بعزلته
وليحظ بالصفو أوغاد وجهال
ان السعادة تحت الارض معدنها
لا يطلب السعد من آوته أجيل

(١٠) وحي الاربعين ص ٥٤

(١١) ديوان العقاد ج ١ ص ١١١ .

ويقول كذلك :

عش آمن السرب كما تشتهي
ما نحن ممن يغبط الأمنين
ان حياة الامن في شـرعنا
مشنوءة مثل حياة السـجين
كلاهما يخفـره حـارس
مسدد النظرة في كل حين
أيتها الاخطار ، علمتـنا
باننا الاحرار ، لو تعلمين

وحينما يفخر بانه حاطم اصنام الحكم ، هادم الصروح البغى
والظلم ، حقق لنفسه مجدا ورفعة في ميادين الادب والسياسة والفكر ،
ولا يعبأ بمال ولا تعب ، وحسبه في هذه الدنيا انه حقق ما يتغيه من
آمال كبار (١٢) :

أنا حاطم الاصنام والقبب
الحقتـ منها الرأس بالذنب
في أمة الانساب أنشئ لي
سـعيا بلا نعت ولا لقب
في أمة الاموال اتركهم
بعدي بلا مال ولا نشب
فـة الانساب أنشئ لي
نسبا من العلياء والأدب (١٣)

وحينما رد على سعد زغلول في مناقشته له حول خطبة العرش
بقوله : « ليس كل فرد في الامة عباس العقاد » ردا على قول سعد

(١٢) المرجع السابق ص ٢٠٨

(١٣) العقاد : ديوان من دواوين ص ٣١٧

« ردا على قول سعد ، لو حاسبني كل فرد في الامة حسابك لعجزت
عن أعباء وكالة الامة كما تقول (١٤) » .

فالبواعث الكبرى في نفس العقاد تتجلى في القوة والحرية والعزة
والكرامة ، وفرض هذه الكرامة على المكابرين والمتعنتين كلما وجب أن
تفرض ، وفي هذا السبيل يهون المال ويهون العناء ويهون كل شيء !!
وقد يوحى اعتزازه بنفسه لدى بعض الناس بالغرور وخشونة
الملمس وصعوبة الشكيمة والجفاء في القول اذا استغضب او استثير ،
والاستبداد بالرأى وغير ذلك من الصفات التي تشفى نفوسهم الكلمى
وصدورهم الحانقة التي تتميز بالغيظ حقدا وحسدا على العقاد ، ولكنه
لا يبالي بهم ولا يحفل بلومهم ويقول :

سرّ في طريقك بين اللائمين ولا

تحفل بمن جد في لوم ومن لعبا

فالناس يرضون عنم ليس يحفلهم

ويغضبون على من يحفل الغضبا

والذي نعرفه عن العقاد من طول مصاحبتنا له انه لا يتصف بالغرور
الذي يقم بصاحبه عن الكفاح في سبيل المثل الاعلى مكفياً بما يتوهم
لنفسه من ذكاء وعبقريّة ، وانما يتصف العقاد بالعزم الذي يدفع الى
المخاطرة والاقبال على الاعمال الجليلة بغية الوصول الى المثل الاعلى ،
والتحدى للصعاب التي تصادفه .

كما اتنا نعرف أنه لا يتصف بخشونة الملمس ، لانتنا نعرف انه مهذب
رقيق في علاقاته باصفيائه واوليائه والناس جميعا ، اللهم الا ان يلمس في
محدثه تعاليا وتعالما ، فاذا تيقن ذلك انقلبت كفة الميزان حتى يقبل الى
« القب » فيصب عليه شواظا ملتهبة من القضايا التي لا يستطيع ان يجادل

فيها ، ولا يسعه ازماءها الا التسليم والاذعان ، وذلك لمنطقة الجبار^(١٥) .
على ان الخسونة ليست نقيضاً للرحمة ، وليست النعومة نقيضاً
للقسوة ، وليس الذين لا يستأرون ولا يستغضبون بأرحم الناس ، فقد
يكون الانسان ناعماً وفي دخيلة نفسه عنف وبغضاء ، وقد يكون الانسان
خشناً وهو اعطف خلق الله على الضعفاء .

وقد دافع العقاد عن الجهامة والجفاء والوحشة التي تبدو على وجهه
في بعض الاحيان ، بانها ظل لافعال الناس معه ، وانها صورة كضوضاء
الحياة وقتامها ، ومرآة لما يحدث في زمانه كذلك^(١٦) :

اذا استصعبت نفسى وضائق فجاجها
ولاحت لمراى العين كالجيل الوعر
فلا تنكروا منها جفاء ووحشة
ولا ترجموها بالقبيح من الكبر
فتلك ظلال الناس فيها ودونها
طبائع كالماء النмир اذا يجرى
ولولا صفاء الماء ما علفت به
مشابه من أوعار شطآنه الغبر
وان جشأت نفسى وصابت سماؤها
وغامت دياجيتها على الانجم الزهر
فمن أرضكم ضوضاؤها وقتامها
ومن صوبكم ذاك الغمام الذى يسرى
تليكم غواشيها الغضاب وفوقها
شموس تميظ الليل عن طلعة الفجر

(١٥) اطلق عليه هذا الوصف سعد زغلول حينما وصفه بجبار
المنطق ٠٠ « سعد زغلول بقلم سكرتيره » من سلسلة كتاب اليوم ،
ص ١٩٥ وما بعدها ط عام ١٩٥٤ .

(١٦) عباس العقاد : ديوان العقاد ج ٣ ص ٢٥٨

وانا لمرآة لما في زماننا
نحدث عنه حيث ندري ولا ندري
تفيض لنا أفراحنا من صدورنا
وما فاضت الدنيا لنا بسوى الشر

على ان هناك زعما ينسب للعقاد استبداده برأيه ، وغضبه في حديثه
وقلة صبره على مناقشيه . ولكن الدارس المنصف يرى انه زعم لا يستند
الى دليل ، لان الذى اعرفه عن هذا الزعم ، انه في صميمه خرافة
الخرافات ، وباطل الاباطيل ، لان العقاد لا يكره المناقشة ، بل انه
ليطلبها ويستدعيها ، وينفر بل يضيق ويشمئز من الجلساء الذين لا عمل
لهم غير التسليم والاذعان والتأمين على ما يقول دون اعمال فكر او منحذ
قريحة ، ولكنه يضجر من المناقشة في حالتين اثنتين لم أره غاضبا في
سواهما . أولهما : ان يتعالى المناقش أو يتعالم على العقاد كما قلنا
سابقا ، وثانيهما : تمثل في ان من عادة العقاد تبسيط المسائل وتفصيل
وجوهها وتقريبها من البدهة بالبرهان الصادع والعبارة السلسة ، فاذا
حادثه من لم يتعود هذا النسق من البحث ، أو من يضمر غرضا غير
الافتناع بالحجة الظاهرة بدا عليه الضجر وتكدر من ضياع الوقت في
غير طائل^(١٧) .

وفي تصور الباحث انه لا يوجد انسان يكون اصبر من العقاد ، او
أقل ضجرا منه ، لو تعرض لهاتين الحالتين في جلسة نقاش لقضية
من القضايا ، وذلك لان المناقشة يناقشون ويجادلون ، ولكنهم يفرضون
التسليم والاذعان في بعض الامور^(١٨) .

والباحث المنصف يرى انه ماذنب العقاد في انه يتقدم زمنه
ببصيرته النافذة التي تخترق الحجب وتهتك استار المستقبل المجهول . .
ماذنبه مع رجل لا يكاد يرى الا ماهو مائل بسين يديه ، أو تحت

(١٧ ، ١٨ ، ١٩) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف في مواضع

مختلفة .

قدميه .. ان العقاد في مثل هذه الحالة ينفعل في حديثه وحواره بمنطق قوى ، ولهجة آمرة ، وقد تجمع النور في عينيه وانحصر منبعنا كالخنجر المسدد الى صدر مخاطبه .. حتى ينتهي نقاشه بأن يفرض على مناقشه التسليم شاء أو لم يشأ ، ذلك هو المنطق القويم فيما نعتقد بصده (١٩) .
 وبعيدا عن ذلك ترى العقاد في مجالسه الخاصة من أقدر الناس على مؤانسة جلسائه بالحديث الشائق والفكاهة الحاضرة والحدب المطبوع ،
 وحينما تسمع العقاد محدثا فانك لا تسأم من حديثه ولا تمل ، ولا تزال بين أذواد من الخبرة ، وطرائف الذكريات دون ان تلمح في حديثه شيئا من فيهقة العالم أو لجاجة الشيخ في تقرير آرائه وتجاربه على السامعين (٢٠) .

واذا ما تأملنا العقاد صاحب هذه الشخصية الجبارة ، القوية الحازمة الجادة ، فاننا لنجده مترعا بالحنان ، مفعما بالعطف الانساني على كل من يلقاه ، ويتمثل عطفه وحنانه في مداعبته لطفلة صغيرة بقوله (٢١) :

ما كان أملح طفلة من غير شيء تخجل
 ضحكاتهما فتمايلت وشورها تهجد
 ورجوت منها قبلة فأبت كمن يتدلل
 وتعبت وهي تصدني حينا وحينما تقبل

وهذا العطف والحنان نراه كذلك في تصويره لرجل عابس ، وهو في هذا التصوير يعبر نفسه من أعمق أعماقه (٢٢) :

إذا ما تبينت العبوسنة في امرىء
 فلا تلحه ، واسأل سؤال حكيم
 أجل سله قبل اللوم فيم انقباضه
 وفيم رمي الدنيا بطرف كظيم

-
- (٢٠) راجع : عباس العقاد ناقدا للمؤلف ص ١٤٣ .
 (٢١) عباس العقاد : ديوان العقاد ج ١ ص ٤٩ .
 (٢٢) عباس العقاد : وحى الاربعين ص ٤٩ .

لعل طلاب الخير سر انقباضه
وعلة حزن في الفؤاد مقيم
فما تحمد العينان كل بشاعة
ولا كل وجه عابس بذميم
قطوب كريم خاب في الناس سعيه
أحب من البشرى بفوز لثيم

وفي اعتقادنا ان الدليل اصدق الدليل على هذا الحنان وذاك العطف
تجاوزه من العطف والحنان على الانسان الى الحيوان ، اذ ان العقاد
رثي كلبه « بيجو » بقصيدة شجية آسية ، لان فيها دلالة على النبع
الانساني العميق في نفس العقاد ، لان « بيجو » ليس حيا يلتذ به
وليس صديقا افتقد اعقاد صداقته فيرثيه ، ولكنه حيوان يشغل من نفس
العقاد مكان الود الانساني الخالص ، ويدل على مدى الفيض الشعوري
في هذه النفس العامرة بالاسرار الروحية^(٢٣) :

حزنا على بيجو تفيض الدموع
حزنا على بيجو تور الضلوع
حزنا عليه جهد ما أستطيع
وان حزنا بعد ذاك الولوع
والله - يا بيجو - لحزن وجيع

* * *

على ان من خلائق العقاد الكبرى انه رجل سمح ، لا يؤاخذ
أصدقاءه على ما بدر منهم في حقه ، ولا أدل على ذلك مما حدث له من
عبدالرحمن شكري حينما نقده في صحيفة « عكاظ » في عامي ١٩١٩ ،
١٩٢٠ ، اذ هاجم العقاد مع المازني في تلك المقالات مع ان العقاد لا ناقة
له ولا جمل في خلافهما ، ومع ذلك فان العقاد لم يسيء الى شكري ،
بل انه لم يرد عليه اصلا والتزم الصمت ازاء ذلك الاستفزاز الصارخ

(٢٣) عباس العقاد : اعاصير مغرب ص ١٧٥

الذي لا يسكت عليه احد كما سبق ان اشرنا الى ذلك .
وفي اعتقادنا انه لا ينفي سماحة العقاد كثرة معاركة الادبية التي
خاضها واستخدم فيها أعنف الاساليب ، لانه لم يبدأ احد بالاعتداء
أو التهجم عليه ، ولكنه يرد دائما على من يستيره من خصومه عن
ضريق مهاجمتهم له أو التعالي عليه ، أو التفاخر بالدرجات العلمية
والالقباب وغيرهما .

والباحث عن خلائقه الكبرى يرى انه رجل فكه ، وفكاهته
حاضرة على البديهة ، وهي تارة بلسم وجراح ، وأخرى عدة من عدد
الكفاح لديه ، وهي تصلح حيناً لمساجلة الاصدقاء كما تصلح حيناً آخر
لمناجزة الاعداء . ولكنها على أي حال من النوع البريء السليم الذي
لا أذى فيه ولا ضغينة ، ولا تعدو أن تكون مناوشة^(٢٤) .

وتجلى فكاهته بوضوح حين يعمد في كتابته الى الحديث عن خصم
كريبه ، فانه لا يبالي في هذه الحالة ان يرسمه بالفكاهة رسمه المهزلي
الذي ينطبق عليه ، أو يرد شيئاً من عداوته وأذاه ، أو حين يعمد الى
دحض دعوى لا يؤمن بها ، فانه يصورها تصويراً فكاهياً ينفر منها ومن
دعاتها القراء الذين أوشكوا ان يقعوا فريسة لدجل اصحابها^(٢٥) .

ومن خلائقه كذلك حبه الخلوة وضنه بوقته عن اللغو ، وهي
محسوسة لنا كأولياء أصدقاء لاستاذنا ، وذلك لانه كان يصر على المضي
في أداء رسالته وحدانياً مستقلاً بكيانه وتقديراته في كل خليقة من
خلائقه وفي كل اعماله ، وانه ليس جزءاً من كتلة على أي حال^(٢٦) .

وفي اعتقادنا انه ليس معنى وحدانية العقاد وعزلته انه يحارب
الناس ولا يبادلهم العاطفة والشعور ، لانه يحب مسالمة الناس جهده ،
ولا يستبيح لنفسه أن يبدأهم بما يسوء ، ولكنه لا يبيح لاحد ان
يستخف بالاساءة اليه ، ولا سيما الاساءة التي على اعتزاز بقوة لا تدفع

(٢٤، ٢٥، ٢٦) العقاد بين اوليائه واعدائه لمحمد خليفة التونسي من

كتاب « العقاد دراسة وتحيية » ص ٢٥ وما بعدها .

من اعتزاز بطغيان تنو له الجباه ، فمثل هذا المسمى لا يدعه العقاد
في طغيانه دون ان يندم عليه^(٢٧) .

وقد كانت هذه العزلة التي ورثها عن أبويه ، والتي ابتعتها في
نفسه حب القراءة باعثا لان يطوف العالم من مكانه ، اذ كان يشعر
بأنه لا يقرأ سطورا على ورق ، ولكنه يحيا في تلك الاوراق بين
أحياء^(٢٨) .

ومن هنا كان يألف بعض شخوص التاريخ كأنه يعاشرهم كل
يوم ، ويألف بعض الادباء في قراءة كلامهم فتمثلهم في ملامح وجوههم
وعاداتهم ، في حركتهم وسكونهم ، بحيث انه لو كان مصورا لاستطاع
ان يرسم لكل منهم صورة كاملة كما يرسم المصور أناسا من الاحياء
يراهم كل يوم^(٢٩) .

ومن ثم فانه منفرد بشخصيته ، منطو على نفسه ، ولكنه يتعاطف
ويتفاهم مع اصدقائه واوليائه بنفس غنية بالعطف والفهم لاصدقائها ،
تختلج لكل مؤثر ، لانها تلامس الحقائق وتتصل بالحياة والطبيعة صلة
مباشرة ، فكل شيء يقع فيها وقعا جديدا ، ويبعث خاطرا جديدا سواء
كان هذا الشيء جليلا أم دقيقا ، أدبا أم تصويرا ، تمثلا أم غناء فلسفة
أم اجتماعا ، جدا أم هزلا^(٣٠) .

ومن خلأقه الطفولة الدائمة ، لانه ينظر الى الدنيا بعيني طفل ،
فيألف الغريب ويستغرب المؤلف ، ويلمح في كل شيء جديدا ، فينظر
الى الافق الغامض البعيد ، متطلعا خاشعا يستخبر المجهول الذي وراءه ،
ويحاول تفسير مالا يمكن تفسيره ، وذلك لعمق احساسه بان الحياة
الكونية غير قائمة بذاتها مستقلة عن الحقائق العلوية وان ابسط الظواهر

(٢٧) من حديث خاص مع العقاد .

(٢٩، ٢٨) عباس العقاد : انا ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٣٠) العقاد كما عرفته لعبدالرحمن صدقي من كتاب العقاد

دراسة وتحية ص ١٠١ وما بعدها .

الطبيعية متصلة بأسرار الازل والابد .

وكان رحمه الله يحب الحياة ويبتهج بها ، لانه لا عمل لكل حاسة في نفسه الا ان تحس وتحيا وتستجد احساسا وحياة ، ولا تشبع من الاحساس والحياة ، فالاحساس عنده يتجاوز حيز البديهة الى حيز التفكير ، ومن ثم فان يقظته الحسية في حبه للحياة تصاحبها يقظة في الشعور الباطني تسرى به كل مسرى ، وتنفذ به الى كل منفذ ، وترجم العواطف والاخلاق ، كما تترجم المناظر والالحن ومن هنا ابعت حبه للحياة في نفسه ملكة التأمل في الحقائق والتعمق في الافكار ، فاصطبغ فكره وادبه تلك الصبغة ذات الاسلوب الرصين ، والتفكير الدقيق ، والاحاطة الشاملة^(٣١) .

كما ابعت في نفسه حب القراءة ، لانها السبيل الوحيد لمضاعفة حبه للحياة وعبادتها ، فهو لا يريد ان يعيش حياة واحدة لانها لا تكفيه ، وليس المقصود بالقراءة لدى العقاد ان يكون كاتباً ، والا اصبح موصل رسائل او كاتباً بالتبعية ، وليس كاتباً بالاصالة ، فلو لم يسبقه كتاب آخرون ، لما كان كاتباً على الاطلاق ، ولو لم يكن احد قبله قد قال شيئاً لما كان عنده شيء ، يقوله للقراءة^(٣٢) .

ولا أدل على ان العقاد لا يقرأ لكي يكون كاتباً ، انه يقرأ كتباً كثيرة لا يقصد الكتابة في موضوعاتها على الاطلاق مثل علم الحشرات ، فهو يقرأ لينفذ بها الى بواطن الطبائع واصولها الاولى ، لان الاحياء الدنيا هي - كما يقول العقاد - « مسودات » الخلق التي تترامى فيها نيات الخلق كما تترامى في النسخة المنقحة ، وقد تظهر من المسودة اكثر ما تظهر بعد التنقيح ، ومن ثم نستطيع ان نعرف كيف نشأ الاحساس للقراءة ، فنقترب بذلك من صدق الحس عنده وصدق

(٣١) راجع : عبس العقاد ناقدا للمؤلف .

(٣٢) راجع : مجلة الهلال الصادرة في ١ من مارس ١٩٤٨ تحت

عنوان « لماذا أهوى القراءة » .

التعبير ولو في غير هذا الموضوع (٣٣) .

القراءة عنده مقصود بها اضافة مقدار من الحس والفكر والخيال،
لانه ليس لديه الا حياة واحدة في هذه الدنيا ، وحياة واحدة لا تكفيه،
ولا تحرك كل ما في ضميره من بواعث الحركة ، والقراءة دون غيرها
هي التي تعطيه اكثر من حياة واحدة في مدى عمر الانسان الواحد ،
لانها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق ، وان كانت لا تطيلها بمقادير
الحساب (٣٤) .

فالفكر لدى الشخص واحدة وكذلك شعوره وخياله ولكنها اذا
تلاقت مع فكرة غيره أو شعوره أو خياله ، فتصبح الفكرة بهذا التلاقي
مئات من الفكر في القوة والعمق والامتداد . لان الفكرة الواحدة جدول
منفصل ، أما الافكار المتلاقية فهي المحيط الذي تتجمع فيه الجداول
جميعا ، وانفرق بينها وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الافق الواسع
والتيار الجارف ، وبين الشط الضيق والموج المحصور (٣٥) ، ومن ثم فانه
يزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع ان يجمع الحيات في عمر واحد
ويستطيع ان يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور
بالحب المتبادل .

وليس أدل على حبه الحياة ، وتعميقه لحياته التي يحيها من
تساؤله عن الموضوعات التي يقرأها ، حيث ردها الى منبع واحد ، وذلك
حين يقول : « وقد تختلف موضوعات القراءة ظاهرا أو على حسب
العناوين المصطلح عليها ، ولكنك اذا رددتها الى هذا الاصل كان أبعد
الموضوعات كأقرب الموضوعات من وراء العناوين . أين غرائز الحشرات
مثلا من فلسفة الاديان ؟ وأين فلسفة الاديان من قصيدة غزل أو قصيدة
هجاء ، وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو تاريخ نورة ؟
وأين ترجمة فرد من تاريخ امة ؟

(٣٣، ٣٤، ٣٥) مجلة الهلال: مارس ١٩٤٨ وراجع عباس العقاد

ناقدا للمؤلف ص ١٨٠ وما بعدها .

ظاهر الامر انها موضوعات تفرق فيما بينها افتراق الشرق من الغرب والشمال من الجنوب وحقيقة الامر انها كلها مادة واحدة، وكلها جداول تنبثق من ينبوع واحد وتعود اليه غرائز الحشرات بحث في أوائل الحياة ، وفلسفة الاديان بحث في الحياة الخالدة الابدية وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبسان من حياة انسان في حالي الحب والنقمة ونهضة الامم أو ثورتها هما جيشان الحياة في نفوس الملايين ، وسيرة الفرد العظيم معرضة لحياة انسان ممتاز بين سائر الناس ، وكلها امواج تتلاقى في بحر واحد ، وتخرج بنا من الجداول الى المحيط الكبير (٣٦) .

وينفي العقاد معرفته ابان نشأة القراءة عنده للصلة بين هذه الموضوعات المختلفة ، ولكنه كان يقرأ على كل حال الى ان نظّر في موضوعات ما يقرأ ، فلم يجد بينها غير تلك الصلة الجامعة ، وهي التي تقارب بها القراءة عند فراشه والقراءة عن المعرش وشيكسبير (٣٧) .

* * *

هذه هي صورة العقاد كما بدت لنا من خلال مصاحبتنا الطويلة له، ودراستنا لآثاره وعلاقاته باوليائه واعدائه .

وهذه الصورة يختلف فيها كثير من الناس فيحملها كل واحد منهم على المحمل الذي تمليه عليه شتى المدارك والامزجة تحت تأثير الحالات النفسية الطارئة ، فتأخذ الصورة ألواناً تحسبها ، وتسمى الظاهرة أسماء عدة بعدادها ، بل ان كثيراً منهم لينسب اليه ما حصل وما لم يحصل ، وما يحسن لديه وما لا يحسن ، كعادتهم في فهم الشخصيات المركبة الحية التي تزدهم فيها كل نوازع الحياة وتتربع على عرش الشهرة ، ومغالاتهم في أحكامهم على تلك الشخصيات وتناقض أحكامهم على أصحابها في أغلب الاحايين .

(٣٧) راجع مجلة الهلال مارس ١٩٤٨ .

والعقيدة الدينية التي يدين بها العقاد لا تركز على الحواس والعقل فحسب ، لانهما لا يكفيان في الوصول الى الحقيقة الكونية الكبرى ، وذلك لان الحواس تدرك ولا تعرف ، والعقل يبرهن ولا يعرف ، والحقيقة الكونية اكبر من ان تدرك بالحواس ، واعمق من ان يبرهن عليها بالعقل ، ولكن السبيل الى معرفتها هو الوعي الكوني Cosmic Consciousness وهو ملكة وجدانية اشبه بما يسلكه المتصوفة في

أذواقهم ومواجيدهم *

والوعي الكوني هو الذي يجعلنا نحيا هذه الحقيقة الكونية ونعيش معها ، وننفذ الى اعماقها ، لان الموجودات - كما يقول العقاد - غير محصورة في المحسوسات ، ومن الواجب ان نسلم بقيام موجودات لا تحيط بها الحواس والعقول ، لان انكارها جهل لا يقوم عليه دليل ، ولان وجودها ممكن وليس بالمستحيل^(٣٨) .

ويوضح العقاد هذه الحقيقة فيذهب الى ان أحق الناس بعرفان هذا لاولئك الذين نظروا الى الكون بعين الباطن .. وقالوا في ذلك ما لم ينقضه علم ولن ينقضه ما دام للانسان لباب وراء الحواس والعقول^(٣٩) .
ومعنى هذا ان معرفة الذات الالهية بوساطة النظر العقلي والدليل المنطقي لدى العقاد لا ترقى الى مرتبة اليقين ، لانه يعتقد ان الاذواق الصوفية الصادرة عن البصيرة والالهام هي وحدها التي تستطيع ادراك حقيقة الذات الالهية ادراكا مباشرا ، كما تستطيع مشاهدة كل ما يصدر عنها في الكون من آيات الحق والخير والجمال *

أما الموضوع الذي اخذ من تفكير العقاد كل مأخذ فهو العقيدة ، لانه لا بد للباحث أن يبدأ منه ويعود اليه دائما ..

(٣٨) العقاد : الله ص ٣٥ الطبعة الاولى .

(٣٩) العقاد : التصوف عند المدرس هكسلي : مجلة الكتاب

وفي اعتقادنا أن معرفة العقاد بالله يستخدم فيها مشاعره المباشرة في بساطتها ونضارتها الكامنة في طوية نفسه ووجدانه ، وذلك بالإضافة الى اعنات فكره اعناتا ، وكذ ذهنه كذا ، واستخدام حواسه حتى مداها ، ولكننا لا نغلو اذا قلنا ان العقاد ليصرح في جلاء ووضوح بأنه قد تعرض له فيما بينه وبين نفسه حقيقة يستطيع أن يدركها ادراكا مباشرا ، وأن يشبثها اثباتا يقينيا ، وأن يستكنه سرها لاول وهلة تعرض له فيها هذه الحقيقة دون أن يكون في ذلك كله معتمدا على الحواس أو مستندا الى العقل ، بل كل ما هنالك هو شعور روحي بهذه الحقيقة واشراق باطني يشع في جوانب القلب اشعاعا يكشف عن هذه الحقيقة^(٤٠) .

وفي مجال التطبيق لهذه الحالة يحدثنا العقاد عما حدث له في موقفه بين يدي الرسول في المسجد النبوي أثناء زيارته للحجاز ، عدا ما يعرض له في اغلب الاحايين من هبة التلثاني Telepathy كما يسميها النفسانيون المحدثون ، أو على حد ترجمة العقاد الشعور البعيد^(٤١) . وهي حالة نفسية يمتاز بها العابرة عن العاديين من الناس فيدرك الواحد منهم ما يفكر فيه الآخرون دون أن يكون هناك كلام أو اشارة ولو كان البعد بينهما شاسعا ، وهي مزية انسانية نادرة .

ولا ننكر في هذا المقام معرفة العقاد لله بوساطة شعوره الروحي واشراقه الباطني لأنها تتفق وطبيعة العقاد الشاعر الذي يعي الكون بشعوره قبل أن يدركه بحواسه وعقله ثم يتمثل هذا الكون وينقله من العالم المادي الفيزيقي الى عالم الصور والمثال .

وبعد الحديث عن منهجه في المعرفة يحسن أن نعرف موضوع المعرفة لديه ، وخالصة ما يقال فيه انه موضوع واسع بقدر ما هو عميق ،

(٤٠) من حديث خاص مع العقاد في صيف عام ١٩٦٠ ، وراجع كذلك جلال العشري : العقاد الفيلسوف : العقاد دراسة وتحية ص ٨٩ ط ١٩٥٧

(٤١) العبقريات ص ٤٨٥ ط ١٩٥٧ .
دراسة وتحية ص ٩٠

ينطلق من عقاله ليقبل على كل مجهول ، وينهل من كل مورد ،
فيتناول بالبحث الاهتمام بما وراء الطبيعة أيا كان مظهرها حتى البحث في
مذهب دارون والنظر فيما وراء الغيب ، أو في أرجاء الأرض ، أو في
أعماق الانسان .. وهذه نزعة تصوفية - كما يقول العقاد - لأن المتصوف
لا بد أن يعرف نواحي الفكر المختلفة ، ثم يترقى بعدها .. فالغزالي مثلا
لم يترك شيئا من الافكار التي ذكرها العلماء في عصره أو قبله ، وبعد ذلك
تدرج الى درجة أعلى من (٤٢) التصوف . والعقيدة عند العقاد تتمثل في
الذات الالهية التي يرى أن صورتها ليس عادة انسانية تعودها الانسان
بغير تفكير - كما يرى بعض النفسانيين - لأنه تعود أن يخلع صورته على
الاشياء ، ويحسبها ظلالاته تحكيه في ملامحه وخوافيه ، ولكنها نهاية ما
يدركه العقل واعيا صاحبيا مع التفكير ومتابعة التفكير الى مداه (٤٣) .

وفي موضع آخر نراه يتحدث عن علاقة العقل بمعرفة الله فيقول :
« فان العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ، ويستطيع
التفرقة بين أدلة الايمان وأدلة التعطيل ، ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن
وضمير عطل من الايمان ، ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ، ثم لا ينكر
ما وراءها لانه وراء تلك الحدود ، (٤٤) . ووسيلة العقاد في معرفة الله هي
الوعي الكامل وهو يتقظ ذات واعية حتى يحصل لها موضوع وعيها من
الخارج ، لانه ليس بداخلها ..

على أن العقاد ينفي استلزام كلمة الذات الالهية في التشخيص في
في الحقيقة لا في المجاز ، ولا تقتضى نزاهتها عن التشخيص أنها معنى بغير
كيان مستقل عن الوعي والصفات الواعية ، لانها تدل على الجوهر الذي
تضاف اليه الاوصاف ، وتدل على الكائن الذي يملك صفاته فهو « ذو » ،
تلك الصفات (٤٥) .

(٤٢) العقاد في ندوته ، وراجع كذلك جلال العشري العقاد
دراسة وتحية ص ٩٠ .

(٤٣) (٤٤، ٤٥، ٤٥) العقاد : الله صفحات ٦٠ ، ٢٩٦ ، ٥٦ .

ومعنى هذا أن العقاد لا ينظر الى مشكلة الله على أنها مشكلة وجود ،
وانما ينظر اليها على أنها مشكلة صفات . . .

ويذهب العقاد الى أن تقييد « الذات » الالهية بأية صفة من الصفات
المألوفة لنا أو المعهودة لدينا ، انما هو من قبيل الوهم والضلال ، لانه
لا أساس للقول بأن « الله » لا تكون له صفات متعددة لانه جوهر بسيط ،
ولا أساس للقول بأنه لا يعلم الجزئيات ، لانه يعلم أشرف المعقولات ،
وهو ذات الله ، فمثل هذه الأقوال لا أساس لها من الصدق ولا من
الصواب في الذهن أو الخيال ، ولم يفعل أصحابها شيئا أكثر من أنهم
زادوا اللغة كلمة ، ولم يزيدوا العقل تفسيرا ، ولا الفلسفة مذهبا ، ولا
الدين عقيدة ، وهنا نعلم أن الدين لم يكن أصدق عقيدة وكفى ، بل
كان كذلك أصدق فلسفة حين علمنا أن الله جل وعلا ليس كمثله شيء . . .
فكل ما نعلمه أنه - جلا وعلا - كمال مطلق ، وأن العقل المحدود لا
يحيط بالكمال المطلق الذي ليس له حدود ، وليس لهذا العقل أن يقول
للكمال المطلق كيف يكون ، وكيف يفعل ، وكيف يريد (٤٦) .

ويسوق العقاد الحديث عن صفات الله الى الحديث في امكان الايمان ،
لانه ما دامت الذات كمالا مطلقا والعقل امرا محدودا ، فلا بد من السؤال
عن العلاقة بين العقل والايمان ، اذ كيف يكون ايمان والعقل الانساني
قاصر عن ادراك الذات الالهية ، وكيف تكون صلته بين الكمال المطلق
والانسان (٤٧) .

ومن ثم فليس من المعقول - في رأي العقاد - أن يكون سبب الايمان
هو بعينه السبب المبطل للايمان ، وليس من المعقول كذلك ان يستحيل
الايمان مع وجود الاله الذي يتصف بأكمل الصفات ، ولكن المعقول هو
أن الصلة بين الخالق وخلقه لا تتوقف على العقل وحده ما دام الانسان

(٤٦) الله : ص ٢٩٥ ، والعقاد الفيلسوف « لجلال العشري في

العقاد دراسة وتحية » ص ٩٣ .

(٤٧) راجع : العقاد الفيلسوف لجلال العشري في « العقاد دراسة

وتحية » ص ٩٤ .

كله وما دام العقل وحده ليس هو قوام وجود الانسان *
وفي هذا الصدد يقول العقاد : فان العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة
الشرك وعقيدة التوحيد ، ويستطيع التفرقة بين أدلة الايمان وادلة
التعطيل ، ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن ، وضمير عطل من الايمان ،
ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ، ثم لا ينكر ما وراءها لانه وراء تلك
الحدود (٤٨) *

ويمضي العقاد مع العقل الى غاية مداه ، فيرى أنه قاصر عن معرفة
الله ، ومن هنا فانه قد لجأ الى المعرفة الصوفية فتمكن « بالوعي الديني »
الذي هو ضرورة لا محيص عنها ، وواقع ملازم للانسان من أن يجد
لله في مجال العقيدة مكانا مستقلا بنفسه قائما بذاته * ويبقى بعد ذلك أن
« الوعي » أعم من العقل المجمل وأعمق منه ، وأغرق في اصالة وجوده
مع الحياة الانسانية منذ نشأتها الاولى ، ونعتقد أن الوعي الكوني المركب
في طبيعة الانسان هو مصدر الايمان بوجود الحقيقة الكبرى التي تحيط
بكل موجود (٤٩) *

على أن العقاد يبين الهدف من ايمانه ويوضح منهجه في الايمان
فيذهب الى أن ايمانه في العقيدة والاخلاق والمعاملة والادب يوزن بميزان
واحد هو ميزان المثل الأعلى ، أو طلب الكمال * وايمانه بالله جاء عن طريق
الوراثة والشعور وبعد التفكير الطويل *
فالوراثة ، تمثل في انه نشأ بين أبوين شديدين في الدين ، لا
يتركان فريضة من الفرائض اليومية ومن هنا فلوراثة شأن فيما عنده
من سليقة الاعتقاد *

أما الايمان بالشعور ، فذاك لان مزاج التدين ومزاج الأدب والفن
يلتقيان في الحس والتصور والشعور بالغيب ، وربما كان « وعي الحياة »
شعبة من « وعي الكون » ، أو من « الوعي الكوني » الذي يتعلق به كل

(٤٨) كتاب الله ص ٢٩٣

(٤٩) المرجع السابق ص ٢١٠ وراجع كذلك العقاد دراسة ونحية

شعور بعظمة العالم وعظمة خالق العالم والوعي الحيوى مصدر النفس والوعي الكونى مصدر الدين^(٥٠) .

أما الايمان بالله بعد التفكير الطويل فخلاصته أن تفسير الخليقة بمشيئة الخالق العالم المرید أوضح من كل تفسير يقول به الماديون .
ثم يعقب العقاد على ما طرأ له في مجال العقيدة من حيرة وشكوك انتهت بانتهاؤها بواعثها ، ومن هنا فإنه يعلن أنه ما من مذهب اطلع عليه من مذاهب الماديين الا وهو يوقع العقل في تناقض لا ينتهي الى توفيق أو يلجئه الى زعم لا يقوم عليه دليل ، وقد يهون معه تصديق أسخف الخرافات والاساطير فضلا عن تصديق العقائد الدينية وتصديق الرسل والدعاة^(٥١) .

ويناقش العقاد دعاوى الماديين قائلا : « فالقول بالتطور في عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول ، لان ابتداء التطور يحتاج الى شيء جديد في العالم القديم ، وحدث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ في سؤال فضلا عن الفكر أو الخيال » .

والقول بالارتقاء الدائم من طريق المصادفة ، زعم يهون معه التصديق بالغيلان والسعالى وخوارق العادات في تركيب الاجسام والاحياء .
والقول بان المادة تخلق العقل كالقول بأن الحجر يخلق البيت ، وان البيت يخلق الساكن فيه ، وأيسر من ذلك عقلا ، بل ألزم من ذلك عقلا ، أن يقال : ان العقل والمادة موجودان ، وان أحراهما أن يسبق الآخر ، ويخلقه هو العقل ، لان المادة لا توجد ما هو أفضل منها ، وفائد الشيء لا يعطيه . .

فأنا أو من بالله وراثته ، وأومن بالله شعورا ، وأومن بالله بعد تفكير طويل^(٥٢) .

(٥٠) الهلال يناير سنة ١٩٤٧
(٥١) المصور ٥ يولييه سنة ١٩٦٣
(٥٢) الهلال يناير سنة ١٩٤٧ ، وراجع كذلك المصور ٥ يولييه
١٩٦٣ .

وفي اعتقادنا أن ايمان العقاد بالله يتمثل في أن الله كمال محض .
ومن هنا فانه ينزله عن اشتها العقاب الذي ينزله بعبده في الحياة
الآخرة - كما صورته الكتب الدينية - لانه يكفيهم ما حدث لهم في الدنيا
من آلام وأسقام .

على أنه يرى أن الحياة الآخرة نفسها لا يستطيع خيال الانسان أن
يحيط بوصفها ، أو لن يصل في شأنها الى وصف يستقر عليه ، فهو لا
يرضى ان تكون الحياة الآخرة كهذه الحياة لانه يطمح أبدا الى كمال بعد
تقص ، وغبطة بعد ألم ، وهو لا يرضى أن تكون الحياة الاخرى مبدلة
مستحيلة ، لانه متى تغير شعوره ، وتبدلت مداركه ومقاييس نظره أصبح
مخلوقا آخر ، وأصبح النعيم الذي يرجوه كأنما هو نعيم مكتوب لانسان
سواه ، فهو يحب أن يغير حياته ولا يحب أن يغيرها في وقت واحد ،
والخروج من هذه الحيرة لن يكون الا على حالة فوق ما يعقل وفوق ما
يتخيل ، ويعبر عن ذلك بقوله شعرا (٥٣) .

ايها السائل : ما بعد الممات ؟ يمم الصحراء وانظر قفرها
ما وراء القبر في قول الثقافة حالة تحمد يوما سرها
لست بالراضي حياة كالحياة لا ولا ترضى حياة غيرها
كما أن العقاد لا يقف بمقتضيات العقيدة عندما تحدث به الفقهاء من
الواجبات التي تترتب على الايمان ، وتعتبر أثرا له ، لانه يرى ان
مقتضيات العقيدة أوسع وأعمق من أن تقف عند هذه الاشياء ، وبمقدار ما
يحققه الانسان من خير للانسانية يوزن ايمانه ، ونشيدان العقاد للمثل
الاعلى في الادب والفن والفكر والدين والعلم ، انما هو ايمان أعمق من
ايمان من وقفوا عند الصلوات لا يبرحونها .

٣ - فلسفته العامة (٥٤) :

لا نقصد بالحديث عن فلسفة العقاد العامة البحث عن مذهب

(٥٣) وحى الاربعين ص ١٧ وما بعدها .

(٥٤) راجع : مجلة الثقافة في عدديها الصادرين في ٢٠ من اكتوبر ،

٣ من نوفمبر سنة ١٩٦٤ اذ نشرنا فيهما فلسفة العقاد العامة .

فلسفي لديه ولكننا نقصد الحديث عن منهجه في الحياة الذي يتضمن سلوكه وفهمه للمشاكل التي تعترضه ومدى استقلاله في فكره وعلاقة فكره بعمله .

وفي اعتقادنا أنه من الممكن أن نستخلص فلسفة العقاد العامة من مجموع إنتاجه الوفير في أسس ثلاثة هي الفردية ، والحرية ، والنظرة الفنية الى الكون والحياة .

١ - الفردية :

فالفردية عند العقاد - كما سبق أن أشرنا الى ذلك - ترادف من وجهة نظرنا الشخصية ال Personality التي لا تتكرر ، وليست الفردية عنده هي ال Individuality بحيث لو تأصلت لديه كانت أنانية وولوعا بالسطو على حقوق الآخرين ، لان العقاد يهتم في تكوين شخصيته ، بأن تكون ذا طبيعة قوية سليمة ، حتى تستطيع أن تفهم أن القانون الذي يوضع لبقاء فرد واحد ، غير القانون الذي يوضع لبقاء جميع الامة أو الامم في جميع العصور ، لان غاية الكون أكبر من غاية هذا الفرد أو ذاك الشعب . ومتى تعارضت الغايتان - ولا بد أن تتعارض في حادثة من الحوادث - فلا ظلم في تضحية الصغرى منهما لاجل الكبرى .

وفي مقام التدليل على ذلك نستدل بموقفه من اسماعيل مظهر صاحب مجلة « العصور » التي أخذت على عاتقها مهاجمة العقاد في عام ١٩٢٩ عن طريق المقالات التي كان ينشرها فيها مصطفى صادق الرافعي تحت عنوان « على السفود » والتي كان يكتبها بأسلوب فيه بذاعة ، وتفكير فيه فحش ، وروح منطوية على الشر . ومع ذلك فإن العقاد هو الذي رشح اسماعيل مظهر لعضوية مجمع اللغة العربية مطرحا العلاقة الخاصة بينه وبين اسماعيل مظهر وراء ظهره ، استهدافا للمصلحة العامة .

ومن هذا يتضح أن العقاد لا تتصف فرديته بالانانية ، وانما تهدف الى الكمال وفهمه ، ومن الكمال ما هو عسير على النفس محفوف بالمخاطر

مكروه العواقب ، مستهدف للنقد والمذمة بين من يجهلونه أو يصابون
في منافعهم من جرائه ، ولا باعث لطلب الكمال أقوى من باعث الشوق
اليه والارتفاع بالنفس الى ما ترضاه . .

ويذهب العقاد الى أنه لا باعث الى الخير في عالم الاخلاق أقوى من
شعور الانسان بكماله ، ولا وازع عن الشر أقوى من شعور الانسان
بنقصه ، ولا أخلاق لمن يحسن لانه يؤجر على الاحسان ، أو يسيء لانه
في أمان ، فساعة من الغبطة ببلوغ الكمال هي غاية ما تعلق اليه النفس من
مراتب السعادة ، وساعة من تبيكت الضمير على النقص هي غاية ما تنحدر
اليه النفس من الشقاء^(٥٥) .

وشعور الانسان بكماله هو الذي يجعله يحب شخصية العظيم ،
ولكنه لا يريد ان يكون مثله ، حتى ولو كان نبيا ، فهو يعتقد بعظمة
الانبياء ، ولكنه لا يحسداهم ، لانه لا يريد ان يكون معصوما ، ولو
خير مع العصمة فلا يرضى بها^(٥٦) . وانما يتخذ لنفسه منهاجا سلوكيا خاصا
به ، يتمثل في أنه لا يقنط من طيبة الناس كل القنوط ، ولا يعول عليها
كل التعويل ، بل يحسن الظن بالناس كأنهم كلهم خير ، ويعتمد على
نفسه كأنه لا خير في الناس ، ويترجم عن هذا شعرا بقوله^(٥٧) :

أنا لا ألوم ولا ألام حسي من الناس السلام
ليس العتاب بمصلح خلا توارثه الانام
أنا ان غنيت عن الانسا م فقد غنيت عن الملام
واذا افتقرت اليهم فاللوم من لغو الكلام
ومن ثم يقبل على الحياة بخيرها وشرها ، ونعيمها وشقائها ، وانما
يمضي معها بفلسفة حيوية متزنة ، وذلك كما يقول^(٥٨) :

قالوا : الحياة قشور قلنا : فأين الصميم ؟

(٥٥) راجع الهلال يناير سنة ١٩٤٧

(٥٦) العقاد في ندوته . .

(٥٧) ديوان العقاد ج ١ ص ١٢٠

(٥٨) ديوان العقاد ج ١ ص ٥٣

قالوا : شقاء ، فقلنا نعم : فأين النعيم ؟
ان الحياة حياة ففارقوا أو أقيموا
فهو لا يتطرف في جانب النعيم فيرضى عنها ، ولا يتطرف في جانب
الشقاء فيضيق بها ، ويسىء الظن ، لانه ينكر فلسفة سوء الظن (٥٩) :
من ساء بالناس ظنا دون ما ألم أحق عندي بسوء الظن والتهم
أسيء ظنونك لكن مكرها أبدا كمن يظن ببعض الآل والحرم

وهذا قول رجل انساني تزخر نفسه بالعطف ، وتفيض بالثقة ،
فينكر فلسفة سوء الظن ارتجالا وتطوعا ، فسوء الظن عنده بالانسانية أمر
مكروه ، لا يقدم عليه الانسان . وله منفذ الى رجاء فيها كمن يظن
بعض الآل والحرم بعد ألا يجد بدا من الظنون .

على أنه يحدد منهجه في الحياة أكثر من ذلك حينما يقول (٦٠) :
زاهد الهند نعى الدنيا وصام أنا أنعاهها ولكن لا أصوم
طامع الغرب رعى الدنيا وهام أنا أراعهاها ولكن لا أهيم
بين هذين لنا حد قوام وليم من كل حزب من يلوم

ومن هنا نرى أنه يتطلع الى الجانب الوضاء من الحياة ، فينتشل
نفسه من بحر شقائها لينعم بخيرها وطيباتها ، ولكنه لا يتمادى في تنعمها ،
وانما يكبح جماحها عن الابتذال حتى يظل على سمته ووقاره . فاذا
ما أصيب بالمصائب الجسام ، أو ضاق بالحياة ذرعا فانه ليرجم مشاعره
في شعره ترجمة صادقة لا كذب فيها ولا اختلاق فيقول (٦١) :

ظمان ضمان ، لا صوب الغمام ولا

عذب المدام ولا الانداء ترويني

حيران حيران ، لا نجم السماء ولا

معالم الارض في الغماء تهديني

-
- (٥٩) وحي الاربعين ص ٤٦ .
(٦٠) وحي الاربعين ص ١٩ .
(٦١) ديوان العقاد ج ٢ ص ١٩٤ .

يقظان يقظان ، لا طيب الرقاد يدا
نيني ، ولا سمر السمار يلهيني
غصان غصان ، لا الاوجاع تبليني
ولا الكوارث والاشجان تبكينني
شعري دموعي ، وما بالشعر من عوض
عن الدموع نفاها جفن محزون

وهاته اللوعة اللاعجة التي نلمسها في هذه الابيات يفص بها كثير من
شعر شبابه ، حتى كاد ان يكون شكايته من كل شيء . . من الزمن (٦٢) :

فشت الجهالة واستفاض المنكر
فالحق يهمس والضلالة تجهر
والصدق يسرى في الظلام ملثما
ويسير في الصبح الرياء فيسفر
انا لفي زمن كأن كباره
بسوى الكبار شأنها لا يكبر
ومن شباب مصر (٦٣) :

كم ذا أعاشر من صجبي وأعدائي
من ليس يعقل آمالي وآرائي
قوم على كتب منى ويفصلني
عنهم مسافة بين الليث والشاة
ويلي على مصر ! قد أمست وليس بها
ضرب من الصدق الا قول هجاء
تجنبوا الصدق حاشا في شتائمهم
فهم نبيون في ظن وانبياء

(٦٢) المرجع السابق ج ١ ص ١١١

(٦٣) ديوان العقاد ج ٢ ص ١٥٣ وما بعدها .

مشهرون اسروا الامرام جهروا

فليس اخفاؤهم الا كاشفاه

وفى اعتقادنا ان كثرة الشكاية فى شعره لا تعنى ان الرجل متشائم ،
لان الانسان قد يشكو لانه مفرط فى التفاؤل ، ولانه ينتظر ويرجو ،
ونحن لا نشكو الا من الصديق الذى ثق به ونعول عليه ، ونتظر منه
المودة ولا نتظر منه الجفاء ، فالشكوى اذاً قد تكون مقياساً للثقة والامل ،
أو مقياساً للتفاؤل والاقبال (٦٤) ..

على ان العقاد بطبعه القويم وسلامته من ضعف الاعصاب واختلالها
لا يتشائم ولا يتطير ، لانه ينتظر من الدنيا خيراً ، بل انك لتجده متفتحاً
لها يتمتع بطبيعتها ولذاتها فيقول (٦٥) :

« قم حزين العمر ، فاطرب وارشف

من كئوس الحب ما يجلو الحزن

فاغتم اللذات فى اوقاتها

انما الميت من ينسى الزمن

واقطف زهر ربيع مونق

نحن ان لم نقطف الزهر فمن !

ومعنى هذا انه لا يحس نفرة بينه وبين الدنيا ، وليس ضعيف
الاعصاب مختلها حتى يؤدي به هذا وذاك الى التشاؤم والتطير ..

وفى تصورنا ان هذا المنهج السلوكي الذى انتهجه العقاد فى حياته لا يهدف
به الى ارضاء نفسه كفرد ، قدر ما يهدف الى ارضاء نفسه كمنال يحقق الكمال
الانسانى او يكاد ، لان هذا المنهج قد فرش طريقه بالشوك والاحن
والعداوات والخصومات التى وجهت اليه قربانا وزلفى ، لانه صاحب رسالة
فى مجتمع لا يعرف شيئاً عن الرسائل واصحابها ، ومع ذلك فقد مضى
فى تأدية رسالته الانسانية فى تصحيح الاذواق وتحرير العقول ، وتحريك

(٦٤) عباس العقاد : على الاثير ص ١٢١ ، ١٢٢ ط اولى ١٩٥٣

(٦٥) ديوان العقاد . ج ٢ ص ١٦٤

الضائر ، وتدعيم الاخلاق ••

فالفردية لدى العقاد اذن لم تكن باعثة على التجديد في الشعر والادب كما ذهب الدكتور مندور^(٦٦) ، وانما الباعث على التجديد هو طلب الكمال والارتفاع بنفسه من الفردية الى الشخصية الانسانية حتى يتمكن من أداء رسالته الانسانية التي اضطلع بها وناء بعثها •

ب - الحرية :

أما الاساس الثاني في فلسفته العامة فهو الحرية التي يعتبرها فضيلة الفضائل ، ودليلا على رقي الامم وأدميتها ، بل انه لشدة شغفه بها اعتبرها مقياسا للجمال ، ومرادفة له ، فالجمال في مفهومه هو الحرية ، والجمال في الجسم الانساني هو حرية وظائف الحياة فيه وسهولة مجراها ومطاوعة أعضاء الجسم لاغراضها ، وقيام هذه الاعضاء مقام الادوات الملية لكل اشارة من اشاراتها^(٦٧) •

ويذهب في موضع اخر الى ان الجسم الجميل هو الجسم الذي لا فضول فيه ، وانه الذي تراه فيخيل اليك ان كل عضو فيه يحمل نفسه غير محمول على سواه ، ومن هنا جمال الرأس الطامح ، والجيد المشرب ، والصدر البارز ، والخصر المرفف المشقوق ، والردف المائل ، والساق التي يبدو لك من خفتها وانطلاقها واستوائها انها لا تحمل شيئا من الاشياء ولا تنهض بعبء من الاعباء^(٦٨) ••

ويقول في وصف فتاة على شاطئ الاسكندرية « والمصادفة من اجمل المصادفة ، طيارة في الهواء وفتاة على الارض هي اولى بالطيران من تلك الحديدية الصاعدة ، بل هي تطير ولا يتخيلها الناظر الا طائرة تفلت من لحظات العيون وخطرات الارواح •• ولا تحس العين انها ادركتها ، لانها اذا ادركتها تأملت فيها وسرحت في معانيها ، فاذا هي بعيدة ابعد من الفراش الذي يقع عليه الطفل

(٦٦) الدكتور محمد مندور : عباس العقاد ناقدا في مجلة «المجلة»

يوليو ١٩٥٩ العدد ٣١ •

(٦٧) راجع مطالعات في الكتب والحياة ص ٢٥٣ •

(٦٨) مجلة الرسالة ٢٥ يولية ١٩٣٨ ، ع ٢٦٤

فاذا هو على الغصن ، ويثب اليه في غصن فاذا هو في الهواء (٦٩) .
ومضى هذا انا - كما يقول العقاد - نحب الحرية حين نحب
الجمال ، واتنا احرار حين نعشق من قلوب سليمة صافة ، فلا سلطان علينا
لغير الحرية التي نهيم بها ، ولا قيود في ايدينا غير قيودها (٧٠) لان ميزان
الحرية القيد ، وانها لا تتأفر او تتأقض مع النظام ، والا غدت ضربا من
الفوضى والتهريج . .

والعقاد على هذا الاساس من فلسفته العامة وهو الحرية يبني وحدة
فكرة في الحياة والفن على سواء .
على اننا نعتقد ان طلبه للحرية يأتي من داخل نفسه وفكره واحساسه
وجسده ، وليس تقليدا لاحد في طلبها ، لانه يعد التقليد في طلب الحرية
نوعا رفيعا من الذل والعبودية (٧١) . ومن ثم فانه قد وطد نفسه على هجر
حياة الامن ومقابلة الاخطار بصدر رحب في سبيل الحرية ، وذلك كما
يدل عليه قوله (٧٢) .

عش آمن السرب كما تشتهي
ما نحن ممن يغيط الأمنين
ان حياة الامن في شرعنا
مشنوة مثل حياة السجين
كلاهما يخفره حارس
مسدد النظرة في كل حين
أيتها الاخطار علمتسا
باننا الاحرار لو تعلمين
وظل يكافح في سبيل الحرية حتى انتهى كفاحه بسجنه . ولكن

-
- (٦٩) المصدر السابق نفس العدد .
(٧٠) مطالعات في الكتب والحياة ص ٢٥٣ .
(٧١) ساعات بين الكتب ص ٩٣ .
(٧٢) ديوان العقاد ج ٢ ص ٢٠٨

السجن لم يزد الا اصرارا عليها وتوعدا للمستبددين الذين كانوا يحكمون الشعب بيد من حديد وفي ذلك يقول (٧٣) .

عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما

سيعهدني كل كما كان يعهد

وليس عجيبا على رجل تعتمد فلسفته العامة على اساسين احدهما الحرية ان يكره الوظيفة الحكومية ، وينفر منها ، لانه يرى الموظف الصغير يبيع حريته ووقته وعمله بمرتب ضئيل ، ويناط تقدير كفاءته بارادة غيره ، وربما أريد منه فوق الكفاءة في العمل كفاءة أخرى في الملحق والدهان (٧٤) على ان تقدير العقاد للحرية جعله يرفض من المذاهب الفلسفية والاجتماعية والفنية كل مذهب لا يحترم الشخصية الانسانية ، لان مقياس المذهب في رأي العقاد هو مقدار احترامه للشخصية الانسانية فيما يتعلق بالاصلاح الاجتماعي ، فلا بد أن تكون الشخصية متجاوبة مع غيرها من شخصيات المجتمع لا منعزلة عنه .

ومن حيث الفن فانه يرى ان الفن تجربة شخصية ، واثر المجتمع قائم بذاته ، ولا يحتاج الى مذهب . . أما الذي يحتاج الى مذهب فهو الشخصية الانسانية ، وتوسيع نطاقها واعطاؤها كل فرصة للفن والكمال (٧٥) .

وفي اعتقادنا ان رفض العقاد للمذاهب يفسر لنا موقفه من الاشتراكية بالرغم من انه كان اشتراكيا في مطلع القرن العشرين ، حينما ذهب الى انه لا يحق لانسان أن يورث ابنه ثروة عريضة ، لانه لا يوجد مسوغ لان يستحل الابن هذا المقدار من ثروة الامة ، لان هذا معناه وجود خلل متشعب في ثروة الامة لا يستقيم حال الجمعة البشرية الائتلافية ، وعلى الوالد ان يربي ولده وان يعينه على انشاء مستقبل له في الحياة ، وليس

(٧٣) وحي الاربعين ص ١٧٤ .

(٧٤) خلاصة اليومية ص ٢٩ .

(٧٥) المصور ٥ يولييه ١٩٦٣ ، العدد ٢٠٢١ .

في هذا نزاع ، فاذا مات الاب فلتقم الحكومة مقامة فتتولى تربية ولده ، وتمده متى حان له ان يعمل لنفسه بما يبدأ به عملا من الاعمال ، ولتتركه بعد ذلك يلاقى ما يستحقه بجدارته من نجاح او فشل ، وتتفق الباقي في تحسين حال المجموع بما لا يمكن أن يأتي على يد فرد من الافراد^(٧٦) ، ومعنى هذا ان العقاد لم يرفض من الاشتراكية الا الاشتراكيات التي تهدر الشخصية الانسانية ولا تقدرها ، وفيما عدا ذلك من حيث اقامتها للمعدلة الاجتماعية في توزيع الدخل وتقسيم ثروة الامة ، فانه لا يقبله فحسب ، بل يدعو اليه ويطلب بتنفيذه .

ويمكننا ان نقول ان العقاد لا يتقيد بمذهب في الفن او الفلسفة او الاجتماع ، ويكره ان يفسر أي سلوك له بناء على مذهب معين ، ومن هنا فانه لينفي ان يكون عدم زواجه بناء على مذهب ، وانما كان نتيجة لظروف حالت دون هذا الزواج . . . ويفسر العقاد هذه الظروف في موضع آخر بقوله : « لو كنت في الريف أو كانت صناعتي غير الادب لتزوجت . ولكنني الآن لا أستطيع الزواج ، لاني اوطن نفسي دائما على أن اواجه كل نوع من أنواع المعيشة ، واجازف بكل شيء ولا أبالي المستقبل »^(٧٧) !!

ومن هذا يتضح ان العقاد ليس من أنصار عدم الزواج ، بل انه يؤيده ولا يشعر انه قد يعطله عن اعماله او يعوقها بحيث انه لن يصل الى ما وصل اليه لو تزوج . وذلك لانه يعيش مع اسرته في البيت الذي يقطنه . . . ففي الشقة المقابلة لشقته اولاد اخته واولاد اخيه ، وحين يكون مشغولا بعمل لا يدخل عليه أحد ، لانه يحب الهدوء . . .

وبالرغم من ذلك فانه لم يأت وقت ندم فيه على عدم زواجه ، وان كان يشعر بالعطف نحو الاطفال بل بالعطف نحو كل شخصية ، وانه لا يشعر بأنه مقطوع أو حزين ، حين يكون وحيدا ، لان العالم بما رحب

(٧٦) خلاصة اليومية ص ٧٦ ، ٢٧

(٧٧) مجلة كل شيء اغسطس سنة ١٩٣٥ .

مثلا في كتابه ومفكره وشعرائه بين يديه في بيته ، ومن هنا فانه من أشد الناس شعورا بأي انسان في البيت أو خارجه (٧٨) .

فالحرية لدى العقاد اذن تقتضيه الا يتقيد بمذهب معين ، او تفسر اعماله في الفن والفلسفة والاجتماع على مذهب معين .

ج - نظرتة الفنية الى الكون والحياة :

يرى العقاد ان الحياة عمل فني تحكمه الاصول التي تحكم بيت اشعر ولحن الموسيقى ، وصورة المصور ، وتخرج في جملتها وتفصيلها من يد الفن الالهى كما تخرج الدمية من يد الصانع القدير في فكرتها الباطنة وتمثيلها الظاهر .

ولكنه مع هذا يفرق بين نظرتة اليها هذه النظرة ، وبين أن يكون الكون نفسه عملا فنيا ، وذلك حين يقول : أما الفرق بين نظرك الى الكون نظرة فنية ، وبين اعتقادك الفكرة الفنية في مظاهرة فهو انك قد تنظر بعين الفن الى شيء لا أثر للفن فيه ، ولكنك اذا اعتقدت الفكرة الفنية في ذلك الشيء نظرت اليه بتلك العين (الفنية) وزدت على ذلك ان تجعل الفن نفسه منظويا فيه (٧٩) .

ويمضى العقاد في تفسير مظاهر الكون ليستدل بها على فنيته فيذهب الى ان الكون كله والحياة وهي أعم من الكون في نظره - والفن ومناظر الارض والسماء ، كل اولئك مظهر للتألف او للتنازع بين الحريية والضرورة ، أو بين الجمال والمنفعة ، أو بين الروح والمادة ، أو بين أفراح الفن واوازنه : قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة ، وكلما اتلفت القوى والقوانين واقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمادة صفاء الروح ، ويسبر بالقيود اغوار الحرية ، وهذا الائتلاف هو دستور الفن الالهى المحيط بكل شيء ، وهو فلسفة الفلسفات في هذا

(٧٨) من حديث خاص مع العقاد في ديسمبر سنة ١٩٦٠ .

(٧٩) مطالعات مقدمة ص ١ .

الوجود (٨٠) •

فاتتلاف القوى والقوانين في تصور العقاد هو دستور الفن الالهي المحيط بكل شيء ، وهذا التصور يدل على ان مزاج العقاد كيان شاعر ، لانه لا يمكن أن ينظر هذه النظرة الى الكون الا شاعر مثله • ولا يتصور العقاد الحياة دون ضرورات وقوانين ، والا صارت عدما مطلقا ، بل ان هذه الضرورات وتلك القوانين انما هي مكملة للحياة ومشكلة لها ، اذ انه لا يمكن أن تتصور عالما لا موانع فيه ولا اثقال ، لانه اذا صح هذا فانه لا يكون الا فضاء بغير فاصل ، أو هيوولي بغير تكوين (٨١) •

ثم يمضى في تفسير فنية الحياة مينا مثلها الاعلى ، ومقارنا بين قيود الشعر وبين قوانين الحياة وضروراتها فيقول :

« فقوام الأمرين في نظري أن نجعل من القانون حرية ، ومن القيود حلية ، ومن الثورة نظاما ومن الواجب شوقا وفرحا ، ومن « الكاوس » او الهيوولي عالما مقسما وفلكا دائرا • فهذا هو المثل الاعلى في الحياة ، وهذا هو لب لباب فنها الالهي الذي يلتقي فيه - كما يلتقى في فنونها - قيد الوزن وفرح اللعب ويتعانق على يديه الخيال الشارد والقافية المحبوسة ، وتلك هي سنة الله في خلق هذا الكون الذي جعلت قوانينه مهرا لحرية وسبيا للشعور به فقام على هذا النظام وسطا بين العدمين : عدم الفوضى وعدم الجور الأعمى » (٨٢) •

وبين العقاد ان الفن يستطيع ان يوفق بين الحرية والضرورة وان الجمال هو الحرية ، وهو في غاية الحياة القصوى ونحن نشترى الحرية العزيزة بالقيود الثقيلة ، بل نحن لا نجد الجمال ولا نوجده الا اذا أُلغينا بين القيود والحرية وأصلحنا ما بينهما من التنازع والتنافر (٨٣) •

ويستطرد العقاد في مقارنته بين الادب والحياة ميينا ان في الاداب

(٨٠) راجع مطالعات في الكتب والحياة ، مقدمة أ ، وصفاة ٢١٩ •

(٨١) راجع مطالعات في الكتب والحياة مقدمة أ ، والمقدمة ب •

(٨٢) مطالعات مقدمة - ب •

(٨٣) مطالعات مقدمة - ج - وراجع الفصول ص ٢٦٨ •

عنصرا اسمى من عنصر هذه الحياة الطبيعية المحدودة ، وذلك العنصر ، هو عنصر الخلود الذي لا يتاح للفرد في وجوده القصير ، ثم يوضح ذلك بأن كل حياة تؤتمن على قوتين عظيمتين: احدهما «مادية» تحفظها - أي تمشي مع (الضرورة) وتخضع لها . والثانية «روحية» تكبر على الضرورة ، وترفع الى «الحرية» أي تعلق بها عن نفسها ، ومرجع هذه القوة الاخيرة في النفس انما هو الاشواق المجهولة ، وآمال الخيال اللدنية ، والمثل العليا التي لا تظهر في شيء مما يعالجه الناس ظهورها في مبتكرات الاداب والفنون (٨٤) .

على ان الاداب بهذا العنصر تشرف وتسمو على تلك العلوم والصناعات التي تقوم للضرورة المادية مقام الخدم المطيعة ، والعبيد المسخرة ، اذ انه ما زال في فطرة الناس ان يخجلوا من تحكم الضرورة فيهم ، ولو كانت شائعة بين جميع المخلوقات ، ويجاهدوا بما في طوقهم من قوة للتغلب عليها والتباهي بالافلات من قيودها (٨٥) . ويستدل على ذلك العقاد بنظرة بعض الناس من اهل الفطرة الى الطعام على انه عورة تستر ، وكراهيتهم أن يفاجئوا في أثناء خضوعهم لشهوة من الشهوات الاضطرارية المنسلطة على المخلوقات عامة ، وفي الوقت نفسه تراهم يهللون تهليل الطرب والابتهاج لما يقرأونه في الشعر والقصص من وقائع البطولة التي يتردد فيها جبايرة الخيال على سلطان الأقدار ، ويهزأون من آصار الطبيعة وقوانينها القاهرة ، ويستريحون الى ما تترجاه قرائح الشعراء والحالمين من عصور العدل والفضيلة والكمال والانطلاق من ربة الحاجات المعيشية . يهللون لهذه الامور ويعجبون بها مع علمهم انها لا تكون كما يرجون في عالم الوقائع الملموسة . غير انهم قد ايقنوا بالالهام انها هي قائد الانسانية الذي صحبها خطوة بعد خطوة في معارج الحياة فتقدمت وراه من حمأة الحشرات المستقدرة في هذا الاوج المتسامي صعودا الى السماء ، وجعلت الحياة فنا يخيل الى الانسان ان يخلقه باختياره ، كما يخلق بدائع

الصور ، والكون متحفاً أبدياً يقاس بمقاييس الحرية والجمال . بعد أن كانت الحياة قضاء محتوماً ، وكان الكون سجناً لا فكاك لاسيره من أغلاله وحراسه^(٨٦) .

وبجانب ذلك ففي الأدب كل ما في الحياة من حاضر ومغيب ، ومن فرائض وآمال من شعور بالضرورة في الطبيعة الى تطلع لحرية المثل العليا . ومن هنا فإنه يوجب على الذين يفهمون عظمة الحياة من أبناء هذا الجيل أن يحسنوا فهم هذه الحقيقة كي يعلموا ان الأمم التي تصلح للحياة وللحرية لا يجوز في العقل ان يكون لها غير أدب واحد وهو الأدب الذي ينمي في النفس الشعور بالحياة والحرية^(٨٧) .

على ان العقاد يذهب ابعد من ذلك حينما يرى ان الحياة بغير الروح الفنية عبث ، يعرف ذلك كل من خبر الفنون وتذوق معاني الحياة ، وعرف ولو شيئاً قليلاً مما يجب منها وما تستحق ان تعشقها النفوس من أجله . وينفي عن الفنون الجميلة أن تكون نافلة من النوافل التي تغتفر كما تغتفر بعض الملامهي التي فيها لبعض الناس لذة ، وذلك لان هذه الفنون ذات خطر في حياة الأمة الناهضة ، ويؤكد ان الانسان لا يحيا الحياة الكاملة الا اذا أشبع حسه مما يحدق به ، وملاً نفسه من تصور ما تقع عليه الحواس ، فهذه هي الحياة كما يراها العقاد ، بل هذه هي الروح الفنية التي يحرمها كثيرون وهم قادرون على ايقاظها في نفوسهم لو اتاحت لهم الفرصة الهادئة^(٨٨) .

بيد انه يرى انه ليس من الممكن ان يخلق الناس كافة على مشرب واحد في حب الفن والاعجاب به والالتفات الى المظاهر الفنية من هذه الحياة ، ولكن ليس من البعيد الصعب على التذليل ان يراضوا بالتربية والمران حتي يعتادوا النظر الى الحياة بهذه العين . ويجمل بنا ان نفهم قيود الضرورة في هذه الحياة انما هي مسبار ما في النفوس من جوهر

(٨٦ ، ٨٧) مطالعات ص ٨ ، ٩ .

(٨٨) المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، وراجع كذلك خلاصة

اليومية ص ٣ ، ٤

الحرية الصحيحة ، كما ان القيود التي تثقل بها اعضاء البهلوان هي
مستبار مهارته وقدرته على الوثب (٨٩) .

ومن ناحية اخرى يرى العقاد ان الوسيلة الى فهم الحرية الصحيحة
هي الفن الجميل ، الملكة التي يدرك بها الفن الجميل ، ويضرب مثلا لذلك
بيت الشعر وتصرف الشاعر فيه ، اذ انه مثل حق لما ينبغي أن تكون عليه
الحياة بين قوانين الضرورة وحرية الجمال . فهي قيود شتى من وزن وقافية
واطراد وانسجام . غير ان الشاعر يعرب عن طلاقة نفس لا حد لها حين
يخطر بين كل هذه السدود خطرة اللعب ، ويظفر من فوقها طفرة النشاط .
ويطير بالخيال في عالم لا قائمة فيه للعقبات والعراقيل (٩٠) .

على ان العقاد يوضح هذه الفكرة اكثر فيذهب الى ان فكرة الجمال
في الحياة هي بعينها فكرة الجمال في الفنون ، فلا فن بغير تطلع ، ولا تطلع
بغير حرية ، ولكن ينبغي أن نذكر أن الحرية تستلزم المنع ، وان
الجمال هو غلبة الحرية على القيود ، او هو ظهور الحرية بين الضرورات ،
وليس هو بالحرية الفوضى التي لا يمازجها نظام ، ولا يحيط بها قانون ،
فلا عجب أن يمثل « الفن » قيود الجمال وانظمتها ، كما يمثل حريته
وانطلاقه ، وان نرى الفن حافلا بالاوزان والاوزاع كما نراه حافلا بالتطلع
والرجاء (٩١) والفن بعد هو صورة مختصرة من جمال الحياة نرسمها لأنفسنا
لنتبعها بالامل والاحتذاء ، وماذا تصنع انت اذا اردت ان تختصر المعاني
والكلمات ؟ انك تأخذ منها صفاتها البارزة وخلصتها الجامعة ، وكذلك
يصنع الفن اذ يجمع لديه في وقت واحد نظاما اوضح من نظام الحياة ،
وحرية اطلق من حريتها ، أو يستخلص من جمال الحياة عنصريه البارزين
وهما النظام والرجاء .

ويرى العقاد كذلك ان الانسان اراد بالفن ان يتمم حرية الحياة ،

(٨٩) المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ وراجع كذلك خلاصة اليومية

ص ٣ ، ٤ .

(٩٠) - مراجعات ص ٦٦

(٩١) - مراجعات ص ٦٦ ، ٦٧ .

او يستدرك عجزها عن قهر ضرورتها التي تثقل عليها ، اذ قد خلق الفن للانسان اجنحة قبل ان يطير في الهواء ، وانشأ لنا في الشعر اجيالا من الابطال هزموا نواميس الكون واحكام القدر وجمع في جسم واحد من رشاقة الاعضاء وملاحة القسما ما تضمن به الحياة على الكثير من الاجسام ، وارسل احلامنا في سماوات من الغبطة والكمال لا تفتح لابناء الفناء ، فتمت به آمال الحياة ، واصبنا في عالمه حرية لا تصيها في عالم الحاجة والاضطرار (٩٢) .

ويخلص العقاد من هذا كله الى قوله : وصفوة القول ان الحرية المنظومة ، أو الحرية التي تظهر بين قيود الضرورات - هي سر الجمال في الفنون كما انها سر الجمال في الحياة . وان امنية الانسان القصوى التي يتطلع اليها من الحياة والفنون هي الحرية لا القوة ولا الغنى ولا السعادة نفسها . . . وقد يخطر لك ان تسأل من يطلب القوة لماذا انت تطلبها وما هي غايتك منها ؟ ولكنك لا تسأل من يطلب الحرية هذا السؤال لان كراهية الموانع غريزة مركبة في جميع النفوس ان لم نقل في جميع الاشياء (٩٣) .

على ان الفلاسفة السطحيين يعيرون على هذه النظرة الفنية الى الاشياء ، انها نظرة الى الظواهر ومن هنا يتساءل العقاد عن ماهية هذه الظواهر في هذا الوجود ، هل لهذا الوجود سطوح وأعماق ؟ وهل فيه « كينونة زائفة » و « كينونة صحيحة » ؟؟ أليس كل شيء فيه على مسافة واحدة من اعماقه أو من سطوحه ؟ فالجمال البادي على وجوه الاشياء كما يقولون هو جمال متصل بأسباب الابدية ، اتصال أصدق الحقائق ، وأخفى البواطن ، أو لعله - اذا انعمنا النظر وتأملنا مليا - هو صورة الحقائق الابدية الحسنی ، اذا كان لا بد لهذه الحقائق من صورة يتجلى فيها وجودها لمن يحس ويرى (٩٤) .

ويذهب العقاد الى ان هذه النظرة الفنية يقابلها النظرة العلمية

(٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤) مطالعات ، مقدمة ج ، د .

والفلسفية ، ويصفها بالنقص والانحراف في الفطرة ، لانهما يفترضان الخروج من الكون واعتزاله لرؤيته ورصد حقائقه ، ولن ترى الكون حق رؤيته وانت تحاول الخروج منه والانفصال عنه^(٩٥) . لانك لا تدرك حقيقة الكون الا وانت " بعضه " ، اي وانت متأثر به ، مؤثر فيه ، متصل بكل ما فيه من سر وجهر وسرور والم ، انما تدرك حقيقة الكون المقدر لك وهو جسم حي يعاطفك وتعاطفه ، وتعطيه وتأخذ منه ، ولن تدركها البتة وهو جثة ميتة على مائدة التشريح تعمل فيها المبضع وتهيشها للدفن في التراب^(٩٦) . ويستدل العقاد على خطأ هاتين النظرتين المجردتين ، وذلك بتشبيهه الحياة بامرأة يتوسمها الرجال ، فأبي الرجلين اصدق نظرا اليها ، واجود فطرة ، وأبين عن حقيقة وصواب : الذي تعجبه وتحركه وتكشف له عن محاسن مرغوبة ومباهج مـرموقة ، ويستهويه منها ما يستهوي الرجل من المرأة ، أو الذي ينظر اليها فيراها جسما من اللحم والدم والعظام ، ثم يمعن في التجرد من الهوى فيراها جرما من المواد العضوية التي يوجد مثلها في نبت الارض وفي اخس ديدانها^(٩٧) .

ثم يذهب في الاستدلال الى تشبيهها مرة اخرى بصورة عبقرى مبتدع في فنه ، ويتساءل في هذا الشأن : هل نحن مصيبون حين نقدها ونقدرها فاذا هي أصباغ وألياف لا تختلف عن الاصباغ التي في القناني والعلب ولا تتمايز عن الألياف التي في عروق الشجر وعيدان الخشب ، أو تكون ادنى الى الصواب حين نرى فيها اقدار مبدعها ، ونلمح في الصورة خلجات نفسه وخواطر قريحته وجمال معناه وما يرمز اليه^(٩٨) .

ثم يعقب على تلك النظرتين بما يوحي ان لكل وجهة يتجه اليها ، ولكن النظر الاول اجدر بالحي واخلق بالكائن الموجود ، اما النظر الاخر فليس في الحقيقة نظرا ، لان النظر يقتضى التمييز والتباين ، ولا تمييز

(٩٥) نفس المصدر السابق .

(٩٦) ، مطالعات ص المقدمة د

(٩٧ ، ٩٨) ، نفس المصدر ص ٧١

ولا تباين حين يذهب الناقدون هذا المذهب ، ويسترسلون في رد الانسيه الى ما يسمونه حقائق لها واصولا ، فانما هم منتهون في آخر الامر الى حالة يستوى فيها الاعمى والبصير والحي والميت ، اذ هم رادون الحياة كنهها لا محالة الى ذرات متشابهة ثم الى عماء لا نهاية له ، ثم الى ماذا ؟ ثم الى وجود كعدم ، وشيء لا كشيء وكون لا كون فيه بغير حد ولا فاصل يجسر عنه نظر البصير ولا يفقد منه العمى شيئا^(٩٩) .

ويستدل على صدق النظرة الفنية بضلالات الحياة وابطيلها ، اذ انه يرى انها احق واصدق وارسخ في قرار الاشياء ، لانه لا شك في أن سراب الحياة اصدق من بحرها ، ووعدا اوثق من حاصلها ، واملها اقرب الى الحس من وجودها ، بل انه يذهب الى ابعد من ذلك ، حينما يذهب الى انه ليس هناك سراب على التحقيق في الحياة ، ولا يمكن ان تخضع الحياة على هداها ، والا فآين ترى يكون السراب لو انه كان ! ففي خارج الحياة لا يكون لنا سراب ، وفي داخلها لا يكون السراب سرايا ، وانما هو ماء ترتوي منه العطاش ، وتنظفي به وقدة القيط ، ونتفع به ونزرع على شاطئه فنجني أحسن الثمر وأجمل الازهار^(١٠٠) .

ويوضح العقاد نظرتة الى الكون اكثر حينما يتحد مع الكون ولا يفصل عنه حينما يقول : « وخليق بمن يرتاب في صدق ما نقول أن يذكر الامل فيذكر أي سراب هو في نظر الحس القريب والعقل الكليل ، ثم عليه أن يذكر بعد ذلك أي بحر هو للظالمين الضارين في مفاوز الحياة ، الخابطين في مجاهلها الذين يملثون مزادهم وهم يحسبونها موكاة خاوية ، خاوية ، ويشربون ملء نفوسهم ، وهم يتخلونها ملتاحة صادية ، وليقل لنفسه كيف يكون البحر ان لم يكن هذا السراب الخادع بحرا متلاطم الامواج بعيد القاع محييا للنفوس مميئا لها كما يحيي كل بحر ويميت^(١٠١) » .

(٩٩) نفس المصدر .

(١٠٠) - مطالعات ص ٧١

(١٠١) - مطالعات ص ٧١

ويذهب العقاد في نظريته الى الكون الى ابعد من ذلك ، حيث يتحد مع الكون وينظر اليه من باطن ذاته ، ذلك انه ينظر الى مظاهر الكون نظرة تدل على ان وجودنا مظهر نشاط عام ، وليس نشاطنا سوى جزء من الكون ، وانه لا شيء نافر في مادة الكون التي هي مادة الحريسة الفنية ،

ومن ثم نرى العقاد يقودنا الى مفهوم الادب وعلاقته بالحياة بناء على نظريته الى الكون . فالادب في تصور العقاد ترجمان الحياة الصادق ، لانه كما يكون الادب تكون الحياة ، ان جدا فجد ، وان هزلا فهزل ، وذلك لانه يرى ان للادب طريقين في تعريفه . فمن هنا ادب تمليه بواعث التسلية وعلالات البطالة ، وتخطب به الاهواء العارضة وهو الادب الذي يحوي فيه ما توزع من الوان الادب السقيمة الغثة . ومن هنا ادب تمليه بواعث الحياة القوية ، وتخطب به الفطرة الانسانية عامة وهو الادب الصحيح العالى^(١٠٢) . ثم يحدثنا عن العلاقة بصراحة حينما يتساءل عن السبب الذي يدعونا لقراءة فنون الادب ان كنا لا نقرأها لنلهو ولا لنزجي بها ساعات الفراغ المضیعة ، ولماذا يقرأ المرء الآداب اذن ؟ ويرى انه يقرأها ليحيا وليوسع على نفسه من الحياة . وليست الحياة لهوا ولا تزجية فراغ^(١٠٣) .

ويتساءل مرة اخرى عن العلاقة بين الأدب والحياة وذلك حينما يذهب الى ان الحياة والادب شيان كلا نسيجهما من مادة واحدة ، فالحياة هي شعور تملأه في نفسك وتأمل آثاره في الكون وفي نفوس غيرك . والادب هو ذلك الشعور ممثلا في القالب الذي يلائمه من الكلام ، وما احتاج الناس من قبل الى من يثبت لهم ان الادب لا يكون بغير حياة ، ولكنهم يحسبون انهم بحاجة الى من يثبت لهم ان الحياة لا تكون بغير ادب ، مع ان الامرين بمنزلة واحدة من الحقيقة ، فانه لكل حياة أدبا ، ولكل أدب حياة ، ويستدل العقاد على ذلك بأن الحياة لا توجد بغير

(١٠٢ ، ١٠٣) المرجع السابق ص ٤ ، ٥ .

عطف ، والعطف يستدعي التعبير ، وهذا التعبير لا يستوي فيه التعبير الصادق الجميل ، والتعبير الكاذب الشائث ! ومن هنا فإن الحياة - من وجهة نظره - لا تكون بغير أدب يلائمها^(١٠٤) .

على انه يعلل اختلاف ضوابط الادب ، وتشعب مقاييسه ، لمن ذهبوا الى ان الادب لا حدود له كحدود العلم المقررة تميز في كل حالة من الحالات تمييزا قاطعا بين صحيحه وفاسده ، وبين جيده وورديته ، فقد تجتمع صفة الجودة والبلاغة لالف قصيدة في موضوع واحد ، ثم لا يكون بينها وبين التشابه شيء كثير ، بل قد يكون فيها تناقض محسوس في اشياء عدة .

يعلل اختلاف ضوابط الادب بأن مقاييس الادب من السعة بحيث تأذن لكثير من الاختلاف والتشعب ، ويرى في الوقت نفسه ان هذا الاختلاف هو مزيته لاعيها وفضلتها لا نقيصتها^(١٠٥) .

وهذا الاختلاف آت من الوجهة التي ينظر منها الاديب الى مظهر النشاط الانساني وابعاده وهو اختلاف في مادة الادب والتجارب ، ومعنى هذا انه آت من اتساع مجالها وتجدد حقائقها ومشابتها للحياة في انها نامية متحركة مضطربة متحولة ، فلا تثبت على وصف ولا تنحصر في حد^(١٠٦) .

ثم يعقد العقاد مقارنة بين ضوابط الادب ومقاييسه من حيث اختلافها ، وبين مقاييس العلم معللا سر ضبط وتقرير المقاييس الاخيرة بانها محصورة مجردة من اللحم والدم ، فاذا ما عرفت القضية الهندسية مرة فقد عرفت على حقيقتها الاخيرة المقيدة التي لا تتغير أبدا ، وأحطت بجميع جوانبها ، لان جوانبها قابلة لان يحاط بها^(١٠٧) .

اما الحقائق النفسية : فليست على هذا النمط لانها قد تتراعى لك في كل مرة بلون جديد وصورة متغيرة . ويضرب مثلا لذلك ليستدل به على

(١٠٤) مطالعات ص ٤ ، ٥

(١٠٥، ١٠٦، ١٠٧) مطالعات في الكتب والحياة ص ٧، ٦

صدق نظريته بفريزة الحب التي هي من الفرائز المركبة في كل نفس ، ولكن بينها تغييرا في القوى والدوافع والأغراض والاطوار والمعاني التي لا يسبر غورها ولا يستقصى آخر مداها ، لان الناس لا ينساوون في حبهم لاجبائهم ، والانسان الفرد لا يكون على حال سواء في حبه لجميع الاجباء ، وليس على حال سواء في حبه للمحبب الواحد في جميع الاوقات ، وليس هذا نهاية ما هنالك من اسباب الاختلاف الشاسع في تصوير غريزة الحب ، لان هنالك اختلاف الناس في اللغات واللهجات والاساليب وطرائق التفكير ، وهي اختلافات لا نهاية لتقلباتها وألوانها في القائلين والسامعين (١٠٨) .

ويتساءل العقاد قائلا : « ومن أين لحقيقة تلم بها وتتداولها كل هذه الادوار والغير أن تنحصر في وضع واحد كأوضاع القوالب المصنوعة والحقائق الآلية ؟ ذلك ما لا يكون ولا يحسن ان يكون ، فلا جرم تختلف مقاييس الأدب ، وتشعب مداخل حدودها ولا يعاب عليها هذا الاختلاف لانه آت من عنصر الحياة الذي فيها ، (١٠٩) .

ويبادر العقاد الى نفي شبهة ربما تخطر لاسنان ما ، فيفهم من اختلاف ضوابط الادب ان تصير الى فوضى بلا قانون رشيد ، ولا قسطاس مستقيم ، والا لكانت الحياة نفسها فوضى بلا قوانين ولا أصول ، وهي ليست كذلك كما يراها العقاد (١١٠) .

على انه يذهب الى ابعد من هذا حين يقرر ان في الاداب عنصرا أسمى من عنصر هذه الحياة الطبيعية المحدودة - فيها عنصر الخلود اندي لا يتاح للفرد في وجوده القصير - لان كل حياة تخلق على هذه الارض تؤتمن على قوتين عظيمتين احدهما تحفظها والاخرى تلو بها عن نفسها (١١١) .

(١٠٨) المرجع السابق ص ٧

(١٠٩) مطالعات في الكتب والحياة ص ٨

(١١٠ ، ١١١) مطالعات في الكتب والحياة ص ٨ .

وبعبارة اخرى احدهما مادية تمشى (مع الضرورة) وتخضع لها ،
والثانية روحية تتكبر على الضرورة وتنزع الى «الحرية» . ومناطق هذه
القوة الاخيرة في النفس هو الاشواق المجهولة وآمال الخيال اللذنية والمثل
العليا التي لا تظهر في شيء مما يعالجه الناس ظهورها في مبتكرات الاداب
والفنون . والاداب بهذا العنصر فيها تشرف وتسمو على تلك العلوم
والصناعات التي تقوم للضرورة الماية مقام الخدم المطبعة والعبيد المسخرة ،
اذ انه مازال في فطرة الناس ان يخجلوا من تحكّم الضرورة فيهم ولو
كانت شائعة بين جميع المخلوقات ويجاهدوا بما في طوقهم من قوة للتغلب
عليها والتباهي بالافلات من قيودها (١١٢) .

وفي مقام الاستشهاد على ما سبق يرى ان اكل الطعام عورة تستر
عند اقوام من اهل الفطرة ، وهرب الناس جميعها من الفقر ، وميلهم
الى مداراته والاستخفاف باحكامه ، وكراحتهم ان يفاجئوا في اثناء خضوعهم
لشهوة من الشهوات الاضطرارية المسلطة على المخلوقات عامة . كما
سبق ان بينا ذلك في موضع آخر .

ويستخلص من هذا كله بأن في الادب كل ما في الحياة من حاضر
ومغيب ، ومن فرائض وآمال ، ومن شعور بالضرورة في الطبيعة الى تطلع
لحرية المثل العليا ، وواجب على الذين يفهمون عظيمة الحياة من أبناء
هذا الجيل ان يحسنوا فهم هذه الحقيقة ليعلموا ان الامم التي تصلح
للحياة وللحرية لا يجوز في العقل أن يكون لها غير أدب واحد ، وهو
الادب الذي ينمي في النفس الشعور بالحياة والحرية (١١٣) .

وعلى ضوء ما سبق يبادر العقاد بالاجابة على من يتساءل بقوله :
وما بالناس نكر الهزل في الادب اذن ؟ ان كان في الادب كل ما في الحياة ،
ومع ان الهزل عارض من عوارض الحياة التي لا تفارقها .

يجيب العقاد بانه اراد ان يصحح النظرة الى الادب ، ولم يرد
سرد موضوعاته ولا المقارنة بينها ، وعلى هؤلاء المتسائلين ان يذكروا انهم

لا ينظرون الى الحياة نظرة هازلة لاشتمالها على الهزل في بعض الاحيان،
فكذلك يجب الا ينظروا الى الادب هذه النظرة لاشتماله على المهازل
والجلائل ، بل ان الاشتغال بالهزل غير الاشتغال بتمثيله ، فان في تمثيل
الهزل حظا وافرا من الجد ، كما ان في تصوير القبح حظا وافرا
من الجمال^(١١٤) .

وينضح مما سبق أن العقاد لا ينظر الى الأدب نظرة نفعية ، أو على
انه وسيلة من وسائل التلهي وتزجية الفراغ ، لان هذه النظرة لا تأتي
الا لمن ينظر الى الحياة نظرة ضيقة ، في الوقت الذي ينظر اليها العقاد
نظرة ارحب واشمل من تلك النظرة التي تنتهي بالنفع أو التسلية . ومن
هنا نراه ينعي على من يعرفون الادب بانه ظاهرة اجتماعية ، او ظاهرة
اقتصادية ، او ظاهرة بيولوجية ، او غير ذلك من الظواهر المختلفة ،
ينعي عليهم بقوله :

” ولك ان تقول عن ظاهرة من هذه الظواهر او عنها جميعها :
حسن ثم ماذا ؟ فلا يسع صاحب التعريف أن ينتهي بك الى باب مغلق
على نوع من انواع الادب ، ذلك ان الادب كالحياة ، فلا يستوعبه
مذهب ، ولا يستغرقه اسلوب ،^(١١٥) .

ونخلص من الحديث عن الاساس الثالث من فلسفته العامة ، وهو
نظرة الفنية الى الكون والحياة ، والى تبيان الاساس الذي يعتمد عليه الادب
لدى عباس العقاد ، وهو الصدق ، لا النفعية ولا المادية ، لانه من العناء
الضائع في تعريف الادب على صورة من الصور الاعتراف بنوع من الادب
وانكار نوع آخر ، لانه مهما يقال في تعريف الادب على الف صورة :
مسألة اجتماعية تارة ، ومسألة اقتصادية تارة ، ومسألة حركية او
سكونية تارة أو تارات ، مهما يقال فيه ذلك ، فانه لن يمتنع بذلك عن
موضوع ، ولن ينقطع لموضوع ، ولن يكون ادبا ما لم يكن له نصيب من
شعور الانسان ، وبهذه المثابة يحدثنا الادب عن القطب الشمالي فيحدثنا

(١١٤ ، ١١٥) عباس العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ص ٩ .

عن قريب ، ويروي لنا خبر البطولة فيروي لنا خبرا يهز نفس الفقير
والغني والصغير والكبير ، ويذكر لنا الزهرية مثلا ، فلا يخول قائل حي :
دعها واذكر قدرة الفول المدمس ، ما دام انسانا يرجع الى الطبيعة ان لم
يرجع الى نفسه ، فيلمس منبت الفول وزهرته من تربة الحياة^(١١٦) .

(١١٦) عباس العقاد : افیون الشعوب ص ٩٢ وما بعدها ط
أولى سنة ١٩٥٦ .

الفصل الثامن

نهاية المطاف

١ - الرحيل :

أنا لله وأنا إليه راجعون غال الردي سيرة من السير

(ابن أثرومي)

وها نحن نقف وجها لوجه امام النهاية المحتومة المقدورة لجميع
الاحياء ، نقف مع الموت .. مع موت اعز الاعزاء واقرب الاقرباء الى
النفس والعقل والشعور .. مع موت الاستاذ والوالد .. مع موت
عباس العقاد . والموت في حقيقة امره لا صعوبة فيه ، لانه فوق انه
مقدور للاحياء فهو نتيجة طبيعية للاحياء جميعا ولولاه لما انتظم الكون ،
ولا تقدمت الانسانية نحو التمام والكمال المنشودين .. لان الكثير منا ليس
امتدادا شعوريا ولا فكريا لوالديه او لاساتذته . بل قد تكون الحياة
اقسى من الموت " وان قسوة الموت لرحمة في بعض الاحايين عن قسوة
الحياة ، فليست اوجع السهام مخبوءة لنا في جوف التسراب ، بل هي
مخبوءة لنا في رحب الهواء " على حد تعبير العقاد^(١) .

وعن طريق السلب فاننا نرى ان الدموع التي يذرفها المحزونون
على موتاهم ليست الا تعبيرا عن العاطفة والشعور فحسب ، لانه من منا
يرضى ان يعود اليه اجداده واجداد اجداده الى آخر ما يعرف من اجداده
الاعلون ، ان يعود اليه هؤلاء ليقسموا معه رغيته ، وليفسروا ما يعن له
من مشكلات حسبما يتفق وفكرهم وشعورهم لعصرهم أو عصورهم

(١) راجع الرسالة الصادرة في ٦ من نوفمبر سنة ١٩٤٤ العدد

التي عاشوا فيها ... لا يوجد من يرضى بهذا ، والا فأن مديري
" اليمارستانات ، لن يحفظوا بأحسن منه ، ولا يفرطون في مثله
إذا وجد .

ومن ثم فان موت استاذنا العقاد ليس بدعا ولا غرابة من القدر ،
ولا خرقا للناموس الطبيعي في الحياة والاحياء جميعا ، ذلك الناموس الذي
تسير عليه الانسانية في ماضيها الغابر ، والذي تسير وستسير عليه في
حاضرها ومستقبلها البعيد حتى تقوم الساعة ويرث الله الارض ومن عليها ،
يرجع كل منا الى الله بما تزود به في دنياه من اعمال استهدف بها وجه
الحق والخير والجمال .

لم يكن في تصورنا اذن ان العقاد بعد ان ذرفت سنه على السبعين
انه خالد مخلد في هذه الحياة الدنيا ، لان كل شيء في حياته الجسمية والنفسية
كان يؤذن بقرب الرحيل .

فمن حيث النفس رأينا في رثائه لصديقه شكري ، الذي كان نال
ثلاثة قامت على عاتقهم مدرسة الجيل الجديد ، كان يرثي نفسه لاحسامه
بقرب الرحيل ، اذ قال في مطلع القصيدة (٢) :

بعد ابراهيم شكري الهم اودى قرب الرحل لقد قاربت جدا
قرب الرحل ورحب بالنسوى النوى في العيش أن تسمى فردا
كنتما بعد شبابي عوضا وأراني زدت بعد الفقد فقدا

وعلى الرغم من صراحته في ميدان النقد ، الا أنه كان يجامل في
السنوات الاخيرة مما كان يوقعه في مخالفات لمبادئه النقدية التي قررها
قبل ذلك ، الامر الذي جعلني أرد عليه في أكثر من مجلة أذكره بهذه
المبادئ وأذكره كذلك بان المجاملة أو مخالفة المبادئ التي سبق
تقريرها ، أمران لا يتفقان ومنزلة العقاد الادبية .

وبالاضافة الى ما سبق ، فانه طلب في آخر ندوة له من بعض

(٢) راجع الاخبار الصادرة في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٥٨ .

الحاضرين أن يسمعه قصيدة « ليلة الوداع » ، وما ان أوشك القارىء أن يتممها حتى استأذن العقاد من الندوة وانصرف وهو يبكي بكاء مرا ، وكانت آخر ندوة تحقق فيها مضمون القصيدة ، اذ أصيب العقاد بأزمة المرض في نفس الليلة^(٣) .

أبعدا نرجى أم نرجى تلاقيا
إذا أنا أحمدت اللقاء فأنسى
ألا من لنا في كل يوم بفرقة
ليال يبيح الدل فيها زمامه
كلا البعد والقربى يهيج مايبا
لأحمد حيناً للفرقأ أياديا
تجدد ليالات الوداع كما هيا
ويرخص فيها الشوق ما كان غاليا
ويقول في نهايتها^(٤) :

فيا من يعيد الدهر من حيث بدا
إذا كان لي في مقبل العيش مدة
أعدلي ليالات بمصر خوالينا
فيا ليت يغدو مقبل الغيب ماضيا

وقد أكد قرب الرحيل في نفسه حالته الصحية بعد السبعين ، اذ كان قد ضعف بصره الى درجة أنه كان يكتب بالقلم « الباست » الكبير ، ليستطيع رؤية الكتابة حين القراءة .

وقد عرفنا فيما سبق أنه كان مصابا « بالقولون » وأن الرثة قد تحجر جزء منها ، فاننا لا بد أن نعرف بالضرورة أن هذه الامراض قد استفحلت ، ولا سيما أن الجسم قد ضعف عن مقاومتها ، اذ كان العقاد يقاوم آلام « القولون » منذ أصيب به من أربعين سنة ، وقد كان يصاب بتشنج في مصرانه الغليظ بين الحين والحين . وقد حدث له هذا التشنج عدة مرات : مرة يوم مقتل محمود فهمي النقراشي ومرة يوم ماتت أخته ، ومرة يوم مقتل غاندي والمرة الاخيرة في مرضه الاخير .

ويرجع الكثيرون أن سبب مرضه الاخير الى أنه رجع من أسوان غاضبا ولم يمض فيها المدة التي كان يقضيها في أسوان من كل شتاء ، وذكروا من أسباب غضبه أشياء وأشياء .

وأيا ما كان سبب الغضب ، فان الذي لا شك فيه أن العقاد رجع بعد

(٤،٣) عباس العقاد : ديوان العقاد ج ١ ص ٦١، ٦٣ .

ثلاثة أيام من سفره ، وهو مغيظ محقق ، وكان يخفي غضبه وحنقه نوعا ما من الاخفاء ، أخفاء مثلا على بعض تلاميذه ، وكاشف به من اصطحيوه عشرات من السنين .

وقد أقام لتلاميذه احدى وليمته السنويتين في آخر رمضان ، اذ كان يدعوهم الى الغداء في يوم شم النسيم على فسيخ يطهوه لهم بنفسه ويدعوهم على الفطار في رمضان بعد أن يرجع من أسوان . وفي هذه الوليمة ، جلس العقاد على عادته مع تلاميذه بعد الفطار زمنا طويلا لم يعهده التلاميذ منه ، وتحدث في كل ضروب المعرفة . .

وفي الثلث الاخير من ليلة الاثنين السابع عشر من فبراير من عام ١٩٦٤ فزعت استاذنا العقاد آلام مضية وقاتلة في « القولون » ، وطلب طبيا ليعطيه حقنة مسكنة ولاو لمرّة في حياته يطلب هذا الطلب ، الا أنه كان يتحاشى المسكنات ، بل انه كان يشمئز حينما يرى انسانا يتعاطاها حتى الاسبرين منها .

واذا عرفنا أنه قد أجريت له عملية في عام ١٩٥٦ في عينه بغير « بنج » أو أى مخدر آخر ، اذا عرفنا هذا أدركنا خطورة الآلام التي كان يعاني منها حينما طلب حقنة مسكنة ، وأدركنا أن الحقنة المسكنة لم تمنحه الراحة التي كان يبتغيها بتسكين الألم ، ولكن هيهات .

وطبيعي ازاء هذه الآلام أن تختل الدورة الدموية ، ولولا هبوط ضغط الدم ليلتها لفضى العقاد نجه في تلك الليلة الرهيبة أو أسفرت عن شلل . .

وبات العقاد يتلوى من الآلام التي أقسمت ألا تبرح أمعاءه ، وأن تسكنها حتى يقضى الله امرا كان مفعولا . .

وفي الصباح طلب العقاد أطباء متخصصين في الامعاء ، وجاءوا واحدا بعد الآخر ، وعرض عليهم حالته ، وراح يصف لهم في ذكاء وفهم شديدين كيف داهمه المرض منذ أربعين عاما ، وكيف كان يعالجه منذ ذلك الوقت ومنذ ثلاثين ، ومنذ عشرين عاما ، وكيفية علاجه له ، ثم أخبرهم أنه

قرأ كل شيء عن المصارين وعن المصران الغليظ بالذات ، وقد حرص
الاطباء على الكشف عليه ، وكان العقاد يقبل الكشف عليه ، وفي أغلب
الاحايين يرفض طلبتهم ، لانه يعرف سلفا ما سيقولونه بعد الكشف . ثم
أشار على الاطباء اجراء تحليل لدمه ، وأسفرت نتيجة التحليل عن وجود
نقص في الكريات الحمراء ، وما لبثت هذه الكريات الضائعة أن استعادها
بينهم (٦) .

وقد خشي الاطباء على العقاد من أن يكون مريضا بمرض آخر لم
يعرفه ولم يقرأ عنه ولم يستطع أن يشخصه . . . لقد خشوا على قلبه ،
ومن هنا طلبوا اليه ألا يرهق نفسه ، وألا يبرح الفراش . وقد خشي
لفيف آخر ممن يعالجونه أن يكون مصابا بالسرطان ، وتهامسوا فيما
بينهم (٧) .

وبينما كان العقاد يعالج نفسه ويشير عليهم بأنواع الادوية التي يجب
أن يستخدمها ، ويؤكد للاطباء مرضه ، ويوجههم الى ما ينبغي أن يكون
ازاء المرض ، بينما كان على هذه الحالة ، كان يعاني في الوقت نفسه من
شيء في القلب وهو ما خشي عليه الاطباء منه . . . كان يعاني من جلطة دموية
كان على يدها نهاية الفقيد (٧) .

وأشار الاطباء أنه لا بد من دخوله المستشفى لاجراء عملية جراحية
في المصران الغليظ ، وصح عزم العقاد على ذلك ، وتفاؤل من العملية معللا
هذا التفاؤل بأنه لن يتأثر بها ، لانه لا يشكو من مرض السكر ، وهو لا
يشكو من مرض القلب ، وهو ليس مصابا بأى مرض يحول دون اجراء
العملية ، أو يجعل اجراءها شيئا صعبا على الأقل .

صح عزم العقاد على اجراء العملية ، وعلى دخول المستشفى ، وان
كان سيدفع ثمنا لذلك من النظام الذي اعتاد عليه في حياته ، وربما كان

(٦،٥) راجع الاستاذ أنيس منصور في جريدة الاخبار بتاريخ
١٣-٣-١٩٦٤ .

(٧) راجع الاستاذ أنيس منصور في جريدة الاخبار بتاريخ
١٣-٣-١٩٦٤ .

هذا هو السبب الاساسي الذي جعله يهرب من المستشفيات على حد تعبير
الاستاذ أنيس منصور^(٨) .

وكان العقاد طيلة مرضه لا يفتأ يتحدث عن مرضه وعن علاقة
المصران الغليظ بالتفكير ، وكيف يصاب به جميع المفكرين ، حتى وصفه
الدكتور جمال الدين بحيري بأنه نصف طيب ، لانه يفهم في التشريح ،
وقرأ كل شيء عن الدوستاريا^(٩) .

وما ان نشرت الصحف أنباء مرض العقاد حتى هرع العلماء والادباء
والوزراء يستفسرون عن صحته ، ويرفعون أكف الضراعة الى الله أن
يزيل عنه ما به ، وفي مقدمة هؤلاء وهؤلاء الاستاذ أحمد الشرباصي عضو
مجلس الرياسة آنذاك والدكتور عبدالعزيز السيد وزير التعليم العالي ،
كما أبرق الى العقاد الاستاذ كمال الدين حسين نائب رئيس الجمهورية
آنذاك ، وغيرهم ممن كانوا يزورونه بصفتهم الشخصية ويتركون له بطاقة
رقية تعبر عن مدى استيائهم لمرضه ، وتمنياتهم له بالشفاء .

وفي هذه الاثناء كتب الاستاذ احمد بهالدين رئيس تحرير أخبار
اليوم كلمة في يوميات الاخبار بمناسبة مرض العقاد يقول :

فوجئنا هذا الاسبوع بمرض الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد .
فوجئنا . . رغم أن الاستاذ قد تجاوز الرابعة والسبعين من العمر ، لان
العقاد أعطى الناس من نفسه صورة (اسبرطية) : صورة الرجل الذي
يمارس حياته في نظام دقيق ولا يشكو قط من المرض الخطير أو البسيط .
وليست له أي متع تذكر خارج متعة العمل المتصل . وتذكرت ، وأنا
أقرأ عن هذا المرض الذي قد يطول ، أن العقاد هو الكاتب الوحيد بين
كل كتابنا وأدبائنا الكبار الذي لم يتول قط أي منصب حكومي أو نقابي
أو صحفي ، ولكنه عاش طول عمره يكسب حياته من شيء واحد فقط .

(٨) راجع الاستاذ أنيس منصور في جريدة الاخبار بتاريخ
١٣-٣-١٩٦٤ .

(٩) المرجع السابق للاستاذ جليل البنداري بتاريخ ٢١ من فبراير
سنة ١٩٦٤ .

هو الكتابة والتأليف (١٠) .

وأنا لم أر الأستاذ العقاد مرة واحدة في حياتي ، وبالتالي فأنني لا أعرف أي شيء قط عن حياته الشخصية غير ما أقرأ في الصحف .
وأغلب الظن أن طبيعته الخاصة ذات الكبرياء العنيد تأبى تماما أن ينشر مثل هذا الحديث عن المرتب والمعاش والتكريم . يضاف الى هذا كله أنني كنت دائما من بين الذين يقفون في الطرف المناقض له سياسيا وفكريا وثقافيا ، ولكن هذا لا يحول دون إبراز هذه الحقيقة وهي : أنه من المستحيل أن يشعر مجتمعنا ، وأن تشعر الدولة التي تعبر عنه ، انها قد أدت واجبها نحو علم من أبرز اعلامها الفكرية والثقافية اذا كانت تتركه في سن الراحة المتصلة والتأمل الطويل والعمل القليل ، دون مرتب ثابت يكفل له كل هذا (١١) . لقد كان العقاد علامة كبرى من علامات ثورتنا الثقافية في النصف الاول من هذا القرن . علامة كبرى من علامات هذا الشعب الذي يحاول أن يرتفع بنفسه فوق كل الصعوبات ليتعلم ويتشقف ويصبح ندا وشريكا في حركة التنوير العالمية ، وقد ظل العقاد على الدوام نقطة من نقط النشاط الخصب والصراع الحي في حياتنا الثقافية ، فكان وما يزال شاغلا أحدث الكتاب عمرا بمناقشة آرائه وافكاره والوقوف منها موقف التأييد أو المعارضة الحادة . ومن واجب الدولة في مجتمع اشتراكي بالذات ، يشعر بمسئولية عن أبنائه بقدر ما أسدوا اليه ، من واجب الدولة أن تقرر له هذا الدخل الثابت . . . واذا كان في هذا العمل شيء من القيمة المادية بالنسبة للعقاد ، فان فيه بالتأكيد الشيء الكثير من القيمة المعنوية ، للعقاد ، ولكل الكتاب والادباء والفنانين ، وللأمة بأسرها (١٢) .

وقد أبى المرحوم الدكتور محمد مندور الا أن يزور العقاد ، على

(١٠) راجع صحيفة الاخبار الصادرة في ٢٤ من فبراير سنة ١٩٦٤ ،

تحت عنوان « العقاد والمرض » للاستاذ أحمد بهاء الدين .

(١٢،١١) راجع صحيفة الاخبار الصادر في ٢٤ من فبراير ١٩٦٤ ،

تحت عنوان « العقاد والمرض » للاستاذ أحمد بهاء الدين .

الرغم من أن العقاد كان قد هاجمه منذ وقت غير بعيد ، ولكن صفاء مندور
وانسانيته أبت عليه أن يمرض العقاد ولا يزوره ، واصطحب معه الدكتور
هلال وكاتب هذه السطور ، وحاول أن يشتري له كروانا ليقدمه لصاحب
ديوان هدية الكروان فلم يجد ، وحيث اكتفيا هو والدكتور هلال بتقديم
طاقات من الورد عليها بطاقة كل منهما . . كما زاره الدكتور كامل حسين
الذي اعترك معه العقاد وقسا عليه في معركته ، وعلى الرغم من ذلك كان
أول من زاره ، وتمنى له الشفاء العاجل . وذلك على الرغم من أن
بعض من اعترك معهم العقاد ممن يزعمون الحفاظ على الاسلام ويتزيون
بزي المشايخ لم يعد العقاد في مرضه ، ولكنها النفوس المترعة بالحق
والانانية .

وتوافد على بيت العقاد تلاميذه في مصر وجميع الاقاليم العربية وغدوا
لا يبرحون البيت ، لان العقاد والد ، ووالد كريم ، واستاذ علمهم كيف
يقرأون ، وكيف يفكرون ، وكيف يكتبون .

وأذكر أنني حينما علمت نبأ مرضه وأنا أقضي اجازة العيد في
الاسكندرية غادرتها على عجل ، وتوجهت الى بيت العقاد ، واذن لي في
الدخول عليه ، وكان في ذلك الوقت يرفض أن يدخل عليه أحد ،
فوجدت عنده الاستاذ احمد الشريف ابن خاله وأخذ يحدثه في شأن
المرض وأشياء أخرى ، ولاحظ الفقيد أنني جلست ساعتين لم أنبس فيهما
بكلمة على غير عادتي وعيني تنظران اليه في اشفاق ، فراح يطمئنني على
مرضه .

وفي ذلك الوقت حدثنا الاستاذ أنيس منصور أن الاستاذ مصطفى
أمين عرض عليه أن يفتح العقاد في أن تتولى الاخبار علاجه وأن يتقبل
مبلغ مائتي جنيه بصورة مبدئية وحينما فاتح العقاد في ذلك ، رفض العقاد ،
أن يقبل هذا المبلغ دون عمل يعمله .

وحينما أخبر الاستاذ أنيس الاستاذ مصطفى امين بما حدث ذهابا
اليه ومعهما الاستاذان على أمين ، وعادوا العقاد ، فشكر لهم هذا الشعور ،

وقال من يدري هل سيصرف هذا المبلغ أم غيره •
وحدثنا الاستاذ طاهر الجيلاوي أن العقاد رفض من صديق له مبلغ
٨٠٠ جنيه بعد شكره لما ابداه الصديق من وفاء ، وتعلل في رفض المبلغ
بما ابداه لرؤساء تحرير الاخبار •

وحدثنا الاستاذ الجيلاوي ايضا ان الدكتور حاتم استدعاه وقال له
بعد ان سأله عن صحة العقاد ، ان الدولة قد خصصت له مبلغ ألف جنيه
للاتفاق على علاجه ، وانها قررت في الوقت نفسه أن تنقله الى المستشفى
لان صحة العقاد ليست ملكا له وانما هي ملك للشعب ، ولهذا فانها
تطلب اليه أن ينزل على نصيحة الاطباء ، وأنه يرغب في أن يزور العقاد
في بيته في مساء اليوم (الاربعاء) • وان الدولة قررت في الوقت
نفسه شراء جميع مؤلفات العقاد • ثم حدث أن مرض وزير الثقافة ولم
يخرج من بيته في مساء ذلك اليوم ، وقرر تأجيل الرسالة للعقاد الى مساء
اليوم التالي (الخميس) •

وقبل أن يتم تبليغ الرسالة ، وقبل أن يزوره الدكتور حاتم في بيته
كانت المنية أسرع من التحقيق ، وأسلم العقاد الروح الى بارئها راضية
مرضية •

وكانت صحة العقاد قد تحسنت في صبيحة الاربعاء الموافق ١١ من
مارس ، وعاده في المساء الدكتور ناجي المحلاوي والدكتور محمد عطية ،
ثم جلس مع أقاربه يتحدث عن المرض وعن عجز الطب الحديث عن
اكتشاف أبسط أنواع الجراثيم ، ثم سأل عن موعد قدوم الكتب التي طلبها
من انجلترا فقبل له انها ستجىء بعد أسبوع ، ثم تمدد على الفراش وقال
اتركوني أنام ، فانا أشعر الآن بتحسن في صحتي ، ومضت دقائق قليلة
بعد أن انصرف أقاربه واحدا بعد الآخر ، حتى سمعوا حشجة من فمه أسرع
اليه عبدالعزيز الشريف قريبه فوجده يتقلب فوق سريره بعصية وفلق
ويتلوى من المرض الذي يعانيه • وطلب منه أن ينادي له على شقيقه أحمد
العقاد ، وقبل ان يرجع اليه الرسول بأحمد سمعوا صوت سقوط جسم

الفقيد على الارض وأسرع اليه كل من بالمنزل فوجدوه ملقى فوق الارض ، ونبضات قلبه ضعيفة جدا^(١٣) .

واستدعوا له على الفور الدكتور يس عليان فوصل مسرعا ، ولكن الاجل المحتوم كان أسرع من منح البصر والدكتور عليان على سواء .
وقطعت الاذاعة والتلفزيون اذاعتها ، لينديعا على العالم نبأ وفاة الاديب والمفكر العربي ، كما نشرت جميع الصحف الصباحية - على الرغم من أن الوفاة حدثت في الثانية صباحا - هذا النبأ .
وما أن أذيع هذا النبأ المشؤم حتى توافد الى بيت العقاد تلاميذه وكان في مقدمة من وصل الاستاذ محمد خليفة التونسي الذي وصل بعد الوفاة بحوالي نصف ساعة .

وقد مات العقاد وهو يفكر في الحياة ، اذ كانت الساعات الاخيرة في حياته لم تكن ساعات يأس ، بل كان يأمل في الشفاء ويرجو الحياة ، وكان يمر في يومه الاخير بصحوة تامة ، لعلها كانت صحوة الموت .
ومات العقاد قبل أن يلقي المحاضرة التي كان في نيته أن يلقيها عن الاشتقاق في اللغة وعن موسيقية الافعال ، وقد القى جانبا من هذه المحاضرة ، فآرن بين اللغة العربية وبين اللغات الاوروبية والمهجات السامية ، وكان العقاد لا يتوقف عن الكلام الا لكي يضع يده على بطنه ، والا لكي يعتدل في جلسته ، رغم أن اطباء نصحوه بعدم ارهاق نفسه جسما ، وكان العقاد يقول : انه اذا لم يفكر ، فانه يحس انه سيقع من طوله ، فالتفكير هو المجهود الوحيد الذي يقيه من السقوط ، تماما كالارض ، لانها تدور فهي لا تقع^(١٤) .

ومات العقاد وعلى مكتبه طائفة من الكتب تنتظره ، منها ثلاثة كتب عن الادب « التشيكي » ، وأربعة كتب عن « فضيحة كريستين كيلر » ، وكتاب للرافعي ، وكتاب عن « الاسكندر الاكبر » ، وكتاب عن الصوارينغ

(١٣) راجع الاخبار الصادرة في ١٢ مارس سنة ١٩٦٤ .

(١٤) راجع الاخبار الصادرة في ١٣-٣-١٩٦٤ « ركن الادب »

لانيس منصور *

المتعددة المراحل ، وكتاب عن الحشرات الموسيقية ، وكتاب عن النقد
الادبي في القرن الثامن عشر ، وكتاب عن علم الجمال ، وكتاب عن
« آرثر ميللر » ، وكتاب عن آخر معرض للرسام « بيكاسو » (١٥) .
ومات العقاد قبل أن يتم مشاريعه التي كان يأمل في تحقيقها . ومن
هذه المشاريع تفسير القرآن ، بأن يضع له منهجا جديدا في كتاب واحد
يستغرق ألف صفحة ، وبعد ذلك يتبعه بعشر مجلدات عن التفاسير
المختلفة .

ومن هذه المشاريع أيضا وضع كتاب عن الامام أبو حامد الغزالي
وكتاب عن فن القراءة . كانت هذه مشاريعه ، وتحتاج تحقيقها الى
سنوات ، ولكن المنية لم تمهله ثوان معدودات . . .
وفي صباح الخميس كان بيت العقاد يتلقى العزاء الى أن يحين موعد
الجنائز الرسمية ، وكان في مقدمة المعزين السيد كمال الدين حسين الذي
مكث مدة طويلة حتى أوشك موعد قيام الجنائز أن يحين . . . وفي ذلك
الوقت كان تلاميذ العقاد ومحبو أدبه وفكره ينتحبون نحيا يوشك أن
يودى بعضهم . كأنهم يعتقدون أن الموت غير جائز على استاذهم ، ومن
هنا انطلقت حناجرهم وتعال صيحاتهم تبدد الوجوم الذي أحاط البيت
بله الشارع الذي يقطن فيه العقاد . . .

ودنا موعد الجنائز وبدأت من ميدان التحرير ، وسار في جنازة
عملاق الادب العربي من الرسميين حكمدار القاهرة نائبا عن رئيس
الجمهورية ، ثم أعضاء مجلس الرياسة والوزراء الحاليون والسابقون ،
والسفراء العرب ورؤساء البعثات التعليمية بالقاهرة وقد شيعه كذلك الادباء
والفنانون واصدقاؤه القدماء وتلامذته من الشبان ، واكثر هؤلاء جميعا
لا يعرفون بعضهم البعض ، ولكنهم جميعا تلامذة في مدرسة عملاق الفكر
العربي ، التي استغرقت ما يربى على خمسين عاما ونحو تسعين كتابا عدا
شعره الذي يربى على عشرة دواوين ألفها العقاد جميعا بالعرق والتعب ،
(١٥) نفس المصدر السابق .

والهدوء حيناً وانفعال في أغلب الاحياء ، وبالجد والاخلاص النادرين
لدى أغلب كتابنا المعاصرين (١٦) .

وقد سار في جنازته كذلك خصومه في الرأي والمعتقدات السياسية
كما كانوا يترددون على بيته متمنين له الشفاء ، ومع هذا الاختلاف فانهم
قد أصابتهم الدهشة التي عقدت ألسنتهم ، فساروا في صمت كئيب ووجوم
مستبد ، على هذا الرجل الذي كان يملأ حياة الادباء فيقبلون آراءه أو
يختلفون عليها ، ولكنه يمثل ظاهرة كان لا بد منها لتعميق مفاهيم كل
فريق من الكتاب بالاختلاف قبل الاتفاق على آرائه ومعتقداته . ومن ثم
كان معارضوه يحترمونه ويحترمون علمه وروحه المخلصة في البحث
والدراسة (١٧) .

واتجهت الجنازة في شارع سليمان فعبداخالق ثروت فالمرکز العام
لجمعيات الشبان المسلمين . . . وكان أغلب المشيعين من جموع الشعب
الذين يسرون في موكب الفقيد الراحل وهو يزف في طريقه الى دار
البقاء ، وضربت الكنائس التي مرت عليها الجنازة أجراسها تحية للفقيد
الراحل الذي أبي أن يظل في دار الفناء بعد اليوم ، وكان تلاميذه يحملون
النفس طوال الجنازة .

وعند المركز العام للشباب المسلمين وقف تلاميذه المنتحبون تساقط
الدموع من أعينهم غزارا يتقبلون العزاء هم وأسرته ، ليتوجه الجثمان
بعد ذلك الى أسوان ، ليوارى التراب في مثواه الاخير .

ورافق تلاميذه الجثمان حتى محطة السكة الحديد ، ولكنهم
أصيبوا بهلع شديد على هلعهم ، وتفززوا وتفززوا من رؤية جثمان الفقيد
وهو يأخذ طريقه الى عربة السكة الحديد ، وهنا أغلقوا عقولهم باب
له رتاج محكم ، وحاولوا أن يستبقوا الجثمان ، وتساقطوا عليه وهم
يصيحون لان الفقيد لن يرجع ولن يعود . . . وبقوة وعنف من حرس

(١٧،١٦) انظر ما كتبه أنيس منصور عن تسميع الجنازة في الاخبار

الصادرة في ١٣-٣-١٩٦٤ .

والمسؤولين فيها حاولوا انقاذ التابوت من أيديهم كأنها معركة حامية
الوطيس ، وتأهب القطار للسير ومعه عدد غفير من تلاميذ العقاد ليزفونه
الى متواه في أسوان التي استقبلت مولده وعليها درج الفتى طفلا فشابا
فيافا . وأقيم في ليلة الجمعة سرادق كبير على نفقة وزارة الثقافة ليتلقى
وزير الثقافة ومعه أبناء العقاد الفكريون العزاء .

وفي صباح الجمعة أخذت جموع الشعب الاسواني تتوافد على محطة
أسوان في صبيحة ١٣ من مارس في انتظار الجثمان ، وفي الساعة الواحدة
الاربعاء وصل القطار الذي يحمل جثمان العقاد ، وقد وضع النعش الذي
يضم رفات الفقيد على عربة خاصة تابعة لمديرية أمن أسوان ، وكانت على
العربة مئات من باقات الورد وعلم الجمهورية العربية المتحدة .

وبدأ الجثمان يمر من المحطة الى شارع النيل حتى مسجد المنصور
الذي يبعد عن بيت العقاد بمائة متر فقط ، وكان في استقبال الجثمان
عباس رضوان وزير الادارة المحلية نائبا عن الرئيس ، ومحمد صدقي
سليمان ، وزير السد العالي ، وعزت سلامة محافظ أسوان ، ومدير
أمن أسوان ، وكبار المسؤولين في المحافظة ، وجماهير الشعب الغفيرة في
أسوان تتزاحم وتتدافع بالمناكب لتودع ابنها البار بأسوان وبأهلها .

وقد بدأت الصلاة على الجثمان في الساعة الواحدة ، وبعدها بدأ
الموكب الرسمي من مسجد المنصور عن طريق شارع النيل فميدان شارع
الخزان حيث تقع مقبرة الشيخ محمود أحد كبار العلماء الاسوانيين ، كما
تقع المقبرة بجوار محطة الاذاعة .

وبعد أن ووري الجثمان في التراب ، وقف الاستاذ محمد خليفة
التونسي على مقبرة العقاد ، وألقى كلمة نارية ، أبكت جموع الشعب
الحافلة وختمها برثاء العقاد لنفسه^(١٨) :

إذا شيعوني يوم تُقضى مني

وقالوا أراح الله ذاك المذبذباً

(١٨) عباس العقاد : ديوان العقاد ج ١ ص ٥٥ .

فلا تحملوني صامتين الى الثرى
فانني أخاف' اللحد أن يتهيبا
وغنوا فان الموت كأس' شهية'
فلا زال يحلو أن يغنى ويشربا
وما النعش الا المهد مهد بني الردى
فلا تحزنوا فيه الوليد المغيبا
ولا تذكروني بالبكاء وانما
أعيدوا على سمعي القصيد فأطربا

وودع المشيعون من تلاميذ العقاد وغيرهم مقبرته التي تكفلت بنائها
الدولة ، ولم تبني الى الان ، وقفوا راجعين الى القاهرة بعد أن ودعوا
أبا حانيا ، ومفكرا فذا ، وشاعرا مبدعا وعالما كبيرا . بعد أن ودعوا
العقاد الذي لم يتعرض يوما من الايام لموضوع في الادب والفن والحيوان
والنبات والموسيقى والفضاء دون أن يرجع الى عشرات الكتب ، « ولم
يحدث أن ادعى العقاد أنه قرأ كتابا لم يكن يعرفه معرفة كاملة ، ولا
يوجد مفكر في العالم لم يقرأ عن العقاد . ولم توجد شخصية في
السياسة وفي العلوم لم يقرأ عنها العقاد . وأكثر المواد والموضوعات التي
قرأها العقاد لم يكتب عنها حرفا . . ولكنه في كل ما يقرأ كان مفكرا ،
وفي كل ما يكتب كان مبدعا ، (١٩) .

* * *

٢ - أقوال الكتاب فيه :

وكانت في حياتك لي عظمات وأنت اليوم أوعظ منك حيا
وقد نعت الى العالم نبأ وفاة العقاد اذاعته وصحفه في البلاذ العربية
والاسلامية والاوربية على سواء ، وكلها قد اتفقت على صيغة واحدة
تقريبا تؤكد فيها أن مصر والعالم العربي والاسلامي قد منوا بفقد كاتب

«١٩» راجع مع العقاد لانيس منصور في الاخبار الصادرة في
١٣-٣-١٩٦٤ .

يعتبر من ألمع المفكرين العرب المحدثين ، كما كان أغزر المفكرين العرب ،
لان مؤلفاته تربي على التسعين كتابا عدا شعره الذي يزيد على عشر
دواوين •

وبالإضافة الى ذلك أقامت له جامعاتنا العربية والاسلامية والجمعيات
الادبية والثقافية ، والجامعات الاوروبية - كجامعة كولون بالمانيا ، وجامعة
لندن وغيرهما - حفلات تأبين قوم فيها الدارسون انتاج العقاد الفكري
والادبي تقويما لا يداخله ريب ولا زيف ، واحله اولئك الدارسون المكان
اللائق به من الفكر العربي والعالمي •

على ان الكتاب العرب ما ان انتهوا من تشييع جنازة العقاد حتى
رجعوا الى صحفهم يكتبون عن العقاد كلمات يودعون فيها ذلك الراحل
الكريم ، وتناول آخرون أعماله بالدراسة والتقويم •

ولم تقتصر كلمات التوديع او التقويم على محبيه وعارفي فضله على
الثقافة والمثقفين ، والادب والادباء بل شملت المناقضين لآرائه سياسيا
وفكريا ، والمناوئين له في حياته ، لان الفجعة في موت العقاد لم يخضع
بها أناس دون اناس ، ولا قوم دون قوم •

ويرى الدارس ان التقديمين من الكتاب قد برهنوا بكلماتهم عن
العقاد على نبل في نفوسهم ، وعلى نوازع انسانية لا يتمتع بها كثير ممن
كانوا يجلسون في جلسة العقاد - الرسمية وغيرها - جلسة المؤمن على
ما يقول العقاد ، لانه يتخذ من العقاد سندا يخفى به ضعفه ونوازعه
الشريرة تجاه التقديمين •

وها نحن نثبت طائفة من كلمات هؤلاء ليقف القارىء على مدى
الخسارة التي اصابت الفكر العربي بموت عباس محمود العقاد ، كما
توحي بذلك كلماتهم ••

طه حسين (٢٠) :

وكذلك فارقتنا أيها الأخ الكريم والصديق الحميم والزميل العزيز ،
فارقتنا فجأة على غير آذان لنا بهذا الفراق ، وعلى غير انتظار من عوادك
وأطبائك ومن اهلك الاقربين الذين كانوا يحيطون بعنايتهم ورعايتهم
والذين كنا نسألهم عنك فلا نسمع منهم الا خيرا اى خيرا .
ولكنني أصبح فاذا النبأ يفجؤني فيقع على موقع الصاعقة ، واقسم لقد
ذهلت ذهولا افقدني الشعور بمن حولي وما حولي ، أو كاد يفقدني هذا
الشعور ، ولقد احتجت الى وقت غير قصير وعناية متصلة لانوب الى نفسى
أو لتثوب نفسى الي ، ولقد لبثت ساعات لا اصدق هذا النبأ ولا اطمنن
اليه حتى بعد رؤيته في كل صباح .

ايه ايها الاخ الكريم ان موتك لم يفجع اسرتك وحدها ولا وطنك
وحده ، وانما فجع العالم العربي كله ، فقد كنت علما من اعلام العروبة
الشاهقة ونجما من نجومها المشرقة ، ملامت الدنيا أدبا وحكمة وفلسفة
علما .

تألق نورك بين مواطنيك منذ شبابك الاول وما هي الا ان تجاوز
وطنك واشرق على العالم العربي كله ، ثم لم يلبث ان تجاوزه الى
الى المعنيين بشئون الادب العربي في جميع اقطار الارض حتى كأن الشاعر
العربي القديم انما رثاك بقوله :

وما كان قيس هللكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما
في ذمة الله ايها الاخ الكريم لقد فارقتنا على غير وداع واختطفك
الموت من بيننا فجأة كأنه اختلسك منا اختلاسا ، ولكن أمالك تموت
حق على الاحياء جميعا ، ولكن ذكرهم لا يموت لانهم فرضوا انفسهم
على الزمان وعلى الناس فرضا . وسيوارى شخصك الكريم في اطباق
الثرى ولكن القبر الذي سيحتوى شخصك لن يستأثر بك ، فلك في

(٢٠) الجمهورية الصادرة في ١٣ من مارس سنة ١٩٦٤ .

قلوب الذين يحبونك والذين ينتفعون بادبك وعلمك ذكر لن يموت
الا بموتهم ولكنهم لن يستأثروا بذكرك وانما ستشاركهم فيك الاجيال التي
تبقى ما بقى الدهر :

انا الى الله راجعون لقد

اصبح حزني عليك الوانسا

حزن اشتياق وحزن مرزاة

اذا انقضى عاد كالذي كانسا

احمد حسن الزيات (٢١) :

قضى الله الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ان يسكن العقل
المفكر ، ويقف القلب المحرك ، ويقف القلب السيل ، ويموت العقائد
الانسان ، بعد ستين عاما قضاها في سبيل الفكر العميق الصافي لا يفتر في
ليل ولا نهار ، ولا يكل في صحة ولا مرض ، ولا يهن في رخاء
ولا شدة ..

ان في كل ساعة من ساعات النهار والليل الوفا من الانفس بتابعهم
القبور ، فلا يعقب فقدم فراغا ولا دهشة ، ولكن فقد عظيم واحد في
العلم او الادب او الفن أو السياسة او الاصلاح يحدث في العالم من
الخسران ما عبر عنه عبدة بن الطيب في قيس بن عاصم :

فما كان قيس هلكه هلك واحد

ولكنه بنيان قوم تهـدما

نعم انا جزعنا على العقاد بعقولنا أكثر مما جزعنا عليه بقلوبنا ، لانه لم
يترك من بعده من نرثي له ونشفق عليه من زوجة كان يكفلها ، وولد
كان يربيه ، وعش كان يحميه ، وحب كان يشغفه ، وانما ترك عقولا
كان يفاديه بالمعرفة ويراوحها بالحكمة ، وشيعة كان يسدها بهديه
ويوجهها بوجهه ..

(٢١) الرسالة الصادرة في ١٩ مارس ١٩٦٤

وستظل كتبه على تعاقب الاجيال ملء الافواه وشغل الازهان ما دام
في الارض ناطق بالضاد وطالب للمعرفة ، فاذا بكينا فانما نبكي علينا لا
عليه ، واذا سألتنا الله العوض منه فانما نسأله لنا لا له ..

الدكتور محمد منصور (٢٢) :

لقد استطاع العقاد ان يؤثر في التكوين الثقافي العام لمجتمعنا الحديث
تأثيرا كبيرا ، وبخاصة وان حرصه الدائم على مواصلة القراءة والاطلاع
على الثقافات العالمية قد مكنه من ان يبذر في حقنا الثقافي الحديث الكثير
من الافكار والقيم والاتجاهات العالمية الحديثه ، وان يناقش كل ذلك
فيقبل البعض ويرفض البعض على أساس من توافق او تناقض بين
شخصيته القوية المتميزة التي كانت تعرف دائما ما تريد وما ترفض
في عناد وشجاعة بل وصلابة ..

وبالضرورة لم يكن من المستطاع ان نوافق المرحوم العقاد على كافة
آرائه الخاصة ولكننا مع ذلك لم نكن نستطيع الا احترامه لشجاعته
واصالته وغيرته على رأيه كغيرة الرجل الكريم على عرضه ، ومما لا شك
فيه اننا قد فقدنا بفقد العقاد علما كبيرا من اعلام نهضتنا الثقافية
المعاصرة ورائدا من رواد الادب والفكر ومناهج البحث في علمنا العربي
المعاصر كله ..

الدكتور محمد غنيمي هلال (٢٣) :

كان العقاد الوحيد بين اقرانه الذي ارسى دعائم نقده على ثقافة
نظرية وفلسفية واسعة هيأت له أن ينظر الى العمل الادبي بوصفه كلا ،
وان ينظر بعد ذلك الى الجزئيات في ضوء هذا الكل . وقد عرف كيف

(٢٢) الرسالة الصادرة في ٢٦ من مارس ١٩٦٤ من مقال : العقاد
وأثره في حياتنا الثقافية .

(٢٣) الثقافة الصادرة في ٢١ من أبريل ١٩٦٤ من مقال : العقاد
رائد الاتجاهات المعاصرة في الشعر العربي .

يمثل الثقافة العالمية في جانبها النظري والعملى ، بعد ان اطلع « ادق اطلاق
واوسعه على تراثنا الادبي القديم الذي تذوقه بحاسته الفنية المرهفة
الخلاقة ، فاهتدى بذلك كله الى ما يدعم بناء القصيدة العربية ، ويهيء
للمعشر أن يؤدي رسالته ، بتوفير الوسائل التصويرية الحديثة لها ، وكان
من اثر ذلك ان تجدد ادراكنا الفني ، فقومنا المفهومات القديمة على منهج
جديد ، وبمقتضى نظريات استقرت ورسبت في الفكر العالمي منذ ما
يزيد على قرن ونصف من الزمان ، وكان للعقاد فضل جلائها لدينا
على وجهها الصحيح العميق •

الدكتور شوقي ضيف (٢٤) :

لم يكتسب العقاد مكائنه الادبية الرفيعة من جاه ولا من وظيفة ولا
من لقب علمي ، انما اكتسبها بكفاحه المتصل العنيف الذي يعد به
اعجوبة من اعاجيب عصرنا النادرة ، فقد تحول بعد حصوله على الشهادة
الابتدائية يزود نفسه بالمعارف زادا وافرا ، واحتل الادب قلبه وشغله عن
كل متاع في دنياه مستأثرا بكل ما فيه من قوة وفكر وعاطفة • ولا يخطو
في العقد الثالث من عمره خطوات حتى يفجأ البيئات الادبية فجأت متوالية
بما ينقل عن الغرب من آثار محللا وناقدا مستتبطا مناقشا ، وبما يرسم
للمعشر العربي من وجهة جديدة تتأثر فيها ملكات الشاعر بما يتجاوب
حوله من موسيقى الطبيعة واصداء الجمال •

وهدته بصيرته النافذة منذ اول الامر الى ان واجب الاديب العربي
المعاصر ان يتطور بأدبنا في ضوء الآداب الغربية حتى يخرج به من عالمه
التقليدي بقيوده واغلاله اللفظية والمعنوية الى عالم حر فسيح ، تندفع فيه
أمتنا العربية اندفاعا الى حرية التفكير والتعبير ، بحيث توهمج جذوة
الآمال القومية في ضميرها توهجا ، وبحيث يحيي ادبها حياة قوية حافلة

(٢٤) من مقدمة الدكتور شوقي ضيف لكتابه « مع العقاد ، الذي

صدر في أول يولية ١٩٦٤

بما يملأ النفوس اعجاباً • وفرغ لهذه الغاية النبيلة ، وقصر عليها كل ملكاته ، وكانت ملكات خصبة اروع ما يكون الخصب ، لما امتلك من عقل ذكي ثاقب ومن شعور رقيق مرهف ، ومن حس دقيق حاد ، ومن قدرة بارعة على درس ما يقرؤه وبحثه وتحليله ، فعكف على قراءة فلاسفة العرب والغرب ، وانفتحت له أبواب ادبنا والآداب الغربية على مصاريعها ، ونفذ من كل ذلك الى صورة ادبية عربية جديدة فسح فيها لطافات التعبير ، حتى لكانما انتقل بادبنا من ضفة الى ضفة •••

مصطفى أمين (٢٥) :

كان العقاد جبلاً ، فلا عجب ان تحدث وفاته دويماً كسقوط الجبل وقد كان فيه من الجبل شموخه وعلوه ، وقوته وصلابته ، وصموده أمام العواصف والاعاصير ، ولم يكن في استطاعة الواقفين في السفح ان يتبينوا مقدار ارتفاعه ، ولا كل عظمته ، فاذا ابتعدوا عن الجبل مسافة وزمنا استطاعوا ان يروا هذا المجد الكبير الذي تمثل في رجل واحد •• ويجب الا تنسى للعقاد انه جعل للاديب كرامة ، وارغم الحكام ان يحترموا كرامة الكاتب ، ورفض ان يكون الكاتب السياسي ذليلاً لرئيس الحزب ، بل انه اصر على ان الكاتب شريك للزعيم ، يكتب ما يؤمن به ، ويناقش رئيس الحزب على قدم المساواة •

كامل الشناوي (٢٦) :

لم أكد اسمع نبأ وفاة استاذنا عباس العقاد ، حتى اعترتني قشعريرة واحسست ان الدموع لا تنحدر من عيني ولكن تنحدر من ذهني • فالعقاد بالنسبة لي ليس فقط صديقاً ينبض به قلبي ، وانما هو حبيب عقلي ، اشعر وانا اقرؤه ، او انا اناقشه ، او اتبادل الحديث معه اني

(٢٥) الاخبار الصادرة في ١٢ من مارس ١٩٦٤ •

(٢٦) الاخبار في ١٢ مارس ١٩٦٤ تحت عنوان « يا حبيب عقلي

لا تمت » •

ابنه نجوى افكارى واصفى الى افكاره وهي تناجيني بمنطق باهر ، وذكاء عميق ، ونبرة ساحرة •

احمد بهاء الدين (٢٧) :

هذه الصفحات تقدمها اخبار اليوم تحية متواضعة متعجلة لذكرى رجل عظيم ، لقد بدأ العقاد مغامرته الشاقة في طريق الفكر والفن والادب وبلادنا في قرارة الاضمحلال : الفكر ميت ، والفن بمعناه المحترم غير معروف ، والادب متحجر في قوالب بالية تحمل كل آثار الظلام العثماني الذي دام قرونا طويلة ، وانتهت حياة العقاد منذ أيام وحياتنا الفكرية حافلة باليقظة والنشاط والصراع ، وأنواع الفنون بشتى أشكالها تفرر ارجاء البلاد ، وترسل بعض اشعتها عبر الحدود ، والادب قد تحطمت في طريقه الصخور وانفتحت امامه كل الآفاق •

وكان العقاد من ابرز الذين كافحوا وناضلوا في سبيل هذا كله خمسين سنة مستمرة بدأ هذه السنوات الخمسين مناظلا مقاتلا يثير الضجة في كل مكان وختمها مناظلا مقاتلا يثير نفس الضجة والجدل •

وكل رجل عظيم تموت بموته اشياء كثيرة جانبية ، هي من طبيعة الحياة وما فيها من صراع وخلاف واحتدام ، وتبقى منه للتاريخ انجازاته الكبرى ، ومواقفه الاساسية بما فيها من خطأ وصواب يصبح كلاهما جزءا اساسيا من تراث بلادهم •

ان كل من يحمل قلما في العالم العربي كله مدين للعقاد بصورة أو بأخرى ببعض ما لمهنة القلم من كرامة ، وببعض ما في عالم الفكر والفن والثقافة من نور وحياة أما التقسيم الكامل لعمل عباس محمود العقاد واثره ، فسوف يتسع له ولا شك الكثير من اعداد الصحف ومن الكتب ، ومن السنوات •

(٢٧) أخبار اليوم الصادر في ١٤-٣-١٩٦٤ • افتتاحية العدد ، •

أنيس محمد منصور (٢٨) :

لم يكن في حياته شيء سهل ، فحياته شاقة وافكاره ايضا ، واذا تناول العقاد موضوعا قلبه من كل ناحية ، وامسكه بكماشة اسمها العقل ولضمه في خيوط اسمها المنطق ، والقى به في شبكة اسمها الهدف . وعلمنا العقاد من عشرات السنين أن نفكر بالعقل ، وان العقل متعة ، وانه كرامة أيضا . وانه من الممكن ان يكون الانسان عالما خفيف الدم ، بل من الصعب الا يكون العلماء محبين للمرح ، والذين لا يعرفون العقاد شخصا يتصورون انه كئيب وانه جاف . ولكن العقاد كان يحب النكتة والقفشة ، ولا اعرف لماذا كان العقاد شديد الوله بالضحك في الايام الاخيرة ، ولا اعرف لماذا كان محبا للحياة ساخرا من المرض ، لا يتهب الموت ، وانما هو يضيق فقط بالالم . . . وكان يقول : الموت واعرفه . . . لكن هذا الذي يوجعني ولا اعرفه هو الذي يضايقني ، وأما الذي يوجعه فهو يعرفه أيضا . . . انه الموت يتعثر في أعماق الحياة ، لقد حكم العقاد على نفسه أن يعيش بالعقل ، فاختار في نفس الوقت أن يموت بنفس السلاح الذي عاش به . . . بالعقل ايضا . . .

ومات العقاد . . . ولا اعرف بالضبط ما احس به من ألم او من وجع او ذهول ، واننى هنا اسجل عجزى عن البكاء على فقد الادب كله ، وعلى فقيدي أنا وحدي .

أحمد عباس صالح (٢٩) :

قابلته آخر مرة منذ عامين او ثلاثة ، كانت قامته المديدة قد انحنت قليلا ، وبياض الشعر قد غزا رأسه كله ، أما عيناه فكأنتا كئيتين بعض

(٢٨) الاخبار الصادرة في ١٣ من مارس ١٩٦٤ « ركن الادب » الذى يعده أنيس محمد منصور .

(٢٩) مجلة الكاتب الصادرة في أبريل ١٩٦٤ تحت عنوان عظمة العقاد ومأساته .

الشيء ، والمثل يسيطر على جلسته القلقة وكلامه المقتضب ، والافكار التي لا تكثر كثيرا بأن توضح نفسها •

وحين انصرف ، وانصرفت خلفه ، وقفت ارقبه وهو يعبر الطريق في صحبة مرید قريب من سنه استكان الى هذا البناء الشامخ الذي يسير الى جواره ، فعلى كتفي هذا البناء القى المریدون جميعا ، كل اعباء النضال عما يعتقدون •

تابعته من مكاني وهو يمضي في الشارع الطويل ، كان صامتا ومهموما حتى انه لم يتبادل وصفيه كلمة واحدة الى أن اختفيا عن ناظري في اول انحناء •

واحسست بقوة جذب شديدة اليه ، كيف اسحب كلماني وتربصات عيني من تصوراته الان •• كان كالفارس الذي مل النضال الرجل البطل الذي لم تدرك بطولته كما ينبغي •• فارس عظيم من عصور قديمة هبط في عصر يتبرج بعقائد وافكار غريبة •• وها هي ذى السنين الطويلة تمضي في الكفاح الصلب العنيد كاعنف ما يكون الكفاح ، والعمر يوشك أن يفنى ولم يزل البطل بعيدا عن المكان الذي تطلعت اليه عيناه • لقد كان العقاد بطلا حين ناضل من اجل الدستور ومن اجل الحرية ومن اجل الاستقلال • وكانت بلادنا في حاجة الى ابطال • ولم يكن يضيرنا ، بل انه لا يضيرنا ، الان ان نعترف باننا ما زلنا بلدا يحتاج الى الابطال ••

رجاء النقاش (٣٠) :

مات العقاد ، مات الرجل العظيم الذي ملأ حياتنا بصوته المدوي طيلة خمسين عاما متتالية ، مات الرجل الذي احبه الكثيرون ، واختلف معه الكثيرون واحترمه الجميع •• مات بعد ان ترك للمكتبة العريضة

(٣٠) الجمهورية بتاريخ ١٩ من مارس ١٩٦٤ تحت عنوان : محامي الصابرة •

نروة اقلها سوف ينساه الزمن واكثرها سوف يعيش مع التراث العربي
الاصيل •

اطلق عليه بعض النقاد اسم : محامي العباقرة ، واطلق عليه سعد
زغلول اسم الكاتب الجبار ، واطلق تلاميذه حينما كان يشتغل بالتدريس
في شبابه الاول اسم « الكاهن حرحور » وهم اسم كاهن مصري قديم
جمع في صورة قوية بين السلطة الدنيوية والسلطة الروحية وهكذا كان
العقاد - دائما يغرى الذين يعرفونه ويتصلون به بالبحث عن اسم او
صفة خاصة ، ويرجع ذلك دون جدال الى انه شخصية ممتازة متفردة ،
وكان الناس يشعرون بهذا الامتياز والتفرد منذ اللحظات الاولى للاتصال
به ، واخطر من ذلك انه هو نفسه كان يشعر بهذا الامتياز والتفرد في
شخصيته ••• منذ طفولته الاولى حتى نهاية حياته ••

لقد مات الرجل العظيم الذي فقده ادبنا في هذه الايام ، والذي كان
يملاً علينا الحياة بحرارته وعنفه وصوته المدوى •

المراجع العربية :

- القاهرة ١٩٦١ ابراهيم عبدالقادر المازني : ديوان المازني
انفور ايفانز : تاريخ الادب الانكليزي ، ترجمة الدكتور
القاهرة ١٩٥٨ شوقي السكري وعبدالله عبدالحافظ
تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد ، ترجمة عباس محمود
جمال عبدالناصر : فلسفة الثورة
القاهرة ١٩٥٤ الجزيري : سعد زغلول بقلم سكرتيره
القاهرة ١٩٦٠ حسن نجيلة : ملامح من المجتمع السوداني
القاهرة ١٩٦٤ رمزي مفتاح : رسائل النقد
القاهرة ١٩٦٤ الدكتور شوقي ضيف : مع العقاد
القاهرة ١٩٦٤ : عباس العقاد : انا
١٩١٢ الانسان الثاني
القاهرة ١٩٤٢ اعاصير مغرب
القاهرة ١٩٥٦ افون الشعوب
القاهرة ١٩٥٠ بعد الاعاصير
القاهرة ١٩٦٤ حياة قلم
القاهرة ١٩٥٨ ديوان من دواوين
القاهرة ١٩٢١ الديوان في النقد والادب
القاهرة ١٩٦٣ رجال عرفتهم
القاهرة ١٩٤٥ ساعات بين الكتب
القاهرة ١٩٣٦ سعد زغلول
القاهرة ١٩٣٧ شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي
القاهرة ١٩٥٥ الشيوعية والانسانية

- القاهرة ١٩٥٧ الطبقات في المجتمع الحديث
- القاهرة ١٩٣٧ عابر سبيل
- القاهرة ١٩٥٧ العبقريات
- القاهرة ١٩٥٣ على الاثير
- القاهرة ١٩٢٢ الفصول
- القاهرة ١٩٥٥ فلسفة الثورة في الميزان
- القاهرة ١٩٤٥ في بيتي
- القاهرة ١٩٥٧ لا شيوعية ولا استعمار
- القاهرة ١٩٤٧ الله
- القاهرة ١٩١٦ مجمع الاحياء
- القاهرة ١٩٦٢ محمد عبده
- القاهرة ١٩٢٥ مراجعات في الاداب والفنون
- القاهرة ١٩٢٤ مطالعات في الكتب والحياة
- القاهرة ١٩٤٠ هتلر في الميزان
- القاهرة ١٩٣٣ هدية الكروان
- القاهرة ١٣٣ وحي الاربعين
- القاهرة ١٩٤٧ يسألونك
- القاهرة ١٩٦٥ عبدالحى دياب : عباس العقاد ناقدا
- القاهرة ١٩١٦ عبدالرحمن شكرى : اعترافات شكرى
- القاهرة ١٩٦٠ مقدمة الجزء الخاص من ديوانه
- القاهرة ١٩٦١ عبدالرحمن صدقي : العقاد كما عرفته من كتاب العقاد
دراسة وتحية
- القاهرة ١٩٦٠ عمر البسوقى : دراسات أدبية
- القاهرة ١٩٥٠ في الادب الحديث ج ٢
- القاهرة ١٩٤٥ محمد توفيق دياب : اللمحات

القاهرة ١٩٥٤	محمد خليفة التونسي : فصول من النقد عند العقاد
القاهرة ١٩٣٨	محمد عطية الابراشي : الشخصية
القاهرة ١٩٤٨	مصطفى السحراني : الشعر العربي المعاصر على ضوء النقد الحديث
القاهرة ١٩٢٣	ميخائيل نعيمة : الغربال
القاهرة ١٩٢٠	مى زيادة : باحثة البادية
القاهرة ١٩٥٤	الدكتورة نعمات فؤاد : أدب المازني
القاهرة ١٩٦٠	نيقولا يوسف : مقدمة ديوان شكري الدوريات

يناير ١٩٦١	الأدب البيروتية
١٩ من أكتوبر - ١٩٦١	الاساس
الجزء الثاني والعشرون من السنة الاولى	الاستاذ
نوفمبر سنة ١٩٥٩	الازهر
ابريل سنة ١٩٣٤	أبوللو
يونيه ١٩٣٤	آبولو
١ ابريل ١٩٦٤	الثقافة
٢٠ أكتوبر ١٩٦٤	الثقافة
٣ نوفمبر ١٩٦٤	الثقافة
١٩ مارس ١٩٦٤	الجمهورية

آخر ساعة : ١٤ و ٢١ و ٢٨ اغسطس و ٤ و ١٨ سبتمبر و ٢ و ٩ و ١٦ و ٢٣ و ٣٠ أكتوبر ١٩٥٧

الاخبار : ١١ سبتمبر ١٩٥٢ و ١٨ و ٢٢ ديسمبر ١٩٥٨ و ٢١ ديسمبر ١٩٦٠ و ٣ أكتوبر ١٩٦٢ و ٤ سبتمبر ١٩٦٣ و ٢١ فبراير و ١٢ و ١٣ مارس ١٩٦٤ و ٩ يوليه ١٩٦٥

أخبار اليوم : ٢٥ سبتمبر ١٩٤٧ و ٢٤ فبراير و ١٢ و ١٤ مارس ١٩٦٤ .
الدستور : ٢١ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٦ نوفمبر ١٩٠٧ و ٢ و ٤ و ٧ و ١١ و ٣١ ديسمبر
١٩٠٧ و ١٠ و ١١ يناير و ٢ أبريل و ١٣ و ١٤ ديسمبر

• ١٩٠٨

الرسالة : ٢٥ يوليه ١٩٣٨ و ١ ديسمبر ١٩٤١ و ٦ نوفمبر ١٩٤٤ و ١٩
و ٢٦ مارس ١٩٦٤ .

• السياسة : ٥ و ١٢ أبريل ١٩٣٠

• عكظ : ٢٧ يوليه ١٩١٣ و ٩ و ٢٣ مارس ١٩١٤

والاعداد ٥٨ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ من سنة ١٩٢٠

• الكتاب : م-٢ ١٩٤٦ و مايو ١٩٤٧ و أكتوبر و نوفمبر ١٩٥٢

الكاتب : أبريل ١٩٦٤

كل شيء : اغسطس ١٩٣٥

• المجلة : فبراير و أبريل و يوليه ١٩٥٩ و أبريل ١٩٦٢

مجلة المجمع اللغوي : الجزء السابع

الهلال : فبراير ١٩٣٩ و يناير ١٩٤٧ و مارس ١٩٤٨ و يناير ١٩٤٩ و أكتوبر

١٩٥١ و يناير و ديسمبر ١٩٥٢ و فبراير و يوليه و نوفمبر

• ١٩٥٣ و أكتوبر ١٩٦١ و يناير ١٩٦٢

المصور : ٥ يوليه ١٩٦٣

المقتطف : يناير ١٩١٧

المراجع الاخرنجية

1. Tahir Khemiri and G. Kampffmeyer: leaders: in Contemporary Arabic Literature. (1930) P. 13
2. A Tale of Two Cities, by Dickens Charles, Every Man's Library, London. 1942, P5
3. Wordsworth poetry and Prose, Introduction by, D. N. Smith, P.4 etc.
4. A Short History of English Literature by Emile Legouis P. 281 etc.

المحتوى

١	تقديم
	تمهيد (البيئة الخاصة) :
١	الحياة السياسية - الحياة الاجتماعية - الحياة الفكرية البيئة الخاصة :
٧	مولده واسرته - مدرج الصبى - في مفترق الطريق كفاح قلم :
	مجلة التلميذ - في عالم الوظائف - انعقاد بين التقليد والتجديد - خلاصة اليومية - هروبه - الرقابة على الصحافة - المراسلة الحربية - جريدة الاهالى
٢٢	مع الاذباء :
	معرفته بالكتاب - مدرسة الجيل الجديد - خصومة المازنى وشكري - استاذية شكري
٧٢	معالم المدرسة الثورية :
	موقف العقاد من مقومات المدرسة - الاصاله في الدعوة - بين مدرسة الجيل الجديد والمهجرين
١٠١	في عالم السياسة :
	منهجه السياسي - في السياسة المصرية - في رحاب الثورة مع الاشتراكية :
١٢٠	الاشتراكية الفابية - الاشتراكية الديمقراطية - تدويب الطبقات - الاشتراكية والاسلام
١٦٥	معالم الشخصية :
	شخصيته - عقيدته - فلسفته العامة - الفردية - الحرية - نظراته الفنية الى الكون والحياة
١٩٣	نهاية المطاف :
	الرحيل - اقوال الكتاب فيه
٢٤٣	مراجع الكتاب
٢٦٧	

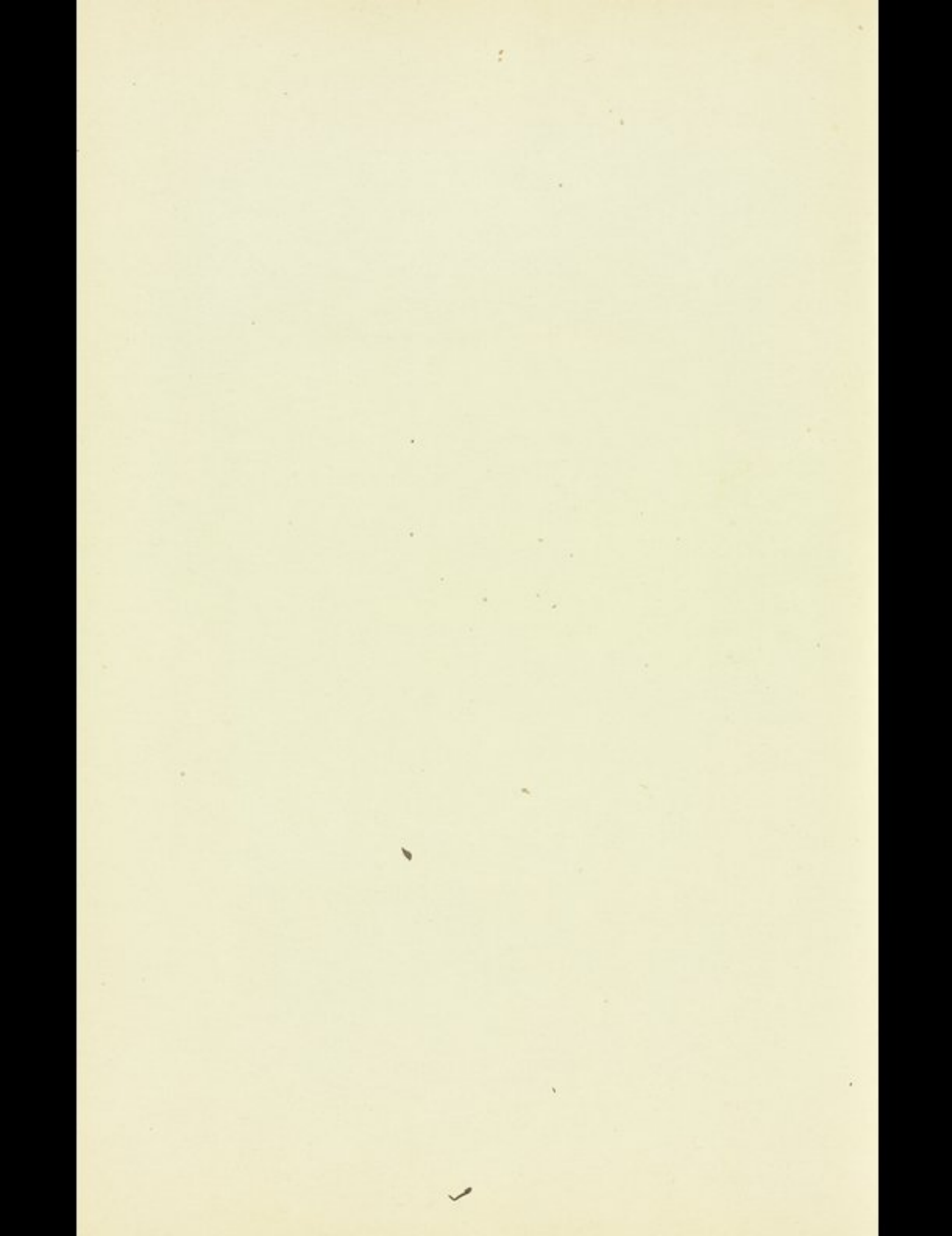
وزارة الثقافة والإعلام
مديرية الثقافة العامة

صدر عن مديرية التأليف والترجمة والنشر المطبوعات التالية في
سلسلة الكتب الحديثة :

فلس دينار

- ١ - رائد الموسيقى العربية : تأليف عبدالحميد العلوجي - ٢٠٠
- ٢ - معجم الموسيقى العربية : تأليف حسين علي محفوظ - ٢٠٠
- ٣ - جولة في علوم الموسيقى العربية : تأليف ميخائيل خليل الله ويردي - ٥٠
- ٤ - انحرية : تأليف ابراهيم الخال - ١٠٠
- ٥ - موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي - ٥٠
- ٦ - موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي - ٥٠
- ٧ - النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون العراقي : تأليف حامد مصطفى - ٣٥٠
- ٨ - علي محمود طه ٠٠٠ الشاعر والانسان : تأليف أنور المعداوي - ٢٠٠
- ٩ - مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبدالحميد العلوجي - ٢٥٠
- ١٠ - أبو تمام الطائي : تأليف خضر الطائي - ١٥٠
- ١١ - من شعرائنا المنسيين : تأليف عبدالله الجبوري - ٢٠٠
- ١٢ - محمد كرد علي : تأليف جمال الدين الآلوسي - ٣٠٠
- ١٣ - ادباء المؤتمر : تأليف عبدالرزاق الهلالي - ٢٠٠
- ١٤ - بدر شاكر السياب : تأليف عبدالجبار داود البصري - ١٥٠
- ١٥ - الواقعية في الادب : تأليف عباس خضر - ٢٠٠
- ١٦ - شعراء الواحدة : تأليف نعمان ماهر الكنعاني - ١٥٠

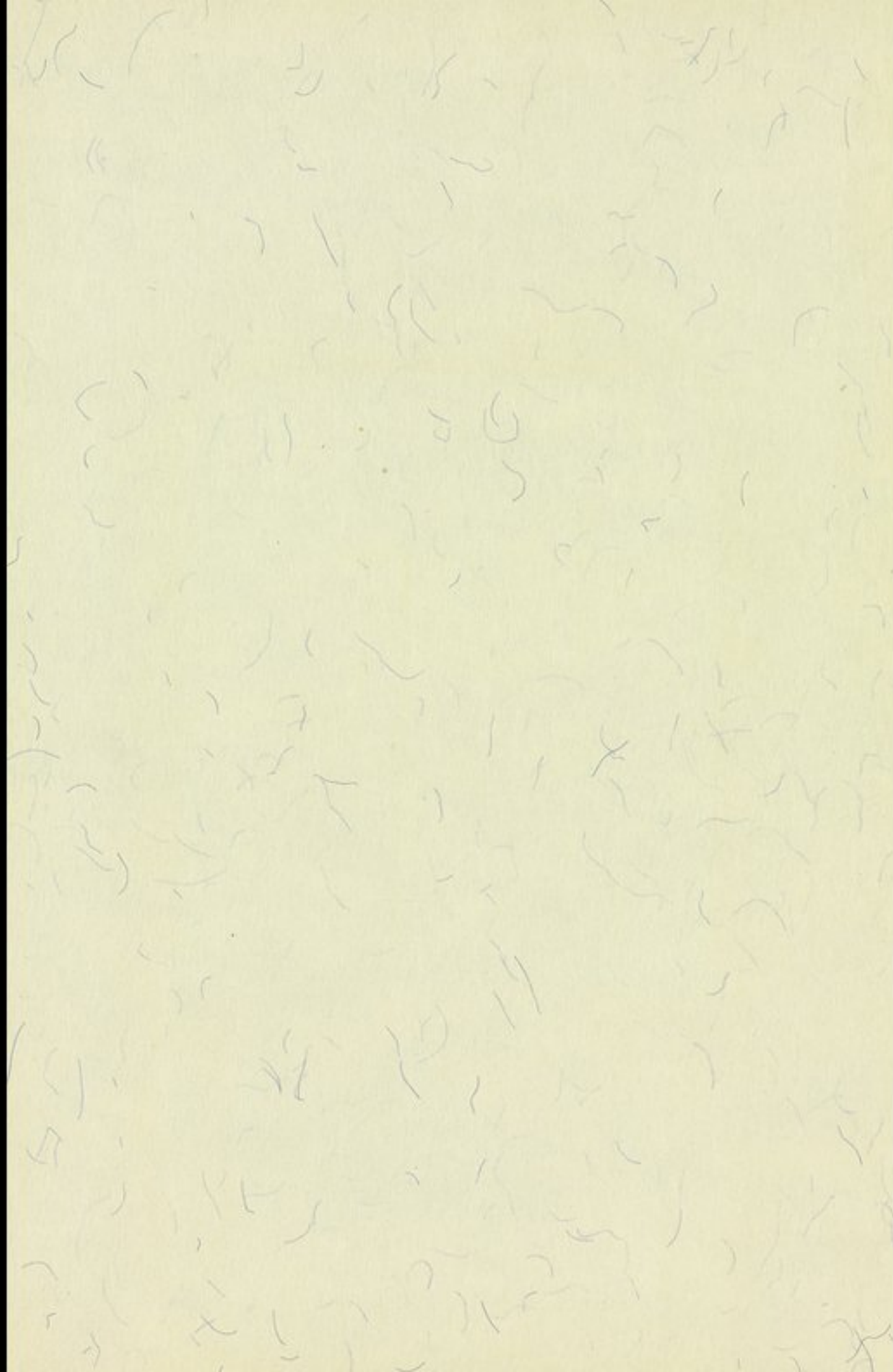
- ١٧- لقاء عند بوابة مندليوم : تأليف احمد فوزي
٢٠٠ -
- ١٨- خسرناها معركة ٠٠ فلنربحها حربا :
تأليف فيصل حسون
٢٠٠ -
- ١٩- عطر وحبر : تأليف عبدالحميد العلوجي
٣٥٠ -
- ٢٠- الدبلوماسية في النظرية والتطبيق :
تأليف فاضل زكي محمد .
٣٠٠ -
- ٢١- من عيون الشعر : مختارات ناجي القشطيني
٤٥٠ -
- ٢٢- مع الكتب وعليها : تأليف عبدالوهاب الامين
٢٠٠ -
- ٢٣- مقال في الشعر العراقي الحديث :
تأليف عبدالجبار داود البصري
١٥٠ -
- ٢٤- مع الاعلام : تأليف جميل الجبوري
٣٠٠ -
- ٢٥- محاكمات تاريخية : تأليف مدحة الجادر
١٢٠ -
- ٢٦- سنتان في المغرب : تأليف جابر الفؤادي
٢٠٠ -
- ٢٧- دراسات تأملية : تأليف شاكر حسن آل سعيد
١٧٥ -

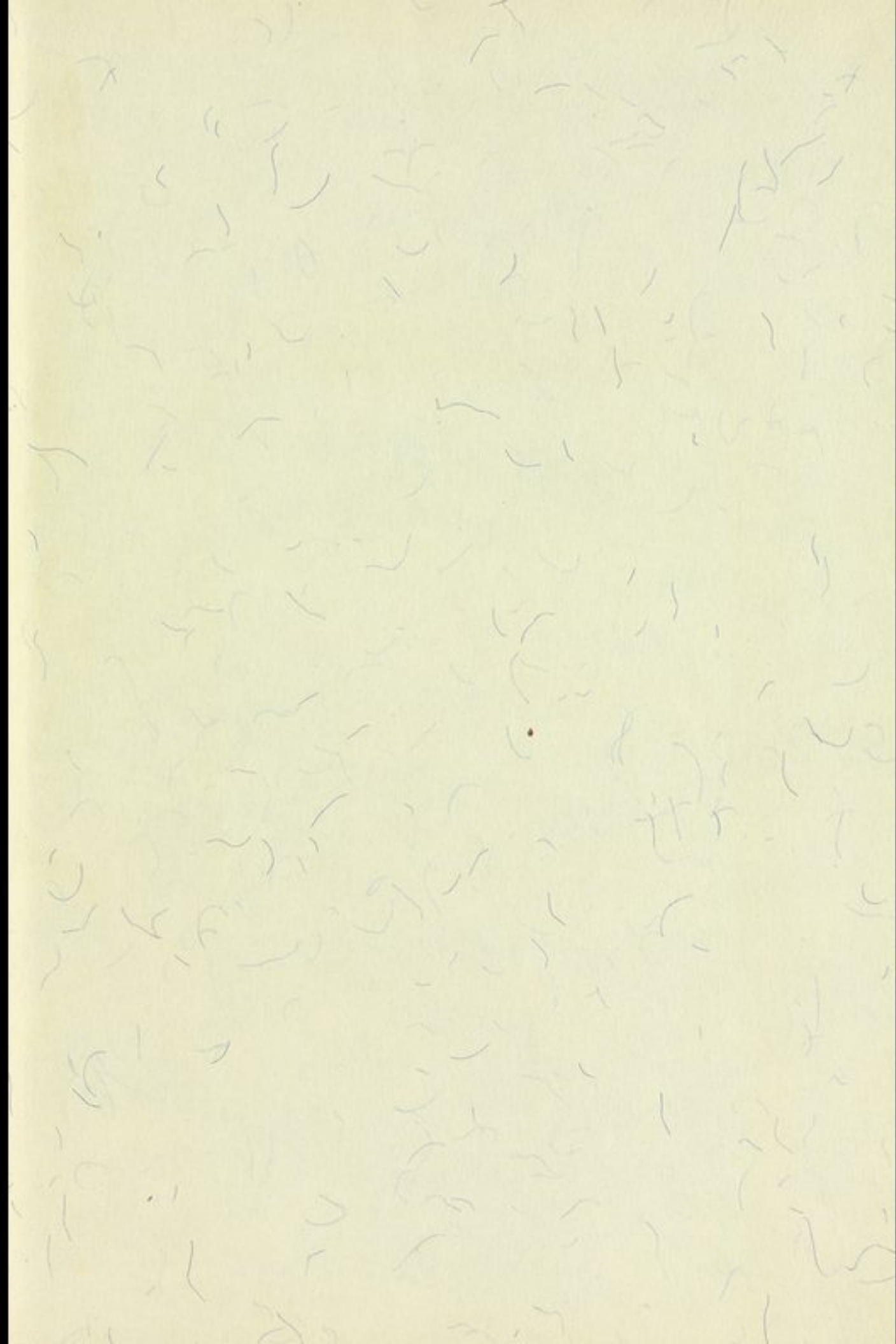




ثمن النسخة ٢٨٠ فلسا

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجمهورية
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م





COLUMBIA UNIVERSITY



0026812436

956
Ir27
28

FEB 19 1971

